مجدي كامل

مائة امرأة.. غيرن مجرى التاريخ

مائة امرأة.. غيرن مجرى التاريخ

الطبعة الأولى

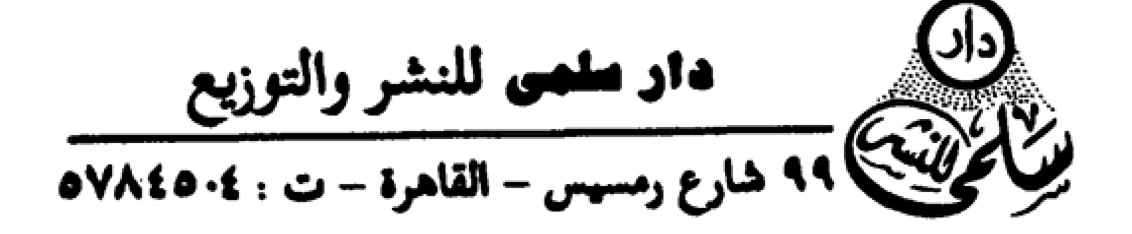
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

الغــــلاف : الفنان عمرو فهمى

خطـــوط: سامـــى عرفـــة

الجمـــع : مصر لخدمات الناشرين

الإخراج الفنى : مجـــدى كامـــل



مائة إمرأة .. غيّرن مجرى التاريخ

مجدي كامل

إهداء ..

إلى كل إمرأة خرجت من معركة الحياة ، وهى لم تزل تمسك بيدها على كتاب .

مجدى

تقـــــديم

التاريخ ملئ بصفحات ناصعة البياض لآلاف النساء العظيمات ، اللاتى قدمن للإنسانية إنجازات رائعة جعلتهن يتبوأن مكانة رفيعة فى سجل الخالدين . كما يضم التاريخ الإنسانى بين طياته - للأسف - صفحات حالكة السواد لنساء تنكرن لإنسانيتهن ، وتحركن من خلال ما لديهن من نزعات تدميرية ســـواء نحـو الذات ، أو نحو الآخرين !

وبين نسـاء التاريخ عظيماته، وشقياته ، شخصيات لا لون لها ، ولا طعم، ولا رائحة ، آثرت البقاء فى الظـل ، أو على هامش الحيـاة ، لا تأثير لهن ، ولا فعالية .

وهذا الكتاب محاولة لإعادة كتابة تاريخ النساء ، ويروى كيف كان للمرأة النصيب الأوفر من صفحاته سواء الناصعة البياض ، أو الحالكة السواد ، وكيف لعبت دوراً خطيراً فى كتابة أحداثه سلباً ، وإيجاباً ، وكيف كانت وراء تحريك عجلته تارة إلى الأمام ، وتارة إلى الخلف . كيف كانت تمثل فى بعض الأحيان قوة دفع ، وفى أحيان أخرى حجر عثرة أمام تقدم البشرية .

ونحن هنا نقدم مائة إمرأة كان لهن دور خطير ، وبارز فى تغيير مجرى التاريخ الإنسانى سلباً ، وإيجاباً سواء من خلال قرارات ، وأفعال ، وأفكار ، أو المساهمة فى دفع مسيرة عباقرة عظماء ، ومساعدتهم فى إظهار عبقريتهم الفذة لخدمة الإنسانية ، والنهوض بها ، أو من خلال جر الإنسانية إلى الوراء آلاف السنين ، لعصور التخلف والقهر والعبودية ، وتشويه المكاسب الحضارية .

هذا الكتاب ما هو إلا مرجع هام لأى قارئ يريد أن يسبر أغوار التاريخ لمعرفة أهم نسائه فى الماضى والحاضر اللاتى ساهمن بالنصيب الأعظم فى تغيير مسار العالم .

مجدى كامل

١

كليوبـــاترا ..

مادامت هذه هي النهاية فلماذا لا نجعلها أجمل !!

لم يحدث على الاطلاق أن أجمعت كتب التاريخ على اتخاذ موقف عدائى من شخصية تاريخية بارزة كما فعلت مع كليوباترا الملكة التى حكمت مصر منذ حوالى ألفى عام .. وصف المؤرخون كليوباترا بكل شرور الدنيا .. فهى القاتلة والخائنة والفاسقة والمستبدة والمتآمرة التى تعبد السلطة فى بحر الملذات وتمثل التجسيد المثالى للأنانية والمكر والدهاء .

وهذا التحيز الواضح ضد كليوباترا يجعل من الصعب تقييم هذه الشخصية التاريخية بشكل موضوعى خاصة أن جميع المصادر التاريخية اصدرت بالفعل حكمها النهائى عليها وأغلقت صفحتها فى كتاب التاريخ بعد أن ختمت عليها بخاتم العار واللعنة الأبدية .

ورغم ذلك فليس هناك خلاف على أن كليوباترا السابعة قد احتلت مكانة بارزة فى التاريخ وذلك لثلاثة أسباب رئيسية وهى انها كانت هى المخلوق البشرى الوحيد بعد هانيبال الذى استطاع أن يثير الخوف فى قلب الامبراطورية الرومانية . كما أنها أثرت على ثلاثة من أكبر قادة الامبراطورية الرومانية وهم يوليوس قيصر ومارك أنطونيو وأوكتافيوس وبالتالى تركت بصمتها على سياسات هذه الامبراطورية التى كان لها أثرها على مجرى التاريخ فى العالم بأسره .

أما السبب الثالث فهو انها كانت نموذجا فريدا للمرأة فى كل العصور بالرغم أنها كانت تعبد السلطة والنفوذ وتمارس كل الوسائل العملية اللازمة لتحقيق طموحاتها الا أنها كانت فى نفس الوقت نموذجا للمرأة الرومانسية بشكل يندر تكراره لدى أية امرأة اخرى فى التاريخ .

ولدت كليوباترا عام ٦٩ قبل الميلاد وكانت هى الابنة الثانية للملك بطليموس الثانى عشر وأصبحت هى أخر ملوك وملكات تلك العائلة المقدونية التى حكمت مصر بعد وفاة الاسكندر الاكبر فى عام ٣٢٣ قبل الميلاد وحتى ضم مصر إلى روما عام ٣١ ق م .

ورغم أن كليوباترا من أصل مقدونى ولا تجرى فى عروقها نقطة واحدة من الدم المصرى إلا أنها كانت تردد لأسباب سياسية ، أنها ابنة « رع » اله الشمس عند الفراعنة .

تماثيل كليوباترا وصورها على العملات المعدنية وجدران المعابد تشير إلى أنها لم تكن ذات جمال باهر ، كان وزنها ٤٠ كيلو جراما فقط وطولها ١٥٠ سنتيمترا .. فم دقيق .. وذقن توحي بالحسم وعينان لامعتان وأنف حاد يرتفع لأعلى مشيرا لقوة الشخصية . يقول المؤرخ الاغريقي بلوتارك أن صوت كليوباترا كان يشبه آله موسيقية متعددة الاوتار .

وفي عام ٥٨ قبل الميلاد ثار المصريون على حكم والدها بطليموس الثاني عشر الذي هرب من مصر إلى روما وساعده الجيش الروماني على العودة إلى عرشه بعد ثلاث سنوات .

وفي عام ٥١ ق م مات الملك بطليموس وتولى العرش من بعده ابنه بطليموس الثالث عشر وعمره لا يتجاوز ١٥ عاما وكان متزوجا من اخته كليوباترا وحكم الاثنان مصر معا لمدة ٤ سنوات .

في ذلك الحين ، كانت مصر بمثابة محمية رومانية منذ عام ١٦٨ ق م وكان هدف كليوباترا هو ان تنفرد بالحكم وتقيم امبراطورية مترامية الأطراف .. وقد أدركت بوضوح أن تحقيق هذه الطموحات يتطلب أن تكون علاقاتها طيبة بقادة الامبراطورية الرومانية .

وهكذا ، فعندما وصل يوليوس قيصر إلى الاسكندرية أثناء مطاردته لخصمه بومبي توجهت كليوباترا إلى هناك ومعها أحد خدمها وأمرته بأن يلفها في سجادة ويتقدم بها إلى مقر يوليوس قيصر .

وهناك ابلغ الخادم الحراس انه يحمل هدية لقيصر ولما سمح له بالدخول قام بفرد السجادة أمام الامبراطور الروماني وظهرت بداخلها كليوباترا وهي في اروع زينة فبهرت قيصر وخلبت عقله .

كانت كليوباترا تدرك غرور قيصر فابدت ضعفها امامه وطلبت منه مساعدتها على الانفراد بالعرش وكان قيصر ايضا بحاجة لثروات مصر فطلب منها ان تدفع له النفقات التي تحملتها روما من أجل اعادة أبيها بطليموس الثاني عشر إلى عرشه قبل وفاته وهكذا ، بدات العلاقة بينهما بتبادل المصالح .

عقدت كليوباترا العزم على اعادة امجاد البطالمة الاوائل واسترداد المناطق التي كانت خاضعة لهم والتي كانت تشمل سوريا وفلسطين وادركت أن قيصر هو الرجل القوي الذي يتعين أن تعتمد عليه لتحقيق اهدافها .. وبالفعل ساعدها قيصر على الانفراد بالحكم بعد ان قتل زوجها بطليموس الثالث عشر وغادر يوليوس قيصر مصر في ٢٧ مارس عام ٤٧ ق وذكر بعض المؤرخين انه انجب من كليوباترا ابنها سيزاريون ولكن من الصعب تأكيد ذلك « دائرة المعرف البريطانية » .

وتوجهت كليوباترا إلى روما ومعها شقيقها الاصغر الذي شارك كليوباترا الحكم بعد فاة بطليموس الثالث عشر لتهنئة يوليوس قيصر بالانتصار على خصمه بومبي .. واثناء وجودهم في روما اغتيل قيصر عام ٤٤ ق م .

وخشيت كليوباترا أن ينتقم منها أعداء يوليوس قيصر فقالت انها حضرت إلى روما لابرام معاهدة تحالف بين مصر والامبراطورية الرومانية وطلبت من مجلس الاعيان فى روما الاعتراف بإبنها سيزاريون شريكا لها فى الحكم بدلا من شقيقها الاصغر ولكن المجلس رفض .

وفى عام ٤٢ ق م اتضح ان قتلة قيصر قد قضى عليهم وان مارك انطونيو اصبح هو اقوى المرشحين لوراثة سلطة قيصر خاصة ان الوريث الشرعى اوكتافيوس ابن شقيق قيصر كان مجرد غلام مريض ولقد اراد انطونيو اعادة امجاد روما فشن حملة لغزو بلاد فارس وذهب إلى طرسوس حيث بعث إلى كليوباترا يطلب منها الحضور اليه .

لقد مارست كليوباترا مع مارك انطونيو أسلوبا يختلف تماما عن الأسلوب الذى مارسته مع قيصر .. فقد كانت تدرك ان قيصر يعشق السلطان والقوة فظهرت أمامه فى صورة المرأة الضعيفة التى تحتاج لحمايته وذهبت اليه محمولة داخل سجادة .

وفى نفس الوقت ، أدركت أن انطونيو مبهور بها فتظاهرت بالقوة امامه ورفضت أن تذهب اليه وأمرته هو بأن يحضر أولا اليها .

واستغلت كليوباترا كل قدراتها للسيطرة على القائد الرومانى الجديد والاستئثار بقلبه ونجحت فى ذلك .

عاد مارك انطونيو مع كليوباترا وهو بمثابة عبد لها الى الاسكندرية وترك زوجته « فلوفيا » فى روما تتصدى لمعارضيه من أنصار أوكتافيوس ، ولم يتعامل انطونيو معها كمملكة لمحمية رومانية بل كامبراطورة مستقلة ومنحها أجزاء كبيرة من سوريا ولبنان وأريحا ووعدها بأن يهبها الامبراطورية الرومانية كلها ، ونجحت خطة كليوباترا فى ان تغزو روما بواسطة الرومان أنفسهم .

واشتعلت علاقة الحب بين امبراطور روما وملكة مصر فى الاسكندرية بينما استمر الصراع على السلطة فى روما . وفى عام ٤٠ ق م عاد انطونيو الى روما وعقد اتفاق مصالحة مع اوكتافيوس وتزوج شقيقته أوكتافيا بعد ان ماتت زوجته الاولى فولفيا .

وبعد ثلاث سنوات تأكد أنطونيو أن أوكتافيا لا يمكن ان تحل محل كليوباترا فى قلبه فعاد إلى الشرق مرة أخرى ولجا الى كليوباترا لكى تزوده بالاموال التى يحتاجها لتمويل حملاته العسكرية وارتكب انطونيو الخطأ القاتل عندما قرر الزواج من كليوباترا لأن هذا الزواج لم يكن فقط مهينا لاوكتافيا وشقيقها فى روما بل كان أيضا زواجا باطلا وفقا للقوانين الرومانية فى ذلك الحين ولذلك اتحد الرومان جميعا ضده .

وفى عام ٣٨ ق م اعترف مارك أنطونيو بان سيزاريون ابن كليوباترا هو ابن يوليوس قيصر

وبذلك شكك فى شرعية تولى أوكتافيوس لعرش روما وأطلق أنطونيو على كليوباترا لقب ملكة الملوك وابنها سيزاريون لقب ملك الملوك .

وكان هذا أكثر من أن يتحمله اوكتافيوس فتجددت الحرب بينه وبين انطونيو الذى ذهب إلى اثينا مع كليوباترا استعدادا لمواجهة القوات الرومانية .

وقبل أن يتفجر القتال انسحبت كليوباترا إلى مصر بجيشها ولحق بها مارك انطونيو واقتفى اوكتافيوس أثرهما بقواته .

وأدركت كليوباترا أن أوكتافيوس لن يرحمها بسبب علاقتها مع مارك أنطونيو فأمرت ببناء قبر لها قرب معبد ايزيس ووضعت فيه كل مجواهراتها وعطورها وأموالها بالاضافة إلى كميات كبيرة من المواد القابلة للاشتعال حتى اذا تأكدت من قرب سقوطها فى ايدى أوكتافيوس أشعلت النار فى نفسها وأيضا فى كنوزها لتحرم أعدا ءها منها .

ورغم أن أوكتافيوس أرسل اليها يطمئنها ويؤكد لها انها ستلقى لديه افضل معاملة الا انها قد حسمت موقفها بشكل نهائى وقررت ان تموت كملكة عظيمة .

وتقدم أوكتافيوس بقواته نحو الاسكندرية وتصدى له مارك أنطونيو وانتصر عليه فى الجولة الأولى .. وعاد منتصرا إلى كليوباترا حيث احتفلا بالفوز بهذه الجولة .

واتفق أنطونيو مع كليوباترا على شن هجوم برى وبحرى ضد أوكتافيوس ولكن قوات أوكتافيوس انتصرت وأدركت كليوباترا أنها راهنت على رجلين خاسرين هما يوليوس قيصر ومارك أنطونيو .

ويقول بعض المؤرخين وخاصة من الرومان ان كليوباترا حاولت ان تتخلص من المأزق بمحاولة ثالثة مع اوكتافيوس وكانت الخطوة الأولى نحو تحقيق ذلك هى التخلص من مارك أنطونيو .. لم تكن كليوباترا تستطيع ان تقتل انطونيو ولم تكن تستطيع أن تنفيه بعيدا عن مصر فقررت ان تدفعه نحو الانتحار وأن يقتل نفسه بيديه .

وبالفعل ارسلت كليوباترا بعض اتباعها لابلاغ انطونيو أنها قتلت نفسها ولم يكد أنطونيو يسمع ذلك حتى تفجرت بداخله كل مشاعر الحب لكليوباترا وأمر تابعه أن يقتله ويغمد الخنجر فى قلبه ولكن التابع رفض وطعن نفسه بالخنجر وسقط عند قدمى مولاه ..

وهنا صرخ انطونيو صرخته الشهيرة « لقد علمنى العبد والمرأة كيف يموت الشرفاء » .. وطعن نفسه وسقط على الارض ليلفظ انفاسه الاخيرة .

وأرسلت كليوباترا برسالة الى أوكتافيوس تطلب فيها ان تدفن الى جانب مارك أنطونيو وبعث

أوكتافيوس رجاله لانقاذها ولكنهم وجدوها ملقاة جثة هامدة على فراشها المصنوع من الذهب .

وكانت كليوباترا قد خبأت افعى فى سلة مليئة بفاكهة التين وتسللت الافعى الى مخدعها فلفتها وقضت عليها .. وأمر أوكتافيوس بدفن كليوباترا مع مارك أنطونيو تنفيذا لرغبتها الأخيرة .

وكان موت كليوباترا فى يوم ٣٠ أغسطس عام ٣٠ قبل الميلاد وكان عمرها ٣٩ سنة عاشت منها ٢٢ سنة كملكة و١١ سنة فى علاقتها مع مارك انطونيو .

وربما يكون افضل وصف لكليوباترا هو ما ذكره المؤرخ ديوكاسيوس .. « لقد كانت كليوباترا امرأة نجحت فى اسر اعظم اثنين من قادة روما ولكنها دمرت نفسها بسبب قائد ثالث هو أوكتافيوس » .

ويرى بعض المؤرخين ان ادانة التاريخ لكيلوباترا ترجع إلى خطأ منهجى واضح فى دراسة شخصيتها .. فقد نسى الكثيرون ان كليوباترا كانت شخصية سياسية فى المقام الأول ، وكانت السياسة فى عصرها ، ولا تزال حتى الآن ، هى ساحة الدهاء وتغيير التحالفات من أجل تحقيق أهداف أى سياسى سواء كانت أهدافا شخصية أو عامة .

لذلك ، وقع المؤرخون فى خطأ فادح عندما حاسبوا كليوباترا بمعيار المرأة العادية التى كانت تعيش فى ذلك العصر والتى كانت مجرد اداة للذة أو قربان يضحى به على المذابح حتى يأتى فيضان النيل أو حتى ترضى عنهم الالهة .

وكانت خطيئة كليوباترا من وجهة نظرهم أنها حطمت هذا الحاجز الوهمى بين المرأة وحقها المشروع فى ممارسة حياتها كشخصية مستقلة وقادرة على اداء دورها كملكة وكأنسانة لها مشاعرها وخطاياها ايضا .

ولقد أخذ الكثيرون على كليوباترا علاقتها بالقائد الرومانى مارك انطونيو وهى العلاقة التى انتهت بالزواج ، ولم تكن كما وصفها البعض مجرد علاقة بين ملكة مستهترة وقائد رومانى مبهور بها فالحقيقة المؤكده بالشواهد والأدلة التاريخية تؤكد ان كليوباترا احبت انطونيو بكل صدق وقررت أن يرحلا معا عن هذا العالم عندما تأكدت أنه لم يعد من الممكن الاستمرار فى الحياة وان انطونيو سوف يقتل أو يمثل به بعد الانتصار النهائى لاوكتافيوس .

ولكن ما حدث كان يشبه كثيرا نهاية قصة روميو وجوليت التى يضرب بها المثل على النقاء والطهارة والحب الرومانسى ، ورغم كل شئ ، فقد دفعت كليوباترا ثمن طموحها الهائل وكانت لدغة الافعى هى اخر ما احست به بعد ان ذاقت مرارة الهزيمة وقسوة الانكسار .

وهكذا كانت اشهر ملكات مصر التى وقع فى غرامها يوليوس قيصر ومارك انطونيو وعند وفاة

مارك انطونيو ، قررت ان تكون الى جواره وان تحمل معها كل مجواهراتها .

وعندما جاء اوكتافيوس ابلغها انه سوف يحملها اسيرة الى روما وانه سوف يعرضها عارية امام الناس . وكان الغرض من ذلك أن يدفعها الى الانتحار .

وفى يوم ١٢ أغسطس سنة ٣٠ ق م ذهبت كليوباترا الى الحمام وملأته بالحليب الدافئ . والقت به العطور ونثرت الورد ، وآتت بخادماتها يغسلن ساقيها وذارعيها ، وارتدت اجمل ملابسها ، وابتلعت سما وماتت . وقبل ان تموت طلبت الى خادمتها ان تأتيها بالمرآة لترى حاجبيها وشفتيها ... ورات نفسها فى المرآة وقبلت المرآة .

اما خادمتها فقد ابتلعت السم ، وسقطت على الارض ، ودخل مبعوث اوكتافيو وراى كليوباترا فى جمالها الهادئ وسأل الخادمة : من الذى فعل بها ذلك ؟ فقالت الخادمة : هى يا سيدى .. موت الملكات ! وفوجئ المبعوث بان الخادمة قد سقطت ميتة !!

يقال ايضا أن كليوباترا كانت تخفى ثعبانا فى اناء مجاور لها ، ويقال انها تلقت سلة من الفاكهة بها ثعبان ... واقترب الثعبان والتف حول ذراعها ولدغها .. وماتت كليوباترا وهى تقول لحاشيتها : « ما دامت هذه النهاية فلماذا لا نجعلها أجمل » !

٢

سميـــراميس ..

عنـدما يتعانق الجمـال مــع المجـد والعظمـة !

من أجمل الشخصيات النسائية فى كتاب التاريخ الملكة الاشورية سميراميس التى قيل انها كانت أجمل إمرأة على وجه الأرض منذ ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد .

وسمير اميس هى ملكة آشور التى اعتلت عرش الدولة الآشورية قبل ميلاد المسيح بأكثر من ٢٠٠٠ سنة . ولقد احاطت الأساطير والخرافات بمولدها وحياتها وموتها لدرجة جعلتها من أشهر ملكات التاريخ . وقد شكك عدد كبير من المؤرخين فى حقيقة وجودها واعتبروها مجرد أسطورة رغم وجود بعض الشواهد والاثار التى تشير إلى انها كانت شخصية حقيقية .

وقصة حياة سميراميس نقلت معظم تفاصيلها من الملاحم والحكايات الشعبية التى يرددها الرواة والتى زعمت أن أمها كانت احدى الربات فى عصر عبادة الأوثان . وان الام هجرت ابنتها فى الصحراء بعد ولادتها حيث تولت أسراب الحمام البرى اطعامها بالفواكه والحبوب ووفقا لما تقوله الأساطير . عاشت الطفلة الصغيرة لمدة عام كامل فى الصحراء تحت رعاية الحمام حتى عثر عليها احد الرعاة وكان اسمه سميراميس فاطلق عليها اسمه وتبناها وقام بتربيتها . وتشير هذه الاساطير إلى أن مولد سميراميس كان فى منطقة عسقلان التى كانت من اعمال سوريا فى ذلك الحين .

إلى هنا والحديث عن سميراميس يظل أقرب إلى الخرافة منه للحقيقة وخلال المراحل التالية تبدأ قصة حياتها تأخذ مجراها الواقعى لتجعل منها شخصية تاريخية حقيقية .

بلغت سميراميس مرحلة الصبا والشباب وكانت فائقة الجمال والفتنة واكتسبت قوة الشخصية والذكاء من حياة الرعاة وانطلاقها فى الصحراء دون قيود .

وذات يوم وقعت عليها عينا منونيس حاكم مدينة نينوى اثناء تجواله فى ربوع سوريا فبهره جمالها وعندما تحدث اليها ازداد اعجابه بها بعد ان لمس ذكاءها وادرك انها ليست مجرد فتاة جميلة فقط بل تتمتع ايضا بشخصية قوية وذكاء ملحوظ .

وهكذا تزوج الحاكم منونيس من سميراميس وعاش معها سنوات من السعادة والهناء .

فى ذلك الحين كان ملك آشور هو الملك نينوس الذى أقام مملكة قوية واخضع معظم بلدان آسيا لسلطانه .

وقد شيد الملك نينوس مدينة « نينوى » على شاطئ نهر دجلة واقام حولها سورا مرتفعا لحمايتها من هجماتا الاعداء وفوق هذا السور شيد الفا وخمسمائة من الابراج العسكرية ارتفاع الواحد منها ١٠٠ قدم .

وقد خاض الملك نينوس معركة كبرى مع احدى الممالك القديمة وهى مملكة البكاترة وحاصر عاصمتها ولكنه لم يستطع اقتحامها .

ولما كان معروفا عن سميراميس الذكاء والحكمة فقد طلب منها زوجها - وهو احد رجال الملك منونيس - مشورتها في كيفية اقتحام العاصمة .

وأمام الملك منونيس ، طرحت سميراميس خطة محكمة للهجوم وقادت بنفسها مجموعة صغيرة من الجنود المدربين على تسلق الأسوار وهاجمت القلعة الرئيسية أو مقر قيادة الاعداء واستولت عليه وبذلك انتهت المعركة لصالح القوات الآشورية .

وقد اعجب الملك نينوس بشدة بجرأة هذه المرأة وجمالها الفائق فقرر الزواج منها ولكن هناك عقبة تعترض رغبته وهى أن سميراميس زوجة لاحد كبار مستشاريه وهو منونيس حاكم مدينة نينوى .

واستدعى الملك مستشاره منونيس وطلب منه صراحة التخلى عن زوجته سميراميس لانه يريد ان يتزوجها لتجلس بجانبه على عرش مملكة آشور ، وكان هذا النبأ صدمة هائلة للزوج الذى يحب زوجته سميراميس بقوة . ووجد نفسه فى موقف بالغ الصعوبة فهو لا يستطيع التخلى عنها وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يعصى أمر الملك نينوس .

وقد حاول الملك نينوس تخفيف وقع الكارثة على مستشاره فعرض عليه أن يزوجه من ابنته مقابل ان يتخلى عن سميراميس ، ولكن ذلك لم يقنع الزوج بالاقدام على هذه الخطوة .

وفى النهاية ، كان الحل الوحيد ، امام الزوج هو التخلص من حياته فانتحر وبموته اصبح الطريق ممهدا امام الملك للزواج من سميراميس .

وهكذا ، جلست سميراميس على العرش بجانب الملك نينوس الذى انجب منها ابنا اطلق عليه اسم نيناس وبعد سنوات مات الملك وكان ابنه مازال طفلا فتولت سميراميس الحكم وجلست وحدها على العرش .

وتشير بعض الروايات التاريخية غير المؤكدة الى ان سميراميس هى التى قتلت زوجها نينوس وذلك من خلال حيلة ماكرة لجأت اليها وكانت بالفعل وسيلة فريدة ونموذجا لم يتكرر للاستيلاء على السلطة .

فقد قيل ان سميراميس انتهزت فرصة حب زوجها الشديد لها وطلبت منه ان يمنحها السلطة

الكاملة لادارة شئون البلاد لمدة خمسة ايام فقط على سبيل التجربة واكدت له انها تحلم بأن تحكم لأيام قليلة وبعد العرش سيعود اليه مرة اخرى بعد مرور الايام الخمسة .

واعتبر الملك نينوس ان هذه هى احدى نزوات المرأة وان المسالة كلها مجرد دعابة فوافق بالفعل واصدر اوامره الى قادة الجيش وحكام الولايات فى الدولة باطاعة اوامر سميراميس وتنفيذها فورا باعتبارها اوامر ملكية مهما كانت هذه الاوامر .

وتحولت اللعبة الى حقيقة واقعة ، وكان اول أمر اصدرته سميراميس هو سجن زوجها نينوس ثم اعدامه ولبست تاج الملك واعلنت نفسها ملكة والغريب ان سميراميس امرت بعد ذلك بتشييد مقبرة فاخرة لزوجها الملك نينوس واغلقت بذلك صفحة حكمه وبدأت صفحة جديدة عملت بكل جهدها على ان تكون مليئة بالامجاد والأعمال العظيمة .

كان الهدف الاساسى امام سميراميس هو ان تثبت لرعيتها انها افضل من كل الملوك السابقين وخاصة زوجها الراحل الملك نينوس . ولذلك قررت بناء مدينة عظية هى مدينة بابل التى اشترك فى بنائها مليونا عامل وشيدت فيها البروج والقلاع والجسور والمعابد التى كانت نموذجا للعظمة والبذخ والمجد .

وفى اطار جهود سميراميس لتخليد اسمها كملكة عظيمة امرت بشق الطرق واقامة القصور التى نقشت على جدرانها المنجزات التى تحققت فى عهدها واتسع نطاق مملكة آشور تحت حكم سميراميس التى قالت عن نفسها :

« لقد البستنى الطبيعة ثوب أمرأة ولكن أعمالى فاقت اعمال اشجع الرجال » .. وكما تميز حكم سميراميس بالبناء والانجاز فقد تميز ايضا بقدرتها الفائقة على ادارة شئون المملكة بحزم وقوة لم يسبق للعالم ان رآها فى مثل هذه المرحلة المبكرة من التاريخ .

فذات يوم علمت سميراميس بوجود اضطرابات قرب القصر الذى كانت تقيم فيه وقد بلغها هذا النبأ وهى تقوم بعمل زينتها فاندفعت فورا الى موقع الفتنه دون حتى ان تستكمل تصفيف شعرها وواجهت المتآمرين بجرأة وتحدثت معهم حتى تمكنت من السيطرة على الموقف وعادت بعد ذلك الى القصر لتستكمل زينتها فى هدوء .

وكان الانجاز الأكبر الذى تسعى سميراميس الى تحقيقه هو غزو الهند وضمها الى ممتلكات الدولة الآشورية وكان دافعها الاساسى لذلك هو ادراكها ان جميع ملوك آشور السابقين قد عجزوا عن تحقيق هذا الانجاز .

ولم تتردد سميراميس فجهزت جيشا هائلا لغزو الهند ، وكانت كل المحاولات السابقة لتحقيق هذا

الهدف قد فشلت بسبب الاعداد الهائلة من الفيلة التى كان الهنود يستخدمونها فى الحرب . وكانت هذه الفيلة بمثابة سلاح المدرعات فى الحروب الحديثة .

ومن اجل التغلب على هذه المشكلة ، لجأت سميراميس الى الحيله فاصدرت أوامرها بتغطية مائة الف جمل بجلود الثيران السوداء حتى تبدو وكأنها مائة الف فيل وجعلت كل محارب يعتلى واحدا منها . وتقدمت قوات سميراميس فى اتجاه الهند التى ارسل امبراطورها برسول الى ملكة آشور يسألها من تكون حتى تهاجم بلاده ويهددها بالهزيمة وكان رد سميراميس على رسول امبراطور الهند بسيطا حيث قالت له .. اذهب الى مليكك وابلغه انى سأخبره بنفسى من أكون ولماذا جئت الى الهند ..

وفى اول موقعة بين الجيشين حققت قوات سميراميس نصرا كبيرا واسرت مائة ألف من الجنود واغرقت الف مركب لهم فى نهر الهندوس .

اضطر جيش الهنود الى التراجع ولكنه اكتشف حيلة الفيلة الكاذبة فعاود الهجوم وأصيبت سميراميس التى كانت تقود جيشها بسهم وأمرت قواتها بالتراجع ولحسن حظ سميراميس لم يطاردها ملك الهند بقواته لأن كهنته حذروه من ذلك وانتهت هذه الحرب بالصلح بين الجانبين وعودة سميراميس الى مملكتها بعد ان فقدت ثلثى جيشها .

وقبل ان تصل سميراميس الى آشور تآمر ابنها نيناس ضدها واستولى على الحكم . وكان المنجمون قد ابلغوها بأن ذلك سيكون علامة على قرب موتها فتنازلت عن العرش لابنها وتردد انها قتلت نفسها ليكتب لها الخلود وترتفع لمصاف الآلهة كما قالت لها النبوءات .

وتعود قصة سميراميس الى الأسطورة مرة أخرى فى هذه المرحلة الأخيرة من حياتها حيث ذكرت الآساطير أنها تحولت إلى حمامة ولذلك كان الآشوريون يقدسون الحمام .

ولقد استمر حكم سميراميس قرابة ٤٢ عاما وتشير المراجع التاريخية الى أن موتها كان فى عام ٢٠٦٩ قبل الميلاد . ومما ساعد فى انتشار الآساطير حول حياتها وموتها عدم العثور على قبرها وان كانت هناك شواهد عديدة تؤكد الكثير من الأحداث التى رددتها الحكايات الشعبية عن حياة هذه الملكة رغم ما فيها من مبالغات تصل أحيانا الى درجة الخرافة .

٣

الملكة حتشبسوت ..

إمرأة على عرش الفراعنة !

قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، وبينما كان العالم يغط فى سبات التخلف ويبحث فيما اذا كانت المرأة تجسيدا للشيطان أم روحا شريرة حلت كلعنة على الأرض ، شهد وادى النيل مولد ملكة عظيمة استطاعت أن تحول سنوات حكمها الى مرحلة رائعة من مراحل الرخاء والاستقرار والسلام فى التاريخ الفرعونى القديم ..

فقد أدركت هذه الملكة ، فى هذا الوقت المبكر من مسيرة الحضارة الإنسانية ، المغزى الحقيقى لمسئولية الحكم .. ورغم التحديات العديدة التى واجهتها إلا أنها نجحت فى أن تمارس دورها وأن تحقق لمصر الفرعونية مكانتها المرموقة .. وعندما اتحد ضدها كهنة آمون والنبلاء وقادة الجيش وضعت نصب عينيها مصلحة البلاد وتجردت من ذاتيتها لتضرب أول الأمثلة على التجرد والموضوعية والتضحية .. واستحقت هذه الملكة مكانتها البارزة فى كتاب التاريخ وهى المكانة التى ما زالت حتى الآن خاصة بها وحدها ولا يوجد فيها سوى اسم الملكة الفرعونية : حتشبسوت .

وحتشبسوت هى بلا شك أول ملكة عظيمة فى تاريخ الإنسانية .. فمنذ ان تردد احتمال توليها لعرش مصر الفرعونية بدأت التحديات تواجهها على كل المستويات واستمرت هذه التحديات حتى نهاية حكمها عندما تخلت عن العرش طائعة مختارة من أجل مصلحة بلادها رغم أنها كانت صاحبة الحق الشرعى فى الحكم ..

كان التحدى الأول هو أنها امرأة وبالتالى فليس من المعقول أن تجلس على عرش مصر لأن الجالس على هذا العرش كان هو الذى يقود الجيوش ضد الاعداء وهو ايضا الذى يعتبره المصريون القدماء آلها يحكمهم فى حياته ويعبدونه بعد موته .

وكان التحدى الثانى هو تآمر الاشراف والنبلاء ضدها مستغلين حقيقة انها امرأة ومحاولين سلب العرش من السلالة الفرعونية الحاكمة .

والتحدى الثالث هو مطامع الغزاة فى مصر وانتهازهم لفرصة تولى امرأة لحكم المملكة الفرعونية معتقدين ان الفرصة قد حانت لتنفيذ اطماعهم الشريرة التى لولا حكمة حتشبسوت وحبها لبلادها لكان من الممكن ان تحقق ..

بدأت قصة حتشبسوت قبل حوالى ٢٠٠٠ عام من مولد المسيح .. فخلال هذه المرحلة دخل ملوك الفراعنة سلسلة هائلة من الحروب ضد الغزاة الذين حاولوا احتلال اجزاء من المملكة المصرية وهددوا اراضى مصر .. ولقد جاء هؤلاء - كما يحدث دائما عند اية محاولة لغزو مصر - من بوابتها الشرقية المطلة على قارة آسيا ، وكان من بينهم جماعات الهكسوس والآسيويين .. ولقد كان من أهم تقاليد ملوك الفراعنة قيادة جيوش مصر بأنفسهم وأن يكون على رأس كل فرقة من الجيش احد ابناء الاسرة الفرعونية المالكة ونظرا لكثرة الحروب والمعارك راح الكثيرون من أمراء الفراعنة ضحايا .. وعندما جاء النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد .. وبالتحديد فى بداية عصر الاسرة الثامنة عشرة بات من الواضح ان عدد الأميرات الفرعونيات اصبح يتجاوز عدد الأمراء .

وكان قدماء المصريين يحرصون على ان يكون الفرعون من سلالة ملكية اصيلة تجرى فى عروقه دماء « رع » اله الشمس المقدسة ووصل هذا المعتقد الى درجة تزاوج الاشقاء والشقيقات من ابناء وبنات الأسر الفرعونية المالكة بهدف الحفاظ على الدماء المقدسة النقية ..

وعندما حدث هذا الخلل فى التوازن بين عدد الأمراء والأميرات اصبح من الممكن للأميرة الزواج بطرف آخر من عامة الشعب بشرط أن يظل العرش من حقها .. وبدأ قواد الجيش والنبلاء يتنافسون على الزواج من الأميرات وكان من ابرز القواد الذين نجحوا فى هذا المسعى تحتمس الأول الذى تزوج من الأميرة « يهمس » ونتيجة لهذا الزواج اصبح تحتمس الأول فرعونا .

ولقد بذل تحتمس الأول جهودا هائلة فى محاربة الغزاة الآسيويين الذين يطاردهم حتى بلادهم ونجح فى تأمين حدود المملكة المصرية وفرض الطاعة والولاء على المناطق التى كانت خاضعة لها .

وانجب تحتمس الأول بنتا واحدة من زوجته « يهمس » وكانت هذه البنت هى حتشبسوت الى جانب ولدين لم يطل بهما العمر وماتا فى مرحلة الطفولة .

وكان من عادة أى فرعون أن يكون له عدد من العشيقات أو المحظيات ومن أحداهن أنجب تحتمس الأول ابنا اطلق عليه اسم تحتمس الثانى .

وبعد ٥٠ عاما من زواج تحتمس الاول والأميرة « يهمس » ماتت الاميرة وفقد تحتمس حقه فى البقاء على العرش بعد ان انتهت صلته بالأسرة الفرعونية المقدسة بوفاة زوجته .

وتوجه كهنة أمون الى تحتمس وطلبوا منه النزول عن العرش ..

ولأول وهلة فكر تحتمس فى التخلى عن العرش لابنته حتشبسوت باعتبارها ملكة شرعية تجرى فى عروقها دماء من خلال أمها « يهمس » وكانت المشكلة التى تواجه هذا الخيار هى أن تولى امرأة لعرش مصر كان أمرا مرفوضا من جانب الكهنة والشعب .

وكان الخيار الثانى هو ان يعلن ابنه غير الشرعى ، تحتمس الثانى ، ملكا على مصر وكان ذلك أيضا سيفجر عاصفة هائلة لان هذا الابن غير الشرعى لا يمكن ان يكون فرعونا خاصة أنه لا تربطه أية علاقة بالدماء المقدسة .

وكان لحتشبسوت فى هذا الجدل مؤيدون ومعارضون .. مؤيدوها يرون أنها رغم كونها امرأة الا انها عرفت بذكائها وبراعتها فى فنون القتال ومعرفتها الواسعة ، كل ذلك الى جانب أنها سليلة آمون رع ..

أما معارضو حتشبسوت فكان رأيهم أن مستقبل مصر أهم من الحفاظ على نقاء سلالة ملوك الفراعنة وان الفرعون يجب ان يكون رجلا ولو كان مثل تحتمس الثانى صغير السن ولا يتسم بالشجاعة ويهتم فقط بحياة الترف والملذات .

واندفعت الأميرة حتشبسوت الى مجلس كبار رجال الدولة وقالت انها صاحبة الحق فى تولى العرش وأنها تستطيع الاعتماد على قادة الجيوش فى اداء المهام التى تعجز عنها رغم اعتقادها بأنها لن تعجز عن عمل شئ بسبب كونها امرأة وأنها قادرة على القيام بكل مهام الفرعون .. ولكى تؤكد حتشبسوت وجهة نظرها ارتدت ملابس قادة الجيش وخلعت ملابس النساء ولكن ذلك لم يحسم الموقف لصالحها .

ووجد تحتمس الأول ان الحل الوحيد يكمن فى الجمع بين الخيارين من خلال تزويج الأميرة حتشبسوت بتحتمس الثانى وقال ان هدفه من ذلك هو ان يكون للعرش نسل مقدس حتى لا تعود هذه المشكلة مرة أخرى .

ورغم انقسام الرأى العام تجاه هذا الحل بين مؤيدى حتشبسوت ومؤيدى تحتمس الثانى الا ان ارادة الفرعون تحققت وتم الزواج بين سليلة الفراعنة حتشبسوت وابن السفاح تحتمس الثانى واصبحت مقاليد الحكم فى يد حتشبسوت خاصة بعد ان تركزت اهتمامات تحتمس الثانى على ملذاته .

وقررت حتشبسوت أن تغير اسمها من حاتشويستو » ومعناها أجمل المحظيات أو الجارية الأولى الى « حاتشوبسيو » ومعناها أعظم النبلاء .

واعتزل تحتمس الاول الحكم وبدأت حتشبسوت حكمها بالعمل الجاد فحققت نهضة هائلة فى مجالات الحياة بمصر القديمة .. شقت الترع والقنوات وانعشت التجارة وأقامت الصناعات .. وبعد عام ونصف العام من توليها العرش كان الاستقرار والسلام يرفرف على ربوع وادى النيل وكافة بقاع المملكة المصرية القديمة .

وكما كان متوقعا ، بدأت مشكلات حتشبسوت مع الخطر الخارجى .. فتفجرت حركات انفصالية فى المستعمرات التابعة لمصر وتحالف الاعداء للانقضاض على المملكة المصرية وتصاعدت حدة

الانتقادات الداخلية ضد حتشبسوت تتهمها بانها اهملت شئون الجيش وبأنها تعرض البلاد لخطر الغزو الأجنبى .

وهنا تدخل الفرعون العجوز تحتمس الأول فخرج من عزلته ورغم كبر سنه تقدم لقيادة جيش مصر واندفع الى المناطق الآسيوية التى كانت تتجمع فيها سحب الخطر وتقدم حتى بلاد النهرين واجتاز نهر الفرات وعاد بالغنائم والأسلاب .

وكانت هذه التجربة كفيلة باسكات أصوات مؤيدى الملكة بعد ان ثبت بالدليل العملى ان جيوش مصر تحتاج لقائد رجل .. وانتهز تحتمس الأول الفرصة وأعلن أن ابنه تحتمس الثانى اصبح شريكا في العرش مع الملكة حتشبسوت .

ورغم ان تحتمس الثانى كان ضعيفا فى القيادة والحرب الا أن حتشبسوت لم تستطع ان تعارض اباها القائد المنتصر فخضعت لأوامره وقبلت ان تقتسم العرش مع زوجها تحتمس الثانى .. وعندما مات تحتمس الأول بات واضحا أن تحتمس الثانى لا يرغب فى تحمل مسئوليات الحكم وأن كل ما يهمه هو نزواته وحياة البذخ والمجون مع خليلته « اليست » التى انجب منها ابنا غير شرعى هو تحتمس الثالث الى جانب ابنتيه من زوجته الملكة وهما نفرورع وحتشبسوت الصغرى .

وفى ذلك الحين ، حدث تمرد فى المناطق الصحراوية الخاضعة لمصر وتوجه تحتمس الثانى على رأس قواته لاخماد التمرد ولكن حشرة سامة لدغته ومات .

وتولت حتشبسوت بعد ذلك العرش وحدها والتفتت مرة أخرى الى الأمور الداخلية وشهدت مصر مرحلة جديدة من الاستقرار والرخاء .

وكبر تحتمس الثالث ودخل طور الرجولة وبدأ يطالب بحقه فى العرش باعتباره ابنا للفرعون تحتمس الثانى رغم انه لم يكن ابنا شرعيا .

وفى نفس الوقت بدأ كهنة آمون يتآمرون على الملكة حتشبسوت لأن عهد السلام الذى عاشته مصر تحت حكمها لم يكن يروق لهم .. فقد كانت الغنائم التى تفوز بها الجيوش يرسل معظمها الى المعبد حيث يستولى عليها الكهنة وعندما ساد السلام ولم تعد هناك حروب أدرك الكهنة ان خسارتهم ستكون فادحة .. وانضم هؤلاء الكهنة الى تحتمس الثالث يحرضونه على المطالبة بحقه فى العرش وعادوا مرة أخرى يرددون مقولة انه من العار ان تجلس امرأة على عرش مصر .

واستكمالا لخيوط المؤامرة لجأ كهنة آمون الى ادعاء حدوث معجزة لتحتمس حتى يقبله المصريون فرعونا لهم ... وقالوا ان آمون رع ظهر له واختاره فرعونا لمصر .

واستنادا على هذه المعجزة الكاذبة الملفقة دخل تحتمس الثالث فى مواجهة مع الملكة حتشبسوت

وطالبها بالتخلى تماما عن العرش لأن هذه ارادة آمون رع الذى يريد رجلا على عرش مصر يقود جيوشها للتصدى للغزاة ويوسع حدودها .. وحاولت حتشبسوت اللجوء للحيلة من أجل احتواء تحتمس الثالث فأظهرت له العطف ونجحت بالفعل فى السيطرة عليه ولكنه عندما التقى مرة أخرى بكهنة آمون أوغروا صدره عليها ثانية وقالوا له أنها ساحرة ستخلب عقله وتلهيه عن مهمته المقدسة التى كلفه بها آمون .. وفى هذه الاثناء تفجرت الفتنة فى بلاد كوش وكانت الملكة حتشبسوت قد تقدمت كثيرا فى السن وثار قادة الجيش مطالبين بالتحرك لتأديب العصاة .

وخشيت حتشبسوت ان يذهب تحتمس الثالث على رأس جيش مصر الى كوش فيعود منتصرا ويخلعها من العرش بعد أن يحظى بتأييد قادة الجيش ضدها .. وفى نفس الوقت لم تكن تستطيع تحمل مسئولية خروج مستعمرة كوش عن السيطرة المصرية .. وقال لها مستشاروها انه من الافضل ضياع مستعمره من مصر على أن يضيع العرش منها وأوصوها باعتقال تحتمس الثالث الذى أصبح تهديده للعرش أكبر من أن يحتمل .

وتوصلت حتشبسوت الى الحل وهو أن تزوج تحتمس الثالث من ابنتها نفرورع ويصبح بذلك شريكا فى الملك بشرط الا يذهب لمحاربة الكوشيين ووافق تحتمس الثالث على هذا الحل وأصبح شريكا فى عرش مصر .

وأدى تساهل حتشبسوت مع تمرد الكوشيين الى اندلاع سلسلة من اعمال العصيان والانفصال فى معظم أرجاء المملكة المصرية .. ولم تستطع حتشبسوت مواجهة ضغوط قادة الجيش بأن يتحركوا فورا تحت قيادة تحتمس الثالث لقمع التمرد والعصيان .. واوصى المستشارون حتشبسوت بقتل تحتمس الثالث حتى ينتهى تهديده بالانفراد بالعرش ولكنها رفضت ذلك .. وكان معنى رفضها ارسال الجيش الى المستعمرات لتأديب العصاه هو انفجار ثورة داخلية فى مصر لا يعلم احد مداها ..

وهنا يتجلى أحد أعظم مواقف الملكة حتشبسوت عندما استدعت تحتمس الثالث وطلبت منه ان يقود الجيوش المصرية لانهاء التمرد فى المستعمرات .. وبكل وقاحة اجابها تحتمس الثالث قائلا :
« لقد انقضى عهدك الذى يتسم بالافعال والانتصارات » ..

وطلب منها تحتمس صراحة ان تتخلى له عن العرش لينفرد وحده بالحكم .. وكان هذا بمثابة شرط من جانبه ليقود الجيش وينقذ المملكة .

ونظرت حتشبسوت حولها فوجدت الكهنة وقادة الجيش يقفون وراء تحتمس الثالث وادركت ان الحكمة تقتضى منها الاستسلام لانقاذ البلاد من خطر تفجر حرب أهلية فقالت آخر كلماتها كملكة لمصر .. « انى اتنازل لك عن العرش اذا كان هذا هو الثمن الذى تطلبه لانقاذ البلاد » ..

٤

شجرة الدر ..

اندفعت نحو السلطة
فـاحترقت بنارهـــا !

هناك البعض الذين تستهويهم وتثيرهم فلسفة القوة وتجذبهم دائرة السلطة كما تجذب النار الفراشات فتندفع اليها تلقائيا وتسعد كلما اقتربت منها حتى تحترق بها فى النهاية .. ومن هؤلاء كانت الملكة شجرة الدر أول ملكة مسلمة فى التاريخ .

عبر ثلاثة قرون ميلادية هى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر تعرض الشرق العربى الإسلامى لتلك الحملات العنصرية البغيضة التى رفعت الصليب شعارا لها حتى تغطى به على اهدافها الاستعمارية واطماعها التوسعية .. وفى ذلك الحين ، كانت الكنيسة فى أوروبا هى صاحبة الكلمة العليا التى يبذل جميع الملوك والأمراء كل ما فى وسعهم لارضائها والتقت النزعات التوسعية للحكام الأوروبيين مع تعصب وعنصرية بعض قادة الكنيسة وأسفر هذا اللقاء عن مخطط رهيب هدفه المعلن هو بيت المقدس ونيته الحقيقية هى احتلال الشرق العربى والتمهيد لهيمنة الغرب على العالم بأسره واجتاحت البلدان الأوروبية حمى العنصرية المقيته فحشدت الجيوش وجمعت التبرعات وأصبح الاستيلاء على بيت المقدس هو الهدف الذى اتفق عليه الملوك والامراء الأوروبيون برغم الصراعات التى كانت بينهم والخلافات التى كانت تميز علاقاتهم .

ولأسباب موضوعية ، لم تكن مهمتهم يسيرة ، فقد كان هناك قدر من التوحد بين العرب المسلمين وكان هذا القدر كفيلا بالحاق هزيمة تاريخية فادحة بالصليبيين فى حطين وذاق ريتشارد قلب الاسد مرارة الهزيمة على يد صلاح الدين الايوبى الذى وحد مصر والشام للدفاع عن شرف العروبة والإسلام .

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبى تولى حكم الدولة الأيوبية شقيقه الملك العادل ثم الملك الكامل الذى قسم الحكم بين ولديه العادل سيف الدولة فى مصر والصالح نجم الدين ايوب فى الشام .

وهنا بدأ دور شجرة الدر على مسرح الاحداث فى مرحلة بالغة الاهمية والخطورة من التاريخ العربى والإسلامى .

كانت شجرة الدر جارية فى حريم الصالح نجم الدين ايوب الملك السابع فى حكومة الدولة الأيوبية .

لم تكن جارية عادية تهدف الى مجرد الترفيه عن مليكها وتكتفى بدور المحظية المقربة إلى قلبه بل كانت امرأة ذات طموحات هائلة تؤمن ان الطريق ممهدا أمامها للقيام بدور تاريخى لم يسبق لامرأة أن قامت به منذ ظهور الإسلام ، ولفتت شجرة الدر نظر الصالح نجم الدين ايوب بعقلها الراجح ومنطقها القوى وحكمتها الواضحة فتزوج منها وانتقلت بذلك خطوة هائلة على درب تحقيق حلمها .

وبادرت شجرة الدر بمحاولة اقناع زوجها بضرورة تولى حكم الشام ومصر للملك الكامل وان شقيقه سيف الدولة ليس من حقه الاستقلال بحكم مصر .

وهكذا ، بدأت على الفور فى اتخاذ الاجراءات العملية لتحقيق هذا الهدف .. فاتصلت بالمماليك فى مصر الذين كانوا يشعرون بالاستياء من سيف الدولة ويتهمونه بمحاولة الحد من نفوذهم .

وبعد فترة قصيرة هاجم اتباع نجم الدين أيوب وشجرة الدر قصر سيف الدولة الذى هرب ولكنهم لحقوا به وتم اعتقاله فى سجن قلعة الجبل بالقاهرة حيث ظل هناك حتى مات فى الاسر وأصبح نجم الدين أيوب ملكا على مصر والشام معا فى ٦٣٧ م .

وكانت الاقدار تعد المزيد من الاحداث الجسام للملك الصالح وزوجته شجرة الدر فلم يمر وقت طويل حتى بدا الصليبيون حملة جديدة على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

وكان لويس التاسع قد تمكن من حشد جيش هائل قوامه ٥٠ الف جندى ومائتى سفينة حربية وتوجه إلى سواحل مصر عند دمياط وبعد معارك ضارية فى البر والبحر سقطت دمياط فى ايدى الصليبيين .

وفى تلك الفترة أصيب الملك الصالح نجم الدين ايوب بمرض السل ووافته المنية قرب مدينة المنصورة فى مصر وهنا تجلت رباطة جأش شجرة الدر التى استطاعت ان تتغلب على مشاعرها وأدركت أن موت الملك فى هذه المرحلة الحرجة ربما يؤدى الى انهيار الجيش وسقوط الدولة .

وكان قرارها الحاسم هو عدم اعلان نبأ وفاة الملك الصالح واستمرت تصدر الأوامر المكتوبة باسمه وتحرص على استمرار حضور الاطباء الى مقر قيادته وكأنه ما زال مريضا وعلى قيد الحياة .

وفى نفس الوقت ، ارسلت لاستدعاء توران شاه ابن الملك الصالح من زوجة أخرى من بلاد القوقاز باعتباره الوريث الشرعى لعرش أبيه وقبل حضور توران شاه كانت حريصة على التمهيد لحكمه من خلال الدعاء له على المنابر بجانب اسم والده .

وفى نفس يوم وصول توران شاه الى الصالحية اعلن موت الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان توران شاه ملكا مستبدا وحاكما مغرورا فكرهته الرعية بعد ٤٠ يوما من توليه الحكم وأعلن المماليك البحرية عدواتهم له وأقسموا على الانتقام منه .

وبالاضافة الى ذلك ، أثبتت الاحداث أن توران شاه كان ملكا غبيا أيضا ، ففى نفس الوقت الذى

بدأت فيه المواجهة بينه وبين المماليك دخل فى صراع مع المرأة التى سلمته العرش فتحدى شجرة الدر واهانها وارسل اليها يطلب منها ان تسلمه اموال ابيه ولم يقنع بردها عندما ابلغته انها انفقت هذه الأموال فى الجهاد المقدس ضد الصليبيين .

واشتد غضب شجرة الدر من هذا الملك المغرور توران شاه الذى مهدت له سبيل الحكم فقابل ذلك بالاتصات لدسائس خصومها الذين كانوا يشعلون النار فى صدره قائلين له : إن الملك والقوة فى يد شجرة الدر وأنت مجرد واجهة للحكم ونموذج للعجز والضعف .

ونسى توران شاه الدور الذى قامت به شجرة الدر فى التصدى للصليبيين والانتصار الذى حققته الجيوش المصرية بقيادة ركن الدين بيبرس على قوات لويس التاسع قبل وصوله . وكانت المعركة مع الصليبيين قد استمرت بعد ذلك بقيادة توران شاه وانتهت باستسلام لويس التاسع وأسره مع قادة جيشه فى دار القاضى فخر الدين المعروفة بدار ابن لقمان . ولقد لعب هذا الانتصار برأس توران شاه وظهر ذلك واضحا فى تنكره لزوجة ابيه شجرة الدر .

ولم تكن شجرة الدر صيدا سهلا فهى امرأة عاشت عمرها فى بلاط الملك وتعرف جيدا ابعاد لعبة القوى فقررت أن الوقت قد حان لمواجهة توران شاه وانتزاع عنصر المبادرة من بين يديه .

وهكذا ، دعمت شجرة الدر اتصالاتها باعدائه من المماليك البحرية الذين قتلوا توران شاه بعد ٧٠ يوما من توليه الحكم .

وبموت توران شاه انقرضت دولة بنى أيوب من مصر .

واجتمع المماليك وقرروا باجماع الاراء أن تتولى شجرة الدر العرش باسم الملكة عصمة الدين واقسموا لها يمين الولاء وتولى عز الدين ايبك التركمانى قيادة الجيش . وانتقلت شجرة الدر من قصرها على النيل فى سراى المنيل إلى القلعة التى بناها صلاح الدين الأيوبى حيث مارست من هناك مهام الحكم .

واتخذت شجرة الدر قرار حكيما لدعم موقفها بين المماليك وضمان ولائهم فعينت عز الدين أيبك رئيسا للوزراء وكان رجلا شجاعا يعرف كيف يستولى على قلوب الشعب وينال ثقة العامة ويسيطر على المماليك .

وكان الخطباء يخطبون فى يوم الجمعة باسم شجرة الدر ويدعون لها على المنابر قائلين « احفظ اللهم الجبهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين ايوب » .

وضربت النقود باسم شجرة الدر ونقش على احد وجهى العملة « بسم الله الرحمن الرحيم » وعلى

الوجه الآخر .. « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة منصور خليل الخليفة امير المؤمنين » ..

وكانت توقع المراسم باسم « أم خليل » وهى التى استحدثت بدعة المحمل الشريف وخلال حكمها سافر أول محمل فى الإسلام من مصر إلى الحرمين الشريفين .

وبينما كان حكم شجرة الدر فى طريقه إلى الاستقرار بدأت تواجه سلسلة من التحديات الخطيرة ، مثل أنصار توران شاه الذين فروا الى الشام وأخذوا يثيرون الفتن والدسائس ويحرضون الشعب عليها .

والأخطر من ذلك ، ان اعداء شجرة الدر أخذوا يستثيرون حمية المماليك من خلال ارسال الرسائل معربين عن استعدادهم لارسال رجل الى مصر لتولى الحكم اذا كانت مصر قد عدمت الرجال ..

واتت هذه الحرب بثمارها ولكن شجرة الدر لم تكن من ذلك الطراز الذى يمكن القضاء عليه بسهولة فواجهت الازمة بعقل مستنير مدرك لابعاد الموقف ومستعد للتعامل مع حقائق الواقع رغم انها لم ترتكب أى عمل يسئ للإسلام والمسلمين .

وعقدت شجرة الدر مجلسا لكبار رجال الدولة واستشارتهم فى الأمر وكان رأيهم بالاجماع هو ان تترك زمام الادارة لعز الدين أيبك وأن يعقد قرانه عليها عقب تنصيبه الحكم ونزلت شجرة الدر عن الملك بعد ان حكمت ٨٠ يوما وحدها وارسلت الرسائل الى الخليفة المستعصم بالله ، لابلاغه بهذه القرارات وكان ذلك فى عام ٦٤٨ هـ .

ويقول بعض المؤرخين ان الضغوط التى تعرضت لها شجرة الدر حتى تتنازل عن العرش لم يكن سببها الوحيد هو انها امرأة أو أن الإسلام لا يجيز تولى المرأة للحكم .

فالهدف الوحيد لهذه الضغوط كان هو السلطة والرغبة فى ازاحة هذه المرأة القوية التى حظيت بحب الشعب وقللت من الضرائب ولجأت الى الشورى وتجاهلت منهج الاستبداد وعملت على المصالحة وتهدئة الامور فى البلاد .

وكان الطامعون فى السلطة كثيرين وعلى رأسهم انصار الدولة الايوبية فى الشام وحتى المماليك الذين كانوا حلفاء لشجرة الدر .

فالايوبيون اتهموا شجرة الدر بأنها هى التى قضت على دولتهم فى مصر والمماليك كانوا يعتقدون أنهم هم الذين أوصلوها الى العرش وبالتالى فعليها ان تحكم باسمهم وبأن تكون مجرد واجهة للحكم .

ولما اتضح ان شجرة الدر استطاعت أن تقوم بواجبها كملكة حقيقية ترفض أن تكون مجرد دمية كان من الضرورى الاطاحة بها من خلال الثغرة الوحيدة التى يستطيعون النفاذ منها اليها وهى انها

امرأة لا يجوز لها شرعا ان تحكم !!

والدليل على ذلك ان عرش شجرة الدر قد تم تقسيمه بين المماليك ممثلين فى عز الدين أيبك الذى تزوجها والايوبيين الذين شاركوا فى الحكم من خلال الأمير الصغير موسى الاشرف الذى تقرر ان يكون شريكا فى الحكم .

ورغم أن شجرة الدر قررت ان تحنى رأسها للعاصفة حتى تمر إلا أنها رفضت الاستسلام وظلت تمارس سلطتها من خلال زوجها عز الدين أيبك الذى كان يحبها بقوة ويحترمها اشد الاحترام لذكائها وجمالها وشخصيتها الفريدة .

وكان لعز الدين أيبك زوجة أخرى هى أم ولده الوحيد نور الدين ، وقد تزوجها قبل شجرة الدر .

وضغطت شجرة الدر على أيبك لكى يبتعد عن زوجته الاولى وأمرته باحضارها الى مصر وتطليقها وتم لها ما ارادت وبمرور الوقت أخذ عز الدين أيبك يضيق بنفوذ شجرة الدر وأدركت هى أنه بدأ يتغير من ناحيتها ويشعر بالأسف لأنه اجبر على تطليق زوجته الأولى أم ولده .

وكعادتها دائما قررت شجرة الدر أن تكون المبادرة فى يديها فاتصلت ببعض المماليك من خصوم زوجها أيبك وحثتهم على قتله وتم لها ما ارادت وقتل أيبك يوم ٢٥ ربيع الأول عام ٦٥٥ هـ .

وكان قرار شجرة الدر بقتل عز الدين أيبك بمثابة قرار انتحارى وكأنها عقدت العزم على أن تهدم المعبد فوق رءوس الجميع وان تحرم هذا الرجل ناكر الجميل من الاستمرار فى الجلوس على العرش الذى أوصلته اليه فكان جزاؤها منه هو الجحود .

وبعد وفاة أيبك ، تولى العرش بعده ابنه « نور الدين » وانتقل الى مقر الحكم فى القلعة مع امه غريمة شجرة الدر والزوجة الاولى لعز الدين أيبك .

وكانت ام نور الدين تكره شجرة الدر كراهية شديدة ، وجاء فى كتب التاريخ انها امرت جواريها بقتل شجرة الدر فانهلن عليها بالقباقيب داخل الحمام فلفظت أنفاسها الاخيرة ودفنت فى مسجد يحمل اسمها بالقاهرة ، وبلغت المدة التى قضتها فى السلطة عشرين عاما فى ظل زوجيها نجم الدين أيوب وعز الدين أيبك بالاضافة إلى ٨٠ يوما بمفردها على العرش .

أما قتلة عز الدين أيبك من المماليك والاغوات فقد هرب بعضهم واعتقل البعض الآخر ونفذ فيهم حكم الاعدام فى مقر الحكم بقلعة صلاح الدين .

وهكذا ، انتهت حياة شجرة الدر المرأة التى مارست السياسة بقدرة فذة والتى استطاعت أن تقتحم عالم السلطة بجرأة نادرة فى وقت كان الكثيرون من الرجال ترتعد أوصالهم من مجرد التفكير فى دخول هذا العالم أو حتى الاقتراب منه .

٥

الملكة زنوبيا ..

حياة حافلة بالانجازات ونهاية مأساوية !

كانت ملكة لاحدى القوى العظمى فى العالم فى القرن الثالث الميلادى .. اتسع نطاق مملكتها لتشمل مصر وآسيا الصغرى وجميع الأراضى الواقعة بين نهر الفرات والبحر المتوسط .

يقول عنها المؤرخون انها كانت تجسيدا حيا للطموح والثقة فى النفس لدرجة تصل الى الغرور ، ورغم ذلك فقد حققت لنفسها وبلادها مجدا ومكانة فريدة فى كتب التاريخ ولولا النهاية المأساوية التى انتهت اليها لما عرف احد المدى الذى كان يمكن ان تصل اليه من فتوحات ومنجزات ولأصبح الطموح الزائد أو الغرور هو احدى الصفات الحميدة التى يسعى الجميع اليها .. ولان التاريخ المنصف يلتزم فى معظم الاحيان بالحياد فلم يكن امامه سوى قرار واحد هو ان يخلد اسم زنوبيا ملكة تدمر ..

وهناك خلاف بين المؤرخين حول حقيقة أصل الملكة زنوبيا التى يرد ذكرها فى المراجع التاريخية بأكثر من اسم مثل « اوجستيا » أو « الزباء » ..

فالبعض يقول انها من اصل يهودى أعجب بجمالها الملك اودناش ملك تدمر الذى كان زعيما لمجموعة من القبائل الصحراوية واقام دولة قوية فى سوريا وآسيا الصغرى وغيرها من المناطق المجاورة فتزوجها وانجب منها ثلاثة أطفال والبعض الآخر يؤكد انها عربية ابنة لقائد عربى بارز اسمه عمرو بن ضارب بن حسان .

وهناك أيضا من يؤكد أن زنوبيا من أصل مقدونى وتنتمى لسلالة الملوك التى حكمت مصر بعد وفاة الأسكندر ولذلك فهى من نفس الاصل العرقى الذى تنتمى اليه كليوباترا السابقة ملكة مصر وسليلة اسرة البطالمة .. ويقول هؤلاء أن التشابه بين شخصيتى زنوبيا وكليوباترا يرجع إلى انهما تنتميان الى نفس الأصل المقدونى .

ورغم ان زنوبيا كانت فى مستوى جمال كليوباترا الا انها كانت تختلف عنها فى الكثير من النواحى الهامة .. فقد كانت كليوباترا ملكة ناعمة تستمد قوتها من براعتها فى عقد التحالفات مع

الممالك والامبراطوريات القوية اما زنوبيا فكانت شعلة لا تنطفئ من الحماسة وتؤمن بأن مصدر قوتها يكمن فى تحدى الأقوياء وليس التحالف معهم .

وكانت زنوبيا امرأة بالغة الذكاء والدهاء تجيد اللغات اللاتينية والاغريقية والهيروغليفية وتقرأ فلسفات افلاطون وأرسطو وسقراط وملاحم هوميراس . كانت امرأة تعشق التاريخ وكأنها على ثقة من انها سوف تحتل مكانة تاريخية بارزة ولذلك درست تاريخ الشرق وكتبته بنفسها وكانت ترجع اليه بين وقت وآخر تحاول ان تستشف ما هو مقدر لها فى ضوء التجارب التاريخية السابقة .

وهواية زنوبيا الوحيدة كانت هى الانطلاق الى الصحراء فى رحلات لصيد الحيوانات المفترسة وظلت هذه الهواية تلازمها طوال حياتها ولم تنقطع عن ممارستها حتى فى اوقات الحروب والازمات ..

بدأ صعود زنوبيا الى قمة السلطة بعد وفاة زوجها اودناش فى بداية النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى ويحدد بعض المؤرخين عام ٢٦٦ ميلادية كبداية لحكمها .

وكان أودناش قد تحالف مع الامبراطورية الرومانية وأطلق على نفسه اسما رومانيا هو اجستوس ووصفه الرومان بقائد الشرق خاصة بعد انتصاراته العديدة على قوات الفرس .

وخلال احدى المعارك قتل اودناش على يد ابن اخيه مينونيوس الذى ذبحه طمعا فى تولى الحكم من بعده .

فى ذلك الحين كان أولاد زنوبيا من الملك اودناش ما زالوا صغارا وغير قادرين على تولى مهام الحكم فتصرفت بسرعة للسيطرة على الموقف واعلنت انها ستتولى الحكم باعتبارها وصية على أولادها .. ولم تمر سوى فترة قصيرة حتى اعلنت زنوبيا انها ستحكم باسمها هى وليس باعتبارها وصية على الورثة الشرعيين للعرش .

وبدأ حكم زنوبيا بسلسلة رائعة من الاصلاحات فكانت حريصة على نشر العدل بين الرعية واهتمت بالاداب والفنون والثقافة واستقدمت الشعراء والفلاسفة والفنانين من البلاد النائية وانفقت عليهم ببذخ .. واهتمت بالعمران والتشييد فمهدت الطرق واقامت المبانى من المرمر ونشرت الحدائق والنخيل فى ربوع بلادها لتحول تدمر الى مركز حضارى وتجارى ينظر اليه الشرق والغرب باعجاب وانبهار .

وبدأت زنوبيا تهتم بتوسيع نطاق مملكتها فضمت إلى اراضيها مصر والقدس وانطاكية ودمشق واصبحت بالفعل على وشك تكوين امبراطورية مترامية الاطراف تتحدى أقوى الامبراطوريات فى ذلك الحين وهى الامبراطورية الرومانية .

وأدركت روما أن زنوبيا اصبحت تشكل تهديدا خطيرا لسلطتها وان هذه الملكة لا يمكن ان

تتوقف طموحاتها عند حد فكان قرار امبراطور روما هو المواجهة المباشرة معها لحسم هذا الخطر والقضاء على تطلعاتها .

وهكذا ، أعلن الامبراطور الرومانى ان زنوبيا اغتصبت عرش الملك ادوناش وأن أولادها هم اصحاب الحق فى العرش بعد أبيهم ولذلك فإن روما لا تعترف بها ملكة .

ويتفق المؤرخون على أن السبب الحقيقى وراء قرار الامبراطور الرومانى باعلان الحرب ضد الملكة زنوبيا كان هو غضب روما لأن زنوبيا أصبحت هى التى تسيطر على ثروات مصر خاصة فى وقت كانت فيه القوات الرومانية تخوض معارك على عدة جبهات وتحتاج للأموال التى كانت تأتيها من مصر خلال حكم البطالمة لتمويل مجهودها الحربى ..

وتفجرت المعارك بين قوات الملكة زنوبيا وجيوش الامبراطورية الرومانية وحققت زنوبيا سلسلة من الانتصارات على الرومان الذين قرروا تركها مؤقتا والتفرغ للمعارك الدائرة على الحدود الغربية للأمبراطورية .

فى ذلك الحين كان الجالس على العرش فى روما هو الامبراطور اورليان الذى كان يحلم باعادة أمجاد الامبراطورية واسترداد سيطرتها على جميع المناطق التى كانت تابعة لها خلال حكم يوليوس قيصر ومارك أنطونيو ..

وهكذا ، فبمجرد أن انتهت الجيوش الرومانية من معاركها فى الغرب توجهت على الفور الى الصدام مع الملكة زنوبيا وأعلن الامبراطور أورليان انه سيلقن هذه المرأة درسا لا ينسى ويجعلها تدرك عاقبة تحدى الامبراطورية الرومانية .

ووصلت جحافل الرومان الى حدود مملكة تدمر وارسل الامبراطور اورليان بمبعوثين الى الملكة زنوبيا يطلبون منها الاستسلام دون قيد او شرط وكانت زنوبيا فى رحلة لصيد الاسود عندما وصل رسل اورليان فقطعت رحلتها وعادت على الفور الى تدمر وطلبت استدعاءهم للمثول بين يديها .

وابلغها الرسل بان الامبراطور اورليان يطلب منها التنازل عن مصر لروما وان الامبراطور يحترم شجاعتها وذكاءها ولكن واجبه يحتم عليه الدفاع عن شرف الدولة الرومانية واعادة حدودها الى ما كانت عليه فى ذروة مجدها .

كان رد زنوبيا باختصار هو قبول التحدى وطلبت من الرسل ابلاغ الامبراطور اورليان بان روما لم تمنحها هذه الأراضى حتى تطلب استردادها الآن وان كل هذه الأراضى تم انتزاعها بالقوة والغزو والميراث عن زوجها فلا حق للرومان فيها ..

ومضت زنوبيا فى تحدى الامبراطور اورليان فطلبت من رسله ابلاغه باستعدادها للتخلى عن جزء

من اراضى مملكتها بشرط ان يقبل هو ايضا التخلى عن جزء من الأراضى التابعة للامبراطورية الرومانية .

كان هدف زنوبيا من هذه الرسالة واضحا كل الوضوح وهو ابلاغ امبراطور روما ان رأسها برأسه وأن التعامل منذ تلك اللحظة سيكون بين الند والند دون أية محاولة للابتزاز أو الارهاب .

وقالت زنوبيا لرسول اورليان ان لديها نفس الطموح والكبرياء التى لدى امبراطور روما ان لم يكن أكثر بل انها ستعمل على توسيع مملكتها والسيطرة على المزيد من الاراضى حتى ولو كانت تابعة للامبراطورية الرومانية وأن قرارها النهائى هو انها مستعدة للموت كملكة عظيمة كما عاشت حياتها ملكة عظيمة ..

وبمجرد انصراف الرسل حشدت زنوبيا قواتها وقررت ان تكون المبادرة من جانبها فتوجهت على رأس قواتها الى مواقع الجيوش الرومانية وخاضت المعركة مع اورليان ولكنها هزمت فى الجولة الأولى فاضطرت الى التقهقر لحدود تدمر واقامت تحصنات قوية انتظارا للمواجهة الثانية مع الجيش الرومانى .

وفى هذه المواجهة تمكنت قوات زنوبيا من الحاق الهزيمة بالامبراطور اورليان الذى تعرض لسخرية مريرة من خصومة فى روما حيث عيروه بأنه هزم امام امرأة وسمح لها بأن تمرغ كرامة روما فى الوحل ورد عليهم اورليان بقوله : « تقولون انى هزمت امام امرأة وليتكم تعرفون قوة هذه المرأة وشدة بأسها وبراعتها العسكرية » .

اشتعلت نفس الامبراطور اورليان بالحقد على زنوبيا التى جعلته مثارا للسخرية فى روما فاستدعى تعزيزات هائلة وحاصر تدمر طالبا من زنوبيا أن تستسلم .

كانت زنوبيا فى حاجة الى مساعدات من المناطق المجاورة لتكسر الحصار الرومانى وتواجه اورليان فى معركة فاصلة فقررت ان تقوم بنفسها بطلب هذه المساعدات وامتطت جوادا وتسللت عبر الخطوط الرومانية حتى وصلت الى ضفة نهر الفرات ولكن القوات الرومانية اكتشفتها ووقعت الملكة زنوبيا فى الاسر ونقلت زنوبيا الى مقر قيادة الامبراطور اورليان الذى سألها بصوت ساخر : كيف جرؤت على تحدي الامبراطورية الرومانية ؟

واجابت زنوبيا بكبرياء : أيها الامبراطور لقد انتصرت فى حرب لابد فيها من منتصر ومهزوم .. ولك كل الحق فى ان تنعم بانتصارك ولكن يجب ان تدرك ان للمهزوم حقوقا ايضا وفى مقدمتها احترام شرفه وكرامته .

وحاول قادة الجيش الرومانى اعدام زنوبيا ولكن اورليان رفض ذلك وأصر على ابقاءها على قيد

الحياة ليأخذها اسيرة الى روما ويرد لنفسه الاعتبار امام منتقديه الذين عيروه من قبل بانه هزم امام امرأة .

ولم يكن هذا الموقف لأورليان من قبيل التسامح ، فقد قرر فى نفس الوقت ابادة مملكة تدمر حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك فأمر قواته باقتحام المدينة وارتكبوا فيها واحدة من ابشع مذابح التاريخ وقتلوا كل سكانها ودمروها تدميرا تاما ثم اشعلوا فيها النيران بعد ان سلبوا كنوزها وثرواتها .

وعاد أورليان الى روما فى موكب المنتصر ومعه زنوبيا وقد قيدت ذراعاها بقيود ثقيلة من الذهب بلغ ثقلها درجة تكليف بعض العبيد بمساعدتها على حمل هذه القيود .

واختلف المؤرخون بعد ذلك على المرحلة التالية من حياة زنوبيا .. فقال بعضهم : ان اورليان أصدر مرسوما بالعفو عنها ومنحها قصرا تعيش فيه تكريما لشجاعتها .

وقال هؤلاء ان بنات زنوبيا تزوجن من امراء رومان وأصبح ابنها بعد ذلك ملكا على أرمينيا .

وفى نفس الوقت ، اكد مؤرخون اخرون ان زنوبيا قتلت نفسها جوعا بعد ان امتنعت عن تناول اى طعام او شراب حتى لا تعانى من ذل الهزيمة ومرارة الانكسار وهذه الرواية تبدو هى الارجح فى ضوء شخصية زنوبيا المعتزة بكرامتها وكبريائها التى كانت سمة أساسية لحياتها كلها .. وليس هناك شك فى ان شخصية بمواصفات الملكة زنوبيا لا يمكن ان تتحمل الحياة بعد ان رأت بعينيها انهيار حلمها فى اقامة مملكة كبرى ولا يمكن ان تقبل الحياة فى ذل الاسر بعد ان تحولت بلادها الى خرائب وأطلال فكان الخيار الوحيد أمامها هو الموت ،وكان ذلك فى عام ٢٧٣ بعد الميلاد

٦

سالـــومى ..

المرأة الشيطانة .. ورقصة الغدر

لا يذكر التاريخ امرأة استحقت لعنة الاجيال مثل « سالومى » المرأة الشيطانة التى عاشت وماتت رمزا للفسق والسفالة .. والأطماع اليهودية فى ارض فلسطين ليست حديثة العهد ولم تكن بدايتها هى ذلك المخطط الصهيونى الذى بدأ تنفيذه فى نهاية القرن الثامن عشر ..

فهذه الأطماع بدأت قبل ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عندما لجأت عصابات اليهود الى كل وسيلة ممكنة لكى تضع أيديها الدنسة على التراب الفلسطينى ولم يتورع اليهود عن اللجوء الى جرائم القتل والتعذيب والابادة والدعارة ايضا مادام ذلك يساعد فى تحقيق حلمهم الآثم ..

وتكفى نظرة سريعة لتاريخ اليهود فى فلسطين خلال عشرات السنين التى سبقت مولد المسيح لتؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن ما يفعله الصهاينة فى فلسطين الآن هو صورة من الأساليب الدنيئة التى لجأ اليها أسلافهم من قبل .. ففى عام ٣٩ قبل الميلاد كان مارك انطونيو امبراطورا على الدولة الرومانية التى تتبعها اراضى فلسطين وأصدر قرارا بتولى هيرودس الكبير ملك فلسطين ووافق مجلس الشيوخ الرومانى على هذا القرار ..

وكان هيرودس هذا قد لجأ الى احط أساليب النفاق والذل والمهانة حتى يمنحه مارك أنطونيو عرش فلسطين . وبعد ان تم له ما أراد استمر فى نفاقه للامبراطور الرومانى لدرجة انه اقام هياكل وثنية لعبادته فى القدس ذاتها .. ولم يتورع هيرودس عن وضع تمثال ضخم لنسر من الذهب وهو شعار الدولة الرومانية على باب هيكل سليمان الذى يزعم اليهود أنهم يقدسونه ..

وعندما هزم مارك أنطونيو فى موقعة « اكتيوم » امام أوكتافيوس تخلى هيرودس عن ولى نعمته وأسرع بالهدايا الى الامبراطور الجديد وقتل زوجته مريمنا ووالدها هركانس وأمها أسكندره وأخيها ارستبولس الذين كانوا يرتبطون بعلاقة صداقة مع كليوباتره ملكة مصر وحليفة أنطونيو ليثبت للامبراطور الجديد أوكتافيوس ولاءه له .

وكان عامة اليهود يكرهون هيرودس لانه كان آدوميا ولم يكن من أصل يهودى واعلن مجلس شيوخ اليهود الذى كانوا يسمونه « السنهدريم » رغبته فى ان يتولى يهودى نقى او من جذور يهودية العرش فما كان من هيرودس الا ان أعدم أعضاء المجلس جميعا وعددهم ٧٠ فردا .

كان لهيرودس من زوجته مريمنا التى قتلها ثلاثة ابناء هم أسكندر وأرستبولس وهيرودس الاصغر الذى مات أثناء تلقيه العلم فى روما .. ولم تكن مريمنا هى زوجته الوحيده حيث تزوج من ١٠ نساء .

وقد قتل هيرودس ابنيه اسكندر وارستبولس بعد ان شك فى أنهما يتآمران ضده ثم قتل ابنه البكر انتيباتروس لنفس السبب .. وفى هذه الفترة أطلق الامبراطور الرومانى أغسطس قيصر قولته الشهيرة .. إن المرء ليفضل ان يكون خنزيرا على ان يكون ابنا لهيرودس » ..

وقد اصطبغ عهد هيرودس بالدماء وأبشع مذابح القتل فى التاريخ وكان مغرما بإبادة اعداد كبيرة من الناس . وتشير بعض المراجع التاريخية الى انه أصدر أوامره فى اخريات ايامه بقتل كل الاطفال فى مدينة بيت لحم حتى سن عامين بعد ان علم بقرب مولد عيسى بن مريم وراح عدة آلاف من الاطفال لهذه المذبحة .

وحين اقتربت ساعة هيرودس كان موقنا ان الجميع سيفرحون لموته فقرر ان يضطرهم الى البكاء واصدر امره بدعوة شيوخ أكبر العائلات الى اريحا وجمعهم فى ملعب للخيل وطلب من اخته ان تأمر الجنود بذبحهم فى اللحظة التى يسلم فيها الروح .

ويقال ان هيرودس اصيب فى آخر ايامه بحمى شديدة تحرق جوفه وقروحا تسبب له آلاما مروعة وعلل من جوع كلبى فلم يكن يشبع مهما تناول من طعام وقد تهرأت أعضاء جسمه وانتشر فيها الدود وأصبحت تنبعث منه رائحة كريهة لدرجة دفعته الى الانتحار للتخلص من آلامه .. وأخيرا زهقت روحه مصحوبة باللعنات وكان فى السبعين من عمره ..

وبعد موت هيرودس اعلن ابنه آرخيلاوس نفسه ملكا على اليهود ولكنه كان سفاحا مثل ابيه .. وكان هيرودس قد قسم مملكته بين أربعة من أبنائه وانتيباس وأرخيلاوس ولكنهم تصارعوا على السلطة وتفجرت حرب أهلية وتفشى القتل والسلب والنهب وتخريب المدن .

وتدخل امبراطور روما اغسطس قيصر لحسم الصراع وقرر تقسيم مملكة هيرودس بين ابنائه بحيث يصبح ارخيلاوس حاكما على ربع مملكة أبيه .. ويحمل لقب « رئيس ربع » وكانت ولايته مقصورة على الضفة الغربية لنهر الاردن التى يطلق عليها اليهود يهودا والسامرة بالاضافة الى أدومية .

وكان الابن الثانى هو هيرودس انيتباس وقد عينه أغسطس قيصر واليا على منطقة الجليل وانتهج سياسة أبيه فى نفاق الرومان فبنى مدينة وأطلق عليها اسم طبرية على اسم الامبراطور طيباريوس الذى خلف أغسطس قيصر على عرش روما .

كان هيرودس انتيباس يشبه أباه فى مكره ودهائه وبينما كان يزور روما نزل ضيفا على أخيه فيلبس الذى كان أبوه قد طرده وحرمه من الميراث فذهب ليعيش تحت حماية الامبراطور الرومانى ..

ولم يلبث انتيباس ان عشق زوجة أخيه وتدعى هيروديا واتفق معها على الهرب ليتزوجها .. وبالفعل هربا معا الى الجليل واصطحبت هيرويا معها ابنتها سالومى .

كانت سالومى فتاة رائعة الجمال ، ولكنها ماجنة لا تتمتع بأى خلق نبيل أو أخلاق كريمة .. وذاع صيتها بسبب علاقاتها الآثمة مع رجال كثيرين .

وفى الجليل ، سيطرت هيروديا وابنتها سالومى على هيرودس انتيباس واصبحت لهما السلطة العليا وانتشر الفساد فى كل مكان وأصبحت سالومى رمزا على الفساد الاخلاقى .

ووفقا للشريعة اليهودية .. كان زواج انتيباس من هيروديا باطلا لان اليهود لا يبيحون للأخ أن يتزوج من زوجة أخيه الا اذا كانت بلا أبناء .

وكان فى فلسطين يومئذ رجل بار يعتبره اليهود نبيا وهو يوحنا المعمدان وتقول بعض المصادر انه هو نفسه النبى يحيى .. وشن يوحنا المعمدان حملة ضد زواج انتيباس من هيروديا وكان يردد فى كل مكان أن هذا الزواج باطل .. واستدعاه انتيباس وطلب منه ان يتوقف عن انتقاده وتحداه قائلا : « ان هيروديا لا تحل له وان علاقته بها أثمة » ، وحاول انتيباس بكل وسيلة أن يستميل يوحنا المعمدان دون جدوى فأصدر امرا باعتقاله وسجنه .

وقد اشار الاديب العالمى اوسكار وايلد الى « سالومى » فى روايته الشهيرة التى تحمل نفس الاسم وقال : انها لعبت دورا بالغ الانحطاط فى قصة يوحنا المعمدان .

فوفقا لما ذكره اوسكار وايلد وغيره من المصادر التاريخية كانت سالومى تعشق يوحنا المعمدان وحاولت كثيرا ان تغريه على ارتكاب الفحشاء معها ولكن الرجل التقى رفض ذلك باصرار رغم جمال سالومى ورغم انها فعلت المستحيل معه ..

وامتلأ قلب سالومى بالحقد على يوحنا المعمدان واعتبرت رفضه مجاراتها فى الرذيلة اهانة لها وتحقيرا لشأنها .. وصممت سالومى على الانتقام وجاءتها الفرصة ذات يوم لترد على رفض يوحنا المعمدان لها ، وكان انتقامها رهيبا يعكس حجم الشرور التى سيطرت عليها .

تقول دائرة المعارف اليهودية : ان انتيباس زوج ام سالومى وعمها فى نفس الوقت كان يحتفل بعيد ميلاده .. وطلب منها ان ترقص تكريما له فى الحفل الذى اقيم بهذه المناسبة ..

ورقصت سالومى رقصة شيطانية ماجنة وتشير مصادر عديدة الى أنها رقصت وهى عارية تماما وأبدعت فى رقصها لدرجة جعلت انتيباس يطلب منها ان تتقدم بأى طلب وتعهد بتنفيذه حتى ولو طلبت نصف مملكته .

وهنا جاءت الفرصة التى تنتظرها سالومى ولمع فى عينيها بريق الانتقام فتقدمت من انتيباس

برباطة جأش تصل الى درجة الصفاقة وقالت له :« لى طلب واحد فقط وهو رأس يوحنا المعمدان . أريد هذا الرأس على طبق الان أمام جميع الحاضرين » .

ورغم وحشية هيرودس انتيبياس الا انه صدم للوهلة الأولى من هذا الطلب ، ولكنه تغلب على تردده وأصدر اوامره لجنوده بتنفيذ ما طلبته سالومى .. وبالفعل لم تمض لحظات حتى جئ لها برأس يوحنا المعمدان على طبق كبير .. فأخذت تنظر اليه بتشف وحقد ليس لهما مثيل ..

ولقد دخلت هذه الرقصة الشيطانية التى أدتها سالومى فى بلاط هيرودس انتيباس تاريخ الأدب والفن والموسيقى .. فقد سجلت فى أعمال أدبية عديدة ولوحات فنية وقطع موسيقية . ومن أشهر هذه الأعمال أوبرا سالومى لريتشارد شتراوس ..

وقد اضيفت الى قصة سالومى تفاصيل كثيرة .. فبعض الأعمال الفنية اشارت الى أنها انتحرت ندما على ما فعلته فى يوحنا المعمدان .. وهناك لوحات تظهر فيها سالومى وقد أغمى عليها بعد تنفيذ رغبتها واعدم يوحنا المعمدان .

ولكن هناك اجماعا بين المصادر التاريخية والأعمال الأدبية والفنية على أن هذه المرأة كانت صاحبة أبشع انتقام فى التاريخ .

لقد امتزجت فى شخصية سالومى كل نقائض الشخصية اليهودية واضيفت اليها شرور المرأة الآثمة الداعرة ووحشية الأنثى عندما تشعر انها اهينت فى أنوثتها .. واسفر هذا المزيج الغريب عن امنية شيطانية تمثلت فى قطع رأس رجل بار رفض الرذيلة واصر على أن يحتفظ بشرفه ونقائه حتى ولوكان ثمن ذلك هو رأسه .

وقد التزمت جميع المصادر التاريخية والفنية بضرورة اظهار دور اليهود فى هذه الجريمة بما فى ذلك دائرة المعارف اليهودية نفسها التى نشرت صورة بعنوان « رقصة سالومى » للرسام الفلورنسى جورونيو ويظهر فى هذه الصورة الملك هيرودس انتيباس وقد ارتدى على رأسه القبعة اليهودية التقليدية التى لا يرتديها سوى اليهود ..

لقد دخلت سالومى التاريخ من أكثر من باب وكانت كلها ابواب يكللها العار .. فهى المرأة الماجنة الداعرة الفاسقة .. وهى الابنة التى قيل انها زنت مع عمها وزوج امها وهى المحرضة على الرذيلة والقاتلة التى انتقمت ابشع انتقام من يوحنا المعمدان بقطع رأسه والتشفى فيه بتقديم هذا الرأس هدية لامها .

باختصار كانت سالومى نموذجا بشعا للمرأة وهو نموذج من الصعب ان لم يكن من المستحيل أن نعثر له على مثيل فى كتاب التاريخ . ويكفى سالومى انها ستظل الى الأبد تتلقى لعنات كل من يؤمن بالشرف والأخلاق .. والانسانية .

٧

بلقيس ..ملكة ..
على عرش النساء !!

بلقيس هي ملكة سبأ الارستقراطية العظيمة ، التي وهبها الله كل ما تصبو إليه إمرأة من نساء العالمين في كل زمان ومكان . لقد دانت الدنيا لها ، فأخذت تغترف منها كل ما يعلي قدر صاحبه ، ويرفع من شأنه ، ويذيع صيته ، حتى أنها لقبت بملكة كل العصور » .

كانت بلقيس ملكة من طراز فريد من نوعه تجمع ما بين روعة الجمال ، وقوة الشخصية ، ودماثة الخلق ، وجمال الطبع ، وحكمة القول ، رجاحة العقل ، حتى أنها استطاعت أن تطوع شعبها ، وتؤثره ، وتكسب حبه ، وتحظى بوفائه . وولائه .

وبينما كانت بلقيس تحكم مملكتها العظيمة وهي « اليمن » الآن بكل قوة وحكمة واقتدار ، لم تكن تشعر بالرضاء إزاء عبادتها هي وقومها الشمس من دون الله .

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن تهتدى على يد أحد أنبيائه سيدنا سليمان عليه السلام الذي ورث النبوة عن أبيه سيدنا داود علي السلام ، والذي ينتهي نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه .

وقد منّ الله سبحانه وتعالى على سيدنا سليمان بنعمه وفضله بما سخره لخدمته من ريح ، وإنس وجن ، وطير .

وكانت جميع المخلوقات في مملكة سيدنا سليمان تأتمر بأمره . وحدث أن كان بين هذه المخلوقات الهدهد الذي حمل دعوة الرسول الكريم للملكة وقومها للإيمان ، وقد كان لهذا قصة .

ذات يوم ، اكتشف سيدنا سليمان ، وهو يتفقد رعاياه من مختلف الكائنات والحيوانات ، عدم وجود الهدهد ، فغضب ، وتوعده بالعقاب ، لتخلفه دون علمه ، اللهم إلا إذا كان له عذر مقبول .

وعاد الهدهد ، ووقف في حضرة سليمان خائفاً مرتعداً ، فعفا عنه ، ثم سرعان ما قص الهدهد على النبي كيف حمله جناحاه إلى مملكة سبأ ، وكيف رأى بلقيس ملكة ذات عرش عظيم ، وكيف وجدها تعبد هي وقومها الشمس .

وما كان من سيدنا سليمان إلا أن أمر بأدوات الكتابة ، وكتب لبلقيس : من عبد الله سليمان ابن

داود إلى بلقيس ملكة سبأ : بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من إتبع الهدى ، أما بعد : « ألا تعلو على وأتونى مسلمين » .

وحمل الهدهد الرسالة ، وكانت بلقيس نائمة فى غرفة نومها عندما دخل الهدهد من النافذة وألقى عليها الرسالة ، وبعدما أفاقت من صدمتها ، وجدت الهدهد يقف بجوار النافذة . فخرجت وأمرت بجمع أعيان قومها وأبلغتهم بما حدث .

وعندما طلب القوم منها اتخاذ ما تراه من قرار فى ضوء قوة بلادهم ، وبأسهم ، شحذت زناد عقلها ، وتسلحت بالحكمة ، وقالت انها ستبعث بهدية إلى سليمان عليه السلام ، ولكنه رفضها ، وتوعد الملكة . فما كان منها إلا أن ذهبت إليه ، فأراد أن يطلعها على إحدى صور قدرة الله ، فجعل يأتيها بعرشها ، لتجده قد سبقها ، فأدركت أنه مؤيد بقوة من الله .

وفى النهاية ، وأمام عظمة الله ، وقوة حجة وإيمان نبيه ، وصدق دعواه ، اسلمت بلقيس العظيمة ، ودخلت هى وقومها الإسلام ، وقالت : « رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

وتزوجت بلقيس من سيدنا سليمان بعد أن آمنت بالحق ، الذى يدعو إليه ، وعاشت فى اليمن كملكة عظيمة ، بعد أن أقرها سليمان على ملكها ، وكان يزورها كل شهر مرة ، ليقيم عندها ثلاثة أيام .

وهكذا كانت بلقيس ملكة حكيمة ، كان عقلها الراجح ، ورأيها السديد سبيلا لهدايتها هى وقومها أجمعين .

٨

السيدة مريم العذراء ..
أعظم النساء فى التاريخ

السيدة مريم العذراء هى أعظم نساء التاريخ على الإطلاق . وقد تعرض لها القرآن تعرضا متميزا نظراً لمكانتها التاريخية والدينية ، ودورها الذى رسمه لها رب العالمين ، والمهمة السامية ، التى خلقها من أجلها . إنها مريم أم المسيح عليه السلام .

لقد كان ميلاد مريم بنت عمران حدثاً هاماً فى تاريخ البشرية ، فقد كان إيذانا بعهد جديد ، ودين جديد ، وتاريخ جديد .

لقد منت أمها حنة نفسها زمناً طويلاً - بأن يهبها الله ولداً ، ونذرته لخدمة الهيكل محرراً عتيقاً عن الدنيا وأشغالها ، خالصاً لله تعالى ، متفرغاً لعبادة الله وخدمته .

وفارق عمران الحياة، وحانت لحظة الميلاد ، فإذا بالمولود بنتاً ، فاعتذرت حنة لله ، وتكفل بها زوج خالتها زكريا ، وعندما بلغت سن الحلم ، بنى لها غرفة فى الهيكل تعبد فيها الله ، وفاء لنذر أمها ، ورغم أنها ليست ولداً .

وعندما كان يأتى ذكريا ليطمئن على مريم ، ويقدم لها الطعام يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، عندما يسألها تقول : هو من عند الله .

وعندما بلغ زكريا الكبر والجهد ، كفل مريم ابن عمها يوسف وكان نجاراً . وتمر الأيام ، وتأتى اللحظة التى يريد الله أن يجعل فيها مريم آية من آياته ، وهى العفيفة الطاهرة ، فتجد نفسها حاملاً ولم يمسسها بشر ، ولكنها قدرة الله . فقد كانت مريم تملأ الجرة ذات مرة ، فإذا بجبريل عليه السلام يقول لها ان الله قد بعثه إليها - كما ورد فى القرآن - « لأهب لك غلاماً ذكيّ » . فملكها الخوف ، ولكنه طمأنها بأنه رسول من الله . وتمت المعجزة .

وعندما تعالت أصوات بعض أفراد قومها ، وأخذ اللغط يثار حول هذا المولود ، أشارت إليه ، ليدافع عنها ، فإذا بالرضيع نبى الله ، يقدم صورة أخرى من صور قدرة الله . لقد تكلم عيسى بن مريم عليه السلام ، وقال انه رسول الله ، ونبيه .

وقد ظلت السيدة مريم البتول تلقن الابن أعظم الفضائل والقيم والمثل والمبادئ بإيحاء من الله ، لتقدم للبشرية - بإذن الله - نبياً كريماً ، ورسولاً عظيماً ، هو عيسى بن مريم عليه السلام .

٩

ماري أنطوانيت ..

الملــكة النمســاوية والثــورة الفــرنسـية !

ليس هناك شك في أن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ كانت حدثا بالغ الأهمية تجاوزت آثاره حدود فرنسا وترك بصمته الواضحة على الفكر الانساني بأسره . وهناك اجماع على ان الثورة الفرنسية شاركت بفعالية في تغيير مسار حركة التاريخ وتحديد ملامح مستقبل الإنسان بدرجة يندر ان تتكرر .

وعندما يقول المؤرخون ان هناك امرأة تتحمل مسئولية مثل هذا الحدث الضخم عندئذ تكون هذه المرأة احتلت بالفعل أبرز الصفحات في كتاب التاريخ ويكون التقليب في هذه الصفحات عملا يستحق كل ما يبذل فيه من جهد وعناء .

ولدت ماري انطوانيت في عام ١٧٥٥ وكانت امها هي الامبراطورة ماريا تريزا امبراطورة النمسا ووالدها الامبراطور فرانسيس الاول .

كانت مرحلة صباها نموذجا للحرية والانطلاق في البلاط الامبراطوري النمسوي وحملت لقبا نبيلا هو الارشيدوق وكان ينظر اليها على أنها زهرة البلاط التي يخطب الجميع ودها ويسعون لنيل رضاها .

وفي سن الخامسة عشرة كانت ماري انطوانيت على موعد مع القدر لتبدأ الفصل الأول من مأساتها .. ففي تلك السن الصغيرة تزوجت من لويس السادس عشر ولي عهد فرنسا والذي تولى الحكم بعد وفاة لويس الخامس عشر في عام ١٧٧٤ عندما تردد النداء التاريخي الشهير « مات الملك .. يحيا الملك » ..

كانت ماري أنطوانيت نموذجا للمرأة الرقيقة البسيطة . ترفض التكلف وتهوى الانطلاق في الحقول لمطاردة الفراشات وجمع الزهور النادرة وكان الطابع المميز للبلاط اللفرنسي هو الدسائس والمؤمرات لذلك اختلط الامر على ماري أنطوانيت وعجزت عن مجاراة النبلاء الفرنسيين في لعبة المكر والدهاء .

أما الزوج لويس السادس عشر فقد كان أبعد ما يكون عن صورة فتى الأحلام الذي يداعب خيال

فتاة فى عمر وطبيعة مارى أنطوانيت . فقد كان ضخم الجثة بليد الفكر ضعيف الشخصية لدرجة أن زوجته بكل ضعفها كانت أقوى منه .

وخلال الفترة الأولى من توليه الحكم كانت ارهاصات الثورة الفرنسية قد بدأت تلوح فى الافق نتيجة للازمة الاقتصادية الطاحنة وتجاوزات طبقة النبلاء والارستقراط ورجال الكنيسة التى كانت تشكل استفزازا لا يحتمل للشعب الفرنسى .

وقد عجز لويس السادس عشر عن الحيلولة دون انفجار الثورة رغم ان ذلك كان ممكنا فى ضوء ثقة الشعب فيه وتمسكه بشرعيته كملك لفرنسا ..

وبعد ذلك عجز مرة أخرى عن انتهاز الفرصة التاريخية التى أتاحها له الشعب لقيادة الثورة لكى تتحول فرنسا الى الملكية الدستورية بدلا من الملكية المطلقة .. وقد حدث ذلك لأن لويس السادس عشر لم يستطع ان يفهم القوى الليبرالية والديمقراطية فى عصره وبذلك لم يتجاوب معها .

وكانت عاطفة لويس السادس عشر تتسم بالبرود والفتور تجاه زوجته مما فتح الباب امام اتهامها باقامة علاقات غير شرعية مع الكثيرين ووصل ذلك الى حد اتهامها بزنا المحارم مع ابنها .

ولقد حاول الشعب الفرنسى ان يحمل مارى انطوانيت مسئولية الاحباط الذى شعر به تجاه ملكه لويس السادس عشر وساعد على ذلك أصلها النمسوى غير الفرنسى فترددت الأقاويل حول تآمرها مع رجال البلاط وأفراد الطبقة الارستقراطية رغم ان التاريخ يحتفظ لها بجملة قالتها لزوجها الملك تحدد رؤيتها الواعية للاحداث وهى : « ان هؤلاء النبلاء يدفعون بنا الى الهلاك » .

وكانت الفترة الأولى من حكم لويس السادس عشر قبل الثورة « ١٧٧٤ وحتى ١٧٨٩ » قد تميزت بتزايد سلطة النبلاء ونفوذ الطبقة الارستقراطية .. وكان الهدف من الثورة فى البداية هو الانتقال الى الحكم الدستورى ولكن لويس السادس عشر لم يستجب الى هذا المطلب .. وقال بعض المؤرخين ان ملك فرنسا اتخذ هذا الموقف تلبية لرغبة زوجته مارى انطوانيت التى كانت ترى ضرورة قمع الثورة فى مهدها بيد من حديد .

وقال البعض الآخر من المؤرخين : ان لويس السادس عشر خضع لضغوط النبلاء الذين أعربوا عن استيائهم من تزايد قوة الشعب ..

وهناك اتجاه آخر بين المؤرخين يرى ان مارى انطوانيت تتحمل مسئولية انفجار الثورة لأن بساطتها وسلوكياتها غير المدروسة هى التى قضت على هيبة الحكم وأتاحت الفرصة « للرعاع » لكى يتطالوا على ملكهم وطبقة الأشراف .

وفى ٥ مايو ١٧٨٩ أصدر الملك لويس السادس عشر مرسوما بتشكيل مجلس تشريعى جديد

فى فرنسا بعد ١٥٠ عاما من الحكم المطلق ورأى الشعب فى ذلك خطوة هائلة نحو الحرية والديمقراطية ولكن طبقة النبلاء ضاعفت من ضغوطها على الملك ذى الشخصية الضعيفة لتوقف هذا الاتجاه الذى يتعارض مع مصالحها .. وقد نجحت هذه الضغوط فى ابعاد الملك عن اية خطوات اصلاحية .. وهكذا ، تميزت الفترة الثانية من حكم لويس السادس عشر بعد الثورة ـ وهى الفترة التى استمرت من عام ١٧٨٩ وحتى نهاية حكمه ـ بانحيازه المطلق للارستقراطية وادرك الشعب ان النبلاء نجحوا فى استقطاب الملك .

وفى يوليو ١٧٨٩ ، انفجر الموقف فى باريس وخرج عامة الشعب الى الطرقات يدمرون كل شئ وهاجموا مخازن السلاح الملكية ثم توجه اكثر من مائة الف مواطن الى سجن الباستيل الرهيب الذى سقط بعد هجوم استمر ٥ ساعات .

وفى أكتوبر حاصرت الجموع قصر الملك فى فرساى ودخل وفد لمقابلة لويس السادس عشر فوعدهم خيرا وخرجوا وهم يهتفون بحياته ولكن الحشود عادت مرة اخرى بعد ان علمت ان الملك غير صادق فى وعوده .

وحثت مارى انطوانيت زوجها على الهروب ولكنه كان عاجزا حتى عن الهروب ووصفته مارى بانه رجل مسكين لأنها أدركت ان الغضب موجه ضدها بعد أن بدأت الجماهير تهتف : « الموت للنمسوية » و « اقتلوا الفاسقة » .

وبعد ذلك حدثت تلك المواجهة التاريخية الشهيرة بين مارى انطوانيت وميرابو خطيب الثورة الفرنسية واحد أبرز قادتها وهى المقابلة التى توضح بجلاء ان مارى انطوانيت كانت قد اكتسبت القدرة على اقناع محدثيها والسيطرة عليهم حتى ولو كانوا فى ذكاء ميرابو .

فبعد هذا اللقاء الذى استمر ساعة كاملة اقنعت مارى زعيم الثورة بوجهة نظرها وطلب منها ميرابو فى النهاية ان تسمح له بتقبيل يدها وانحنى ميرابو يقبل يد مارى انطوانيت قائلا : « مولاتى .. لقد انقذت الملكية فى فرنسا » .

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى مات ميرابو الذى كان وجوده هو الضمان لاستمرار الملكية .. وقررت مارى انطوانيت الهرب مع زوجها واولادهما الثلاثة ولكنهم قتلوا .

وفى يونيو ١٧٩٢ ، حاصر المتظاهرون قصر الملك هاتفين « تحيا الأمه » واندفعوا الى داخل القصر حيث ألبسوا لويس السادس عشر قبعة جماعة اليعقوبيين الحمراء الشهيرة .

وبكى لويس السادس عشر عندما شاهد هذه القبعة على رأسه وقال لزوجته مارى انطوانيت وهو ينتحب : « اننى لم أحضرك من النمسا لكى تشهدى ذلى وهوانى هكذا » .

وفى ٢١ سبتمبر تم تجميد سلطات الملك واعلان الجمهورية الفرنسية الأولى وبدأت المطالبة بتخلى الملك عن عرشه بعد ان اتهم بخداع الامة ..

وكان الخيار الذى طرح صراحة على لويس السادس عشر هو التخلى عن العرش او الموت وطلب الملك حماية رئيس البرلمان الذى طمأنه ولكن فى ٣ ديسمبر ١٧٩٢ تقرر محاكمة لويس السادس عشر بتهمة الخيانة وحكم عليه بالاعدام فى ١٨ يناير ١٧٩٣ ونفذ الحكم بالمقصلة فى ميدان الثورة بباريس يوم ٢١ يناير .

وخلال هذه الفترة شهدت فرنسا ما سمى بعد ذلك بعهد الارهاب وتم اعدام الألوف من افراد طبقة النبلاء وأيضا الكثيرون من الأبرياء .

وكانت محاكمة مارى انطوانيت مشهدا حيا للغدر ونكران الجميل فقد شهد ضدها اقرب اصدقائها واتهموها بكل الشرور والموبقات .. وانتهت المحاكمة كما كان مقررا لها من قبل بصدور حكم الاعدام بالمقصلة ضد مارى انطوانيت . وفى صباح ١٦ اكتوبر ١٧٩٣ صعدت سلم المقصلة وسط حشد هائل من الجماهير الغاضبة وكان آخر ما سمعته هو هتاف « الموت للنمسوية » وهوت السكين لتنتهى حياة مارى انطوانيت المرأة التى ارتبط اسمها بالمجد والمعاناة والدموع .

١٠

الملكة فيكتوريا ..

الحب هو التاج الحقيقى !

هى واحدة من أعظم الملكات فى التاريخ .. اثرت على عصرها بأسره .. نقلت من ظلام العصور الوسطى الى اعتاب الحضارة ، ورغم ذلك كان التاريخ حريصا على ان يسجل لها أنها كانت زوجة محبة لزوجها ورمزا للوفاء والاخلاص له حتى فى اللحظة الاخيرة من حياتها . وكم هو رائع ان تقترن عظمة الملكة بوفاء الزوجة ، واخلاصها وربما كانت هذه هى السمة التى تنفرد بها سيرة حياة فيكتوريا ملكة بريطانيا فى القرن التاسع عشر .

تولت فيكتوريا عرش بريطانيا العظمى وايرلندا فى عام ١٨٣٧ . وفى عام ١٨٧٦ اصبحت امبراطورة الهند ايضا .

كانت هى الابنه الوحيدة لادوارد دوق كنت وحفيدة الملك جورج الثالث ، وقد ولدت فيكتوريا فى ٢٤ مايو عام ١٨١٩ بقصر كنسنجتون بلندن وكانت امها هى الاميرة مارى لويزا فيكتوريا دوقة كنت وبعد ٨ شهور من مولد فيكتوريا مات أبوها دوق كنت . وفى عام ١٨٢٠ تولى الملك جورج الرابع عرش انجلترا واصبح ترتيب فيكتوريا بين المرشحين لتولى العرش هو الثالث بعد دوق يورك الذى مات عام ١٧٢٧ وعمها دوق كلارنس الذى اصبح ملك لانجلترا باسم وليم الرابع الذى مات جميع أطفاله وهم صغار ولذلك تولت فيكتوريا العرش ..

وتقول الملكة فيكتوريا فى مذكراتها انها تربت تربية بسيطة فى قصر كنسنجتون مع أختها من الام فيودورا ، وكان اقرب شخص لها هو خالها ليوبولد الذى أصبح ملكا لبلجيكا عام ١٨٣١ .

كانت فيكتوريا فتاة جميلة الملامح ضئيلة الجسم ذات صوت ساحر . وخلال سنوات طفولتها كانت بعيدة تماما عن أسرة والدها . وقد حرصت والدتها وخالها ليوبولد على تثقيفها وتعليمها على أعلى مستوى خاصة بعد ان تأكدت فرصتها فى تولى العرش .

وفى ٢٠ يونيو ١٨٣٧ استدعى اسقف كانتربرى فيكتوريا وابلغها بوفاة عمها الملك وليام الرابع وبانها ستتولى العرش .. وقد رحب الشعب البريطانى بها وتعاطف معها كملكة شابة رغم حدوث انقسام بين أفراد الأسرة المالكة الذين طالب بعضهم بأن يتولى ايرنست دوق كوبرلاند شقيق الملك الراحل العرش ولكنه كان شخصية غير محبوبة .

ومنذ البداية ، كانت الملكة فيكتوريا حاسمة فطلبت من جميع أقاربها وخاصة أمها وخالها ليوبولد عدم التدخل فى شئون الحكم . وقد جلست فيكتوريا على العرش لاول مرة وهى ترتدى ثوب الحداد الاسود على عمها الملك السابق وبعد انتهاء مراسم الجلسة الاولى توجهت الى والدتها وسألتها « امى هل اصبحت ملكة حقا ؟! » وردت الام قائلة : « نعم يا ابنتى انت الآن ملكة بريطانيا العظمى » وقالت فيكتوريا « اذن ارجو ان تتقبلى اول رجاء تتقدم به الملكة اليك .. ارجوك اتركينى وحدى لمدة ساعة » .

كانت الملكة فيكتوريا عنيدة للغاية وكان ذلك يتناقض بشدة مع طبيعتها الطيبة وكانت تعشق الليل وتنام فى وقت متاخر وقد التقت فيكتوريا وهى طفلة فى السابعة بالملك جورج الرابع الذى سألها ما هى أحب أغنية الى قلبها ، وبسرعة بديهة أجابت الطفلة الصغيرة قائلة : انه النشيد الوطنى الانجليزى « ليحمى الله الملك » كذلك كانت فيكتوريا بالغة الذكاء والنضج واتضح ذلك من خلال سرعة تعلمها للغات والآدب والرقص والموسيقى والشعر وركوب الخيل .. وبعد ان تولت العرش عرف عنها انها ملكة ذات كبرياء ملحوظ وكان أقرب مستشاريها هو اللورد ملبورن رئيس وزرائها .

وقد اعتمدت فيكتوريا فى البداية على لورد ملبورن لانها كانت بلا خبرة تقريبا فى عالم السياسة وشئون الحكم وكانت تعترف بذلك صراحة لذلك حرصت دائما على سؤال وزرائها ومستشاريها فى كل كبيرة وصغيرة وكانت تحاول ابداء رأيها ولكنها تسمح فى النهاية لكل مسئول باتخاذ القرار المناسب وفقا لسلطاته وخبرته وثقتها فيه . وكانت تتلقى النصح ايضا من خالها الملك ليوبولد بشرط ألا يتدخل أو يتقدم بالنصيحة مالم تطلبها منه .

وعلى صعيد الانتماء السياسى ، كانت فيكتوريا تميل الى حزب الاحرار البريطانى لأن أسرتها كانت معروفة بتأييد هذا الحزب ولأن مستشارها اللورد ملبورن كان من زعماء الاحرار ولذلك أحاطها بمؤيديه لدرجة ان وصيفات الملكة كن من عضوات حزب الأحرار .

ولم تكن فيكتوريا تميل لحزب المحافظين المنافس أو تعرف احدا من قادته لذلك فعندما فاز المحافظون بالانتخابات في احدى السنوات واصبح يتعين على اللورد ملبورن ترك منصبه كرئيس للوزراء ومستشار للملكة ، حزنت فيكتوريا بشدة لدرجة البكاء ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا لمستشارها احتراما للديمقراطية واصبح « اللورد بيل » زعيم حزب المحافظين مستشارا للملكة وكان اول طلب تقدم به اليها هو تغيير وصيفاتها اللاتى يحتفظن بعضوية حزب الاحرار وتعيين وصيفات من عضوات حزب المحافظين ولكن الملكة رفضت ذلك بشدة وقالت : ان اختيار الوصيفات من حقها ولا علاقة له بمسئوليات الحكم ونتائج الانتخابات وفقا للدستور البريطانى واحتج اللورد بيل على ذلك ورفض تولى منصب مستشار الملكة .

وكان هذا الموقف نموذجا لتعامل فيكتوريا مع دهاة السياسة البريطانية .. الخضوع الكامل للدستور والقانون .. والحسم الشديد فى ممارسة حقوقها كملكة وانسانة . ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى اكتسبت فيكتوريا الخبرة اللازمة واصبحت قادرة على أداء مهامها الرسمية بكفاءة واقتدار وعلى الصعيد الشخصى ، كانت فيكتوريا ايضا نموذجا لقوة الشخصية ، فقد طلب منها خالها ليوبولد الزواج من ابنه البرت ولكنها رفضت ذلك بشدة رغم اعجابها بالأمير . وكان سبب الرفض هو اقتناعها بأن المبادرة كان يجب ان تأتى من البرت نفسه وليس من والده .

وقد توجه البرت الى لندن فقابلته الملكة بجفاء ولكنه اوضح لها انه لم يكن ليستطيع ان يتقدم لها بهذا الطلب باعتبارها الملكة ولم تقبل فيكتوريا تبريره واستمرت على تجاهلها له حتى كان احد الايام فاستدعته وفوجئ بها تسأله ان كان يقبل الزواج منها وكان البرت فى قمة السعادة وهو يبلغها بقبوله .

وفى ١٠ فبراير ١٨٤٠ تم عقد قران الملكة فيتكوريا « ٢١ سنة » على ابن خالها الامير البرت الذى منح لقب امير كونسورت . ونظرا لأن الدستور البريطانى لا يعهد لزوج الملكة بمهام او مسئوليات رسمية ، فقد احس البرت بالفراغ وبانه ليس السيد فى بيته وان مستشارى الملكة هم الذين يسيطرون عليها وهو بمثابة الغريب عنها . وهكذا بدأت الخلافات تدب بين فيكتوريا والبرت واتضحت التناقضات فى شخصيتها .. كان الزوج الامير انسانا هادئا يحب المناطق الخلوية ويميل للقراءة والحياة الكلاسيكية المحافظة البعيدة عن الاضواء ، اما فيكتوريا فكانت تعشق القصور وحفلات البلاط والاستمتاع بحياتها رغم مسئوليات العرش .

وقد ادت التطورات التى حدثت بعد ذلك الى رأب الصدع فى حياة الزوجين الملكين .. فبعد سقوط حزب الاحرار فى الانتخابات وابتعاد لورد ملبورن عن الملكة ونفورها من السياسيين المحافظين . واصبح الطريق ممهدا امام زوجها البرت ليصبح هو مستشارها وكان البرت يشعر بالضيق الشديد من لورد ملبورن بسبب استحواذه على معظم وقت الملكة باعتباره مستشارها ورئيس وزرائها ، كذلك كان انجاب فيكتوريا لابنتها الكبرى التى اطلقت عليها اسمها ثم انجاب ولى عهدها امير ويلز فى عام ١٨٤٧ من اهم التطورات التى دعمت العلاقة بين ملكة بريطانيا وزوجها وكتبت فيكتوريا فى مذاكراتها ان هذه الفترة كانت اسعد مراحل حياتها حيث اشتد حبها لزوجها واصبحت لا تقوى على فراقه .

وكان مبعث الضيق الوحيد فى حياة الملكة فيكتوريا هو لورد بالمرستون زعيم حزب المحافظين البريطانى فقد كان رجلا عنيدا شديد الدهاء وكان هو الذى قاد حملة فى بريطانيا عام ١٨٥٤ للتورط فى حرب القرم والاشتراك فى هذه الحرب لمساندة تركيا .. وقد اسفرت هذه الحرب عن مصرع ٢٥ ألف جندى بريطانى . وفى مواجهة هذا النمط الجديد من السياسيين ، كان يتعين على الملكة

فيكتوريا ان تعتمد اكثر على الرجل الوحيد الذى تثق به وهو زوجها الامير البرت الذى تزايد نفوذه فى بريطانيا واصبح يحظى بشعبية هائلة خاصة بعد ان اثبت قدراته السياسية .

وقد رأى البرت ان الخلاف بين الملكة وحزب المحافظين الحاكم فى ذلك الحين ستكون له نتائج سلبية على الحياة السياسية فى الامبراطورية البريطانية فسعى للمصالحة بين زوجته الملكة فيكتوريا والزعيم المحافظ لورد بيل ، وبمرور الوقت ، اسندت مهام رسمية للأمير البرت بعد ان اصبح هو السكرتير الخاص للملكة واصبح من حقه حضور جلسات مجلس العموم واللوردات وبذلك قدم الامير البرت نموذجا تاريخيا للتعاون الخلاق بين الزوج والزوجة دون حساسيات واثبت ان الزوج المحب لزوجته هو الذى يقف بجانبها فى اوقات المحنة والأزمة ، وكان من اهم الأعمال التى قام بها البرت وسجلها له التاريخ ذلك الدور الذى لعبه فى التوفيق بين الملكة فيكتوريا ونابليون الثالث امبراطور فرنسا .

وارتبطت فيكتوريا بعلاقة صداقة حميمة مع نابليون الثالث وزوجته اوجينى . وفى عام ١٨٧٠ تفجرت الحرب بين فرنسا والمانيا وأدت الى سقوط نابليون الذى توجه هو وزوجته الى بريطانيا فرحبت بهما فيكتوريا وقد انجبت الملكة فيكتوريا الاولاد والبنات تزوجوا جميعا من أميرات وامراء وأمراء اوربا ويبدو ان الاقدار كانت تحتفظ لفيكتوريا بمرحلة من الاحزان ، ففى عام ١٨٦١ توفيت والدتها دوقة كنت وبعدها مباشرة توفى زوجها الامير البرت ولم يكن يتجاوز ٤٥ عاما . وهكذا ، فقدت الملكة فيكتوريا الزوج المحب والمستشار المخلص الامين الذى كان يقف بجانبها ويساعدها على اداء مسئوليتها كملكة لامبراطورية لا تغرب عنها الشمس .

وقال السياسى البريطانى الشهير دزرائيلى « ان بريطانيا فقدت ملكها بموت الامير البرت الذى حكمها لمدة ٢٢ عاما بحكمة وهمة تجاوزت كل ما فعله ملوك بريطانيا السابقون .. وبدأ الاكتئاب يسيطر على الملكة فيكتوريا بعد وفاة زوجها وابعدتها الأحزان عن مهامها كملكة وأصبحت زاهدة فى كل شئ وقد امرت بإقامة تمثال لزوجها الراحل فى قصرها كتبت تحته فقط كلمة « البرت » مما يشير الى مدى خسارتها الشخصية بوفاته . وفى هذه المرحلة تقلص دور الملكة وظهر جيل من السياسيين العظماء فى بريطانيا لتعويض غياب الملكة ومن ابرز هؤلاء السياسيين جلادستون ودزرائيلى .. وفى عام ١٨٧٤ اجريت انتخابات جديدة فى بريطانيا واسفرت عن فوز حزب الاحرار وعودته للسلطة مرة اخرى وتولى دزرائيلى صديق الملكة منصب رئيس الوزراء ومستشار الملكة وادى ذلك الى التخفيف بعض الشئ من احزان الملكة فبدأت تحضر جلسات الحكومة وتشارك فى بعض الحفلات . وأطلق دزرائيلى على فيكتوريا لقب امبراطورية الهند وكان هذا السياسى مهتما للغاية بالامبراطورية الشرقية فبذل جهدا هائلا حتى أقنع خديو مصر ببيع أسهم قناة السويس لانجلترا وكان هدفه من ذلك هو أن تسيطر بلاده على هذا الشريان الحيوى الى الشرق وقد اسفر مخطط دزرائيلى عن احتلال بريطانيا لمصر فى عام ١٨٨٢ ، وفى عام ١٩٠٠ كانت الحالة الصحية للملكة فيكتوريا

قد تدهورت بشدة ، ففقدت بصرها وضعفت ذاكرتها واصبحت غير قادرة على ممارسة مسئوليات الحكم وتوفيت يوم ٢٢ يناير عام ١٩٠٠ ووفقا لوصيتها تم دفنها الى جانب زوجها الامير البرت وتأكيدا على حبها له اوصت ان تكتب على قبرها عبارة قصيرة لا تشير الى عرشها او امبراطوريتها المترامية الاطراف .

كانت هذه العبارة بسيطة للغاية ولكنها عميقة المعنى والمغزى فهى تؤكد لكل الأجيال ان الوفاء هو أسمى قيمة فى الحياة وان الحب هو التاج الحقيقى الذى يمكن ان يكلل هامة الإنسان . لقد اختارت ملكة بريطانيا ان يكتب على قبرها : « فيكتوريا ـ البرت » فقط وياله من معنى .

* * *

١١

مارجــريت ...

ملكة من نوع خاص !

التاريخ ملئ بنماذج لا حصر لها من النساء استطعن اقتحام عالم السياسة ولحقيق انتصارات كبرى على عتاة السياسيين من الرجال ومن أبرز هذه النماذج الملكة مارجريت ملكة الدنمارك والسويد والنرويج فى القرون الوسطى .

هى ملكة الدنمارك والنرويج والسويد التى استطاعت توحيد شبه جزيرة اسكنديناوه تحت راية حكمها وانتصرت على جيوش منافسيها الذين اشتهروا بالقوة والبطش فى القرون الوسطى وكان يطلق عليهم لقب « الفايكنج » أو غزاة الشمال .

ومارجريت هى ابنة الملك فالديمار السادس ملك الدنمارك وقد ولدت فى عام ١٣٥٣ بمدينة سويورج .. كانت عمرها ست سنوات فقط عندما خطبت لهاكون ملك النرويج وابن الملك ماجنوس اريكسون الذى كان ملكا للسويد والنرويج .

وكان الهدف من هذه الخطوبة هو تدعيم العلاقة بين ملكى الدنمارك والنرويج لمواجهة محاولات نبلاء منطقة مكتنبورج الاستيلاء على عرش اسكندنافيا والمكائد التى كان هؤلاء النبلاء يدبرونها ضد الملكين الشرعيين .

ولقد تعرضت هذه الخطوبة للخطر فى عام ١٣٦٠ عندما تجدد العداء القديم بين الملك فلاديمار وصهره المرتقب الملك ماجنوس ولكن ماجنوس اضطر الى الخضوع لفالديمار فى عام ١٣٦٣ بسبب معارضة مستشاريه للحرب وهزيمة قواته فى عدد من المعارك .

وهكذا ، تم زفاف مارجريت لهاكون فى نفس العام بكوبنهاجن عاصمة الدنمارك .. وكان هاكون يطمع فى ان يصبح ملكا للسويد ايضا الى جانب النرويج ولكن هذه الاطماع دمرت تماما بعد هزيمته هو ووالده امام البرت دوق مكلنبورج الذى تولى عرش السويد خلال الفترة من ١٣٦٤ وحتى ١٣٨٩ .

ورغم ذلك نجح هاكون فى الاحتفاظ بمملكة النرويج تحت حكمه ، وهناك قضت مارجريت شبابها مع زوجها الملك حيث اخذت تراقب وتتعلم فى صمت .. وبعد سنوات قليلة تحولت هذه الفتاة الصغيرة الى شخصية سياسية بارعة وأصبحت هى الملك الفعلى للبلاد بعد ان عمدت بدهاء الى تقليص سلطات زوجها ...

وفى عام ١٣٧٠ ، انجبت مارجريت ابنها الوحيد اولاف وفى ذلك الحين كان من الواضح ان هذه الفتاة التى لم يكن عمرها يتجاوز ١٧ عاما ، لديها خطة متكاملة لاقامة مملكة كبرى تضم كل الدول الاسكندنافية تحت حكمها .. لذلك فعندما مات والدها الملك فالديمار فى عام ١٣٧٥ بذلت جهودا هائلة حتى نجحت فى ان تضع ابنها الصغير اولاف ، ٥ سنوات ، على عرش الدنمارك خلفا لجده رغم معارضة النبلاء لهذه الخطوة .

وبعد وفاة زوجها الملك هاكون فى عام ١٣٨٠ اصبحت مارجريت تحكم النرويج ايضا باعتبارها وصية على عرش ابنها اولاف الذى اصبح ملكا للدنمارك والنرويج .. وهكذا بدا الاتحاد الدنماركى النرويجى الذى استمر حتى عام ١٨١٤ .

وقد استطاعت مارجريت ان تدعم سلطتها وتوسع نطاق حكمها .. ففى عام ١٣٨٥ استولت على منطقة الساحل الغربى لاسكندنافيا والذى كان يشكل اهمية اقتصادية بالغة فى ذلك الحين .

وبدهاء سياسى ملحوظ تمكنت من تأمين الحدود الجنوبية للدنمارك عن طريق ابرام اتفاقيات مع نبلاء منطقة هولشتاين الذين كانوا يهاجمون هذه المناطق ويحاولون الاستيلاء عليها .

وفى عام ١٣٨٥ أيضا كانت مارجريت وابنها اولاف على وشك شن الحرب ضد الملك البرت ملك السويد لضم بلاده الى مملكة الدنمارك والنرويج ولكن الابن اولاف مات فجأة فى عام ١٣٨٧ . وتغلبت مارجريت على احزانها لوفاة ابنها الوحيد واستخدمت كل حنكتها الدبلوماسية حتى دعمت موقفها واصبحت هى الوصى على عرش الدنمارك والنرويج فى غياب أى وريث شرعى للعرش ..

وأدركت مارجريت أن النبلاء لن يتركوها تنعم بهذا الوضع لفترة طويلة فقررت ان تتبنى

« أريك » ابن اختها وكان عمره لا يتجاوز ٦ سنوات لتعده كوريث للعرش .

واستأنفت مارجريت جهودها لتحقيق حلمها الكبير فى اقامة مملكة تشمل الدنمارك والنرويج والسويد فتحالفت مع النبلاء السويديين الذين تمردوا على الملك البرت .

وفى عام ١٣٨٨ وقع هؤلاء النبلاء معاهدة مع مارجريت اعترفوا فيها بها ملكة شرعية للسويد ، وفى عام ١٣٨٩ تفجرت الحرب بين مارجريت والملك البرت الذى انهزمت قواته ووقع أسيرا فى أيدى مارجريت وظل فى الاسر لمدة ٦ سنوات رغم ان مؤيديه تحالفوا مع عصابات القراصنة فى بحر البلطيق ولم يسلموا العاصمة السويدية ستوكهولم الا بعد ٩ سنوات فى عام ١٣٨٩ .

وهكذا ، أصبحت مارجريت هى الحاكم الفعلى للدنمارك والنرويج والسويد بلا منازع ، واعلن اريك ابنها بالتبنى ، ملكا للنرويج فى عام ١٣٨٩ ثم ملكا للدنمارك والسويد التى كانت تضم فنلندا أيضا ، فى عام ١٣٩٦ .

وتم تتويج أريك ملكا لمملكة اسكندنافيا فى مدينة « كالمار » جنوب السويد بحضور الشخصيات البارزة فى جميع الدول الاسكندنافية .

وكان بعض النبلاء فى الكامار ، قد اعلنوا معارضتهم لتزايد نفوذ مارجريت والسلطات المطلقة التى تمارسها وتفجر صراع بين مبدأين سياسيين الاول هو مبدأ الملكية الوراثية المطلقة والذى يعبر عنه القانون المعروف بقانون التتويج ، والثانى هو مبدأ الملكية الدستورية الانتخابية الذى كان يحظى بتأييد بعض النبلاء وعبر عنه القانون المعروف بقانون الاتحاد .

وجاء تتويج الملك أريك فى « الكامار » انتصارا هائلا لمارجريت ولمبدأ الملكية الوراثية المطلقة .. وأصبح قانون الاتحاد ، وهو أهم وثيقة فى القرون الوسطى دار حولها جدل المؤرخين ، مجرد رمز لمشروع انتهى بالفشل .

ورغم تتويج اريك ملكا للدنمارك والسويد والنرويج الا ان مارجريت ظلت هى الحاكم الفعلى لاسكندنافيا حتى وفاته .. وقد كان هدفها دائما هو تدعيم قوتها والحفاظ على الوحدة الاسكندنافيا بحيث تكون الدنمارك هى مركز ثقل الدولة الموحدة .

كذلك نجحت مارجريت فى القضاء على معارضة النبلاء لنفوذها وفى الحد من سلطات مجلس الدولة واقامة شبكة من مؤيديها تسيطر بها على جميع المناصب والمواقع الهامة فى البلاد ..

وفرضت مارجريت الضرائب المبالغ فيها على الشعب كما صادرت ممتلكات الكنيسة ورغم ذلك نجحت هذه السياسة المتشددة فى تحقيق أهداف مارجريت الأمر الذى يشير الى قوة موقفها السياسى والمهارات الدبلوماسية التى كانت تتميز بها وصلابتها فى مواجهة أى تهديد لطموحاتها .

ولقد سيطرت مارجريت ايضا على الكنيسة الاسكندنافية من خلال علاقاتها الوثيقة بالقيادات

الدينية وأصبحت احد العناصر المؤثرة فى انتخابات الاساقفة التى لم تكن مجرد عملية دينية فحسب بل كانت لها أيضا ابعادها السياسية .

كذلك تجلت البراعة السياسية لمارجريت فى مجال الشئون الخارجية .. فقد كان من أهم اهدافها فى هذا المجال وضع نهاية للتوسع الجرمانى فى شمال اوروبا وتأمين حدود الدنمارك الجنوبية ، وقد نجحت فى تحقيق ذلك رغم ان الدبلوماسية لم تكن هى الوسيلة بل كانت الوسيلة هى الحرب التى لجأت اليها مارجريت لدعم اهداف سياستها الخارجية .

وقد دخلت مارجريت فى حرب مع هولشتاين ، وخلال الحرب ماتت فجأة فى مدينة فلينمزبورج وكان ذلك فى عام ١٤١٢ .

ان مارجريت واحدة من ابرز ملوك شبه جزيرة اسكنديناوة على مر التاريخ .. وقد استطاعت ان ترسى دعائم الأمن فى مملكتها وتتصدى لاطماع النبلاء الاسكندنافيين وامراء المانيا .. وكانت المملكة التى اقامتها بتوحيد الدنمارك والنرويج والسويد اسطورة تاريخية مبهرة وظلت هذه الوحدة قائمة حتى عام ١٥٣٣ بفضل المبدأ الذى اقرته مارجريت وهو الملكية القوية .

* * *

١٢

إيـــزابيـــلا ..

ملكة على عرش المتناقضات !

كانت نموذجا حيا للتناقضات .. تقوم بواجباتها كزوجة وأم وكأنها مجرد قروية لا هم لها سوى اسعاد أسرتها ، وفى الوقت نفسه تهوى خوض الحروب والدخول فى معارك وكأنها مقاتل محترف لا يشغل فكره سوى الدرع والسيف .. فعلت كل ما تستطيع للحصول على الثروة والجاه ولكنها اجبرت نفسها وأفراد اسرتها على حياة التقشف وشظف العيش .

ارتبط اسمها بالتعصب الدينى فى القرن الخامس عشر واطلق عليها اسم « الملكة الكاثوليكية » وشهدت حياتها من الانتصارات بقدر ما شهدته من الهزائم وكما ارتبط حكمها بالعظمة والمجد ، ارتبط أيضا بالخزى والعار

ولدت ايزابيللا فى عام ١٤٥١ وكان والدها هو الملك جوان الثانى حاكم مملكة « كاستيل » الاسبانية حيث لم تكن اسبانيا دولة واحدة فى تلك الايام بل كانت تتكون من عدة ممالك مستقلة . وكان من اهمها كاستيل أراجون وغرناطة .. وبينما كانت كاستيل وأراجوان من الممالك المسيحية كانت غرناطة تحت حكم المسلمين باعتبارها آخر بقايا الامبراطورية الإسلامية فى الاندلس .

وقد تدربت ايزابيللا على كراهية المسلمين وكرست حياتها كلها لطردهم من اسبانيا واخضاع جميع الاراضى الأسبانية الى السيطرة المسيحية .

وفى عام ١٤٥٥ ، مات والدها الملك جون تولى اخوها غير الشقيق هنرى عرش كاستيل .. وكان هنرى شخصا سيئ الخلق يتسم بالانانية ولم تكن ام ايزابيللا تحب ابن زوجها الذى اصبح ملكا فأخذت ابنتها التى عمرها ٤ سنوات فى ذلك الحين وأخذت أيضا ابنها الفونسو وعاشت بهما بعيدا عن بلاط الملك هنرى .

كانت طفولة ايزابيللا كئيبة قاتمة ، فقد قضت سنوات الطفولة فى بلدة اريفالو حيث لم تكن تتمتع بمباهج الحياة التى تليق بأميرة اسبانية .. والأكثر من ذلك ان الظروف المحيطة بها كانت كلها تدفعها نحو التدين الشديد خاصة بعد ان وفرت لها والدتها تعليما دينيا خالصا ، وخلال هذه الفترة زرعت فى نفس الطفلة ايزابيللا كل بذور التعصب تجاه غير المسيحيين لدرجة جعلتها تعتقد فى وقت لاحق ، ان مهمتها الوحيدة فى الحياة هى طرد المسلمين من اسبانيا ..

وعندما دخلت ايزابيللا مرحلة الصبا تمت خطبتها للامير فرديناند ولى عهد مملكة اراجون الذى احبته بشدة لوسامته واصله النبيل ، وكانت على ثقة من انه الرجل الوحيد فى العالم الذى يصلح زوجا لها .

كانت ايزابيللا تدرك أن زواجها من فريناند سيجعلها تجلس على عرش مملكة أراجون ذات يوم ورغم ذلك فلم تكن تحلم بأن تجلس ذات يوم على عرش والدها فى مملكة كاستيل لانه بعد وفاة أخيها غير الشقيق الملك هنرى من المفروض ان ينتقل العرش الى شقيقها الاصغر « الفونسو » .. ولقد ظلت والدة ايزابيللا تلح عليها ان تعد نفسها لاحتمال ان تصبح ملكة لكاستيل وربما كان هذا هو السبب فى ان ايزابيللا لم تنعم بطفولتها حيث حرصت أمها على ان تحيطها بالوقار والجدية استعدادا لاحتمال توليها عرش أبيها .

وفى عام ١٤٦٧ ، مات الفونسو شقيق ايزابيللا الأصغر وأصبحت ايزابيللا هى الوريث الشرعى لعرش « كاستيل » .. وبعد عامين ، أى فى عام ١٤٦٩ تزوجت من الأمير فرديناند ولى عهد مملكة اراجون .. ولقد ظلت ايزابيللا تحب فريناند لمدة ١٠ سنوات قبل ان تتزوجه .. وعندما رأته لأول مرة تنهدت فى ارتياح لانه كان نموذجا لفتى الاحلام الذى تخيلته .. كان فريناند يصغرها بعام واحد ..

طويل القامة أشقر الشعر يتفجر شبابا وثقة بالنفس .. وكانت أقصى امانى ايزابيللا ان يحبها فريناند بقدر ما أحبته .

وفى عام ١٤٧٠ ، أنجبت ايزابيللا طفلتها الأولى وبعد ٤ سنوات مات أخوها هنرى ليصبح من حقها تولى عرش كاستيل وعمرها ٢٣ عاما وفى عام ١٤٧٩ توفى الملك هنرى والد زوجها ليصبح زوجها فرديناند أيضا ملكا على عرش اراجون .. وهكذا توحدت المملكتان المسيحيتان ضد مملكة غرناطة المسلمة .. وسيطر على ايزابيللا اعتقاد بأن مهمة توحيد اسبانيا كلها تحت راية المسيحية قد ألقيت على عاتقها هى وزوجها .

كان فريناند معجبا بشخصية زوجته ولكنه كان مستاء من التزايد المستمر لنفوذها وقوتها بدرجة تطغى على هيبته لذلك قرر مواجهتها وقال لمستشاريه : « لسوف اعلمها من هو السيد فى هذه البلاد ومن هو صاحب الكلمة العليا ؟ » .

ولكن ايزابيللا لم تكن امرأة ساذجة من السهل ازاحتها والقضاء عليها .. فرغم حبها الشديد الا أنها كانت واعية تماما لحقيقة أنها ملكة مثله ومن حقها أن تتساوى به .

وعندما تفجرت المشكلات بينهما حول قضايا الحكم المشترك لكاستيل وأراجون قالت لفريناند : « اذا انتصرت عليك وخسرت حبك فسوف أعتبر نفسى خاسرة » .

ويرغم حب ايزابيللا الشديد لفرديناند الا أنها رفضت الاستسلام لرغبته فى السيطرة عليها .. وفى نفس الوقت حرصت ايزابيللا على استمرار اتحادها مع زوجها وقالت له : « اذا كان قد قدر لاتحادنا ألا يكون سعيدا فلنحاول ان نجعله ناجحا » ..

وكان هدفها بالطبع هو توحيد قوة مملكتى كاستيل وأراجون ضد المسلمين فى غرناطة .. وفى عام ١٤٨٠ ، تصاعدت حملة ايزابيلا وفريناند ضد الحكم الإسلامى فى غرناطة وكانا سعيدين للغاية بالحرب الدموية التى اعلنها ضد المسلمين والتى اعتبراها « حربا صليبية مقدسة » بين المسيحيين وغير المسيحيين .

من حيث المظهر ، كانت ايزابيللا ممتلئة بالأنوثة وكأنها مخلوق هش بالغ الرقة ، ويقول المؤرخون : انها كانت جميلة الملامح حمراء الشعر ذات بشرة نضرة .. وكغيرها من النساء كانت ايزابيللا مغرمة بالملابس الأنيقة والمجوهرات الثمينة ولكنها كانت تتميز عن بقية النساء بحبها ايضا للسيوف ، والدروع والاسلحة .. وكانت تحرص على مصاحبة زوجها فى المعارك العسكرية ضد مسلمى غرناطة ، لذلك وصفت ايضا بأنها « الملكة المحاربة » وكانت ترفض بشدة اية محاولة لابعادها عن ساحات المعارك باعتبارها امرأة قائلة : ان كونها امرأة لا يعنى التقليل من شأنها أو حرمانها من « شرف الاشتراك فى الحرب الصليبية » .

وفى فترة الحملات الحربية نفسها انجبت ايزابيللا عشرة اطفال عاش منهم خمسة فقط لما بعد مرحلة الطفولة .. وقد تربى اطفال ايزابيللا وفرديناند فى المعسكرات الحربية حيث كانت امهم تعيش خلال غزواتها العسكرية .

وكان بوسع ايزابيللا ان تترك اطفالها بعيدا عن ساحات المعارك ليتمتعوا وينعموا بحياة الامراء ولكنها كانت حريصة على أن تشرف بنفسها على تربيتهم وتعليمهم وأن تزرع فيهم منذ الصغر معتقداتها الدينية والاجتماعية .. وكانت ايزابيللا حريصة ايضا على تربية جنودها وفقا لمعتقداتها فكانت تجبرهم على الصلاة فى كنائس خاصة اقامتها داخل الثكنات وتمنعهم من شرب الخمر او المقامرة .

ولقد وضعت ايزابيللا وفرديناند كل الأمل فى شخصية ابنها خوان الذى ولد فى عام ١٤٧٨ ، وكان ولدهما الوحيد الى جانب اخوته البنات .. وتوقع الوالدان ان يحقق خوان كل الاحلام التى لم يتمكنا من تحقيقها وانه ذات يوم سيحكم دولة اسبانية قوية موحدة لا يوجد بها اى شخص غير مسيحى ..

وبعد خوان ، كانت ايزابيللا تحب للغاية ابنتها خوانا وبدرجة اكبر من بناتها الثلاث الأخريات .. وكانت خوانا تشبه امها فى نواح عديدة فهى مزاجية متقلبة ومليئة بالتناقضات .

ولقد تزوجت خوانا من فيليب أرشيدوق النمسا وانجبت منه ولدا ولكنها أصيبت بعد ذلك بالجنون وتم عزلها فى قلعة بمنطقة نائية ومنع والدها الملك فيليب اى اتصال بها .

ومن حسن حظ ايزابيللا انها لم تعش حتى ترى ابنتها الحبيبة وهى فى هذه الحالة المأساوية ، ولكنها نالت ما يكفى من العذاب بعد ان مات ابنها الوحيد خوان أمام عينيها ولم يكن عمره يتجاوز ١٩ عاما وكان ذلك فى عام ١٤٩٧ .. ولقد اجتاح الحزن ايزابيللا بسبب وفاة وحيدها وبدأت ترتدى ملابس الراهبات واصبح سلوكها بالغ الغرابة والازعاج لدرجة ان زوجها نفسه عجز عن تحملها وبدأ يبحث عن السعادة مع نساء اخريات ..

وفى مواجهة هذا الموقف ، ازداد التعصب الدينى لدى ايزابيللا وبدأت تفسر ابتعاد زوجها فرديناند عنها على انه يرجع الى عدم تدينه ولم تحاول ان تبحث عن السبب الحقيقى الذى يجمع المؤرخون على انه كان هو الهوس والتعصب الدينى لايزابيللا والذى جعل زوجها يفيض به الكيل رغم انه كان ملكا متدينا أيضا .

ولقد مضت ايزابيللا الى ابعد من ذلك ، عندما بدأت تطالب ابنتها الصغرى كاترين ، والتى اشتهرت فى التاريخ باسم كاترين داراجون ، بدخول الدير وعدم الزواج من أى رجل ، ولكن الابنة رفضت نصائح امها وتزوجت من هنرى الثامن ملك انجلترا .

ولقد كانت السنوات الاخيرة من حياة ايزابيلا نموذجا للمعاناة والألم والعذاب .. ولكن قبل ان تبدأ هذه المرحلة المأساوية من حياتها ، حققت ايزابيلا انتصارين ، الاول تم فى ٢ يناير ١٤٩٢ عندما سقطت غرناطة فى ايدى قواتها ودخلتها ايزابيلا وزوجها فرديناند دخول الغزاه المنتصرين وارتكبا ابشع المذابح ضد سكانها المسلمين ، واجتاحت نشوة الانتصار مشاعر ايزابيلا وازدادت حدة تعصبها فأصدرت امرا لغير المسيحيين بالرحيل عن اسبانيا والا تعرضوا للموت وطالبت من يرغب فى البقاء باسبانيا من هؤلاء ان يتحول الى الديانة المسيحية .. وبناء على اوامر ايزابيلا ، اقيمت محاكم التفتيش الرهيبة التى حاكمت أعدادا هائلة من غير المسيحيين من المسلمين واليهود بل وأتباع بعض المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية بتهمة الهرطقة .. وكان اى شخص لا تقتنع هذه المحاكم الدينية بأجوبته يتعرض لأبشع صنوف التعذيب ويتم اعدامه .

ولقد استمرت محاكم التفتيش هذه فى اسبانيا لمئات السنين . وكانت هى المسئولة عن اسوأ موجة اضطهاد دينى فى تاريخ الإنسانية .. وكانت محاكم التفتيش أيضا هى وصمة العار الشنيع التى لطخت جبين الملكة ايزابيلا رغم تعدد خطاياها وكثرة أعمالها القبيحة .

ولقد ارتبط اسم ايزابيلا أيضا بحدث آخر بالغ الاهمية فى التاريخ .. ففى عام ١٤٩٢ بدأ اسم الرحالة الشهير كريستوفر كولمبس يتردد على نطاق واسع وكان كولمبس قد ولد بمدينة جنوة الايطالية عام ١٤٥١ .. ولقد ارتبط اسمه بتلك النظرية التى كان يدافع عنها فى كل مكان وهى ان الأرض كروية وليست مسطحة ولذلك كان يعتقد ان بوسعه اكتشاف طريق أقصر الى الشرق اذا ابحر فى اتجاه الغرب .. ولقد حاول كولمبس مرارا اقناع ملوك أوروبا بمساندة فكرته وتمويل هذه الرحلة ولكنهم كانوا يتهمونه بالجنون .

وفى عام ١٤٨٥ ، اتصل كولمبس بايزابيلا وقال لها انها اذا وافقت على تمويل الرحلة فسوف تصبح اسبانيا أغنى دولة فى العالم . واقتنعت ايزابيلا بالفكرة وطلبت من كولمبس ان يعود اليها مرة اخرى بعد ان تنتصر فى الحرب ضد مسلمى غرناطة .

وبالفعل عاد كولمبس بعد ٧ سنوات والتقت به هذه المرة فى غرناطة واعاد طرح الفكرة ولكن الملك فرديناند زوج ايزابيلا قال انه يرفض انفاق كل هذه الاموال على مغامرة غير مضمونة .. وردت ايزابيلا قائلة : انها ستمول الرحلة من ميزانية مملكة كاستيل التابعة لها ..

وعندما علمت ايزابيلا بأن كولمبس يطالب ١٤ الف دولار لتمويل الرحلة بدأت تتردد ولكن كولمبس تحداها وقال لها : ان ملك فرنسا مستعد لان يمول الرحلة اذا رفضت ملكة اسبانيا ذلك وهنا وافقت ايزابيلا على الفور لمجرد ان كولمبس لوح لها بامكانية ان يجنى شخص آخر ثمار هذه الرحلة اذا نجحت .

ويقال ان ايزابيللا رهنت كل مجوهراتها لجمع المبلغ الذى يحتاجه كولمبس وبدأت الرحلة بالفعل يوم ٣ أغسطس ١٤٩٢ باسطول من ٣ سفن و٩٠ رجلا .. وفى ١٢ اكتوبر اكتشف كولمبس جزيرة سان سلفادوور وبدلا من ان يصل الى الشرق كما كان يتوقع وصل كولمبس العالم الجديد .. امريكا .

وعاد كولمبس الى ايزابيللا بدون الثروة التى وعدها بها ولكنها لم تظهر استياء بل حثته على القيام بثلاث رحلات اخرى اكتشف فيها جزر بورتوريكو وجامايكا وقارتى امريكا الشمالية والجنوبية .

وفى جزيرة هسبانيولا ، اسبانيا الصغيرة ، اقام كولمبس اول مستعمرة اوروبية فى العالم الجديد واطلق عليها اسم « ايزابيللا » .. وبعد ذلك تزايد عدد المستعمرات الاسبانية فى العالم الجديد واصبحت اسبانيا اقوى دولة فى اوروبا واحتلت ايزابيللا مكانتها فى التاريخ باعتبارها المرأة التى راهنت على حلم بحار صغير وكسبت الرهان .. وربما كان التاريخ قد سار فى اتجاه آخر لو كانت ايزابيللا رفضت قبول هذا الرهان .

وفى عام ١٥٠٤ ماتت ايزابيللا وكان عمرها فى ذلك الحين ٥٣ عاما .. وكانت خاتمة حياتها مأساوية وكأنها احدى شخصيات الأساطير اليونانية القديمة .. فقد مات ابنها الوحيد خوان وبدأ المرض يقضى على حياة ابنتها المفضلة خوانا واخذ زوجها فيليب يعاملها بمنتهى الازدراء والاذلال .

والأهم من كل ذلك أن صرخات ضحايا محاكم التفتيش ظلت حتى النهاية تدوى فى أذنيها تلعنها وتدعو الله ألا يشملها برحمته جزاء تعصبها المقيت الذى يتعرض بشدة مع تسامح الأديان والتدين الحقيقى .

١٣

فلورانس ناتينجيل ..

امـرأة تضمد جـراح الإنســانية المعـذبة !

وفلورانس ناتينجيل لم تكن ملكة أو أميرة ولم تكن من الأدباء أو العلماء الكبار ورغم ذلك فسوف تظل الإنسانية تذكرها الى الأبد باعتبارها الرائدة الأولى لمهنة التمريض والمرأة التى حملت على عاتقها مسئولية الدخول فى مواجهة ضد الألم ، وانحازت بشكل حاسم الى جانب الجرح .. ضد الرصاصة والسكين ..

كانت هى الابنه الثانية لويليام ادوارد ناتينجيل وفرنسيس سميث .. وولدت فى ١٢ مايو ١٨٢٠ بمدينة فلورانس الايطالية حيث كان يقيم والدها فى ذلك الحين ، وانتقلت الأسرة بعد ذلك الى مدينة دربى شاير باقليم هاميشير فى انجلترا ثم استقرت فى لندن .

وكانت أسرة فلورانس ناتينجيل على درجة من الثراء وتولى والدها بنفسه تعليمها خاصة اللغات ، ولذلك أجادت اليونانية واللاتينية والفرنسية والايطالية الى جانب الانجليزية ثم درست التاريخ والفلسفة والرياضيات .

ومنذ نعومة أظافرها ، كانت فلورانس ناتينجيل محبة للتعلم والثقافة فقرأت الكثير من الأعمال الأدبية الكبرى بمختلف اللغات .. وكان اهتمامها واضحا بالعلوم الإنسانية والأدب الاجتماعى .. وفى ٧ فبراير ١٨٣٧ قالت لمن حولها : انها سمعت صوتا من السماء يبلغها بأنها لها مهمة محددة ستكرس لها حياتها .. وبعد ٩ سنوات عرفت تفاصيل هذه المهمة وبأنها تتلخص فى محاولة تخفيف المعاناة عن المرضى والجرحى وضحايا الألم فى كل مكان .

ولقد تركزت دراسة فلورانس ناتينجيل فى مجال الصحة العامة والمستشفيات .. وفى عام ١٨٤٦ ارسل لها احد الاصدقاء الكتيب السنوى لاحد معاهد التمريض فى المانيا وكان هذا المعهد متخصصا فى تدريب الفتيات على رعاية المرضى والعناية بهم ، وبعد ٤ سنوات التحقت فلورانس ناتينجيل بهذا المعهد حيث حصلت على شهادة أخرى فى التمريض .

وفى عام ١٨٥٣ تم تعيينها فى وظيفة مشرف بمعهد رعاية المرضى من السيدات فى لندن . وفى

هذا المعهد حققت نجاحا هائلا حيث كرست كل وقتها من أجل تحويل المعهد الى قطعة من الجنة تنعم فيها المريضات بالهدوء والراحة والنظافة والرعاية الكاملة .

ورغم هذا النجاح ، كانت فلورانس ناتينجيل تطمح الى تقديم المزيد والمزيد فى مكان اكبر تستطيع ان ترعى فيه عددا اكبر من المرضى والجرحى .

وفى عام ١٨٥٤ تفجرت « حرب القرم » ووصلت القوات البريطانية والفرنسية المتحالفة الى شبه جزيرة القرم فى شهر سبتمبر من هذا العام .. وفى ذلك الحين ، اجتاح الاستياء والسخط الرأى العام البريطانى بسبب التقارير التى ترددت حول الظروف السيئة التى يعانى منها الجنود البريطانيون الجرحى .. وترددت النداءات تطالب النساء الانجليزيات للتطوع كممرضات لرعاية الجنود الجرحى كما فعلت النساء الفرنسيات من قبل عندما شكلن جمعية « أخوات البر » التى لعبت دورا بارزا فى رعاية الجرحى من الجنود الفرنسيين فى هذه الحرب .

وكانت فلورانس ناتينجيل فى طليعة المتطوعات البريطانيات واستعدت للسفر على الفور الى القسطنطينية ومعها ثلاث ممرضات فقط واتصل بها سيدنى هربرت وزير الحرب البريطانى فى ذلك الحين وطلب منها أن تصحب معها عددا أكبر من الممرضات وابلغها رسميا بأنها ستكون مسئولة عن التمريض فى جميع المستشفيات العسكرية بتركيا .. وغادرت فلورانس انجلترا على رأس بعثة الممرضات فى ٢١ أكتوبر ١٨٥٤ وبدأت مهمتها بالمستشفى العسكرى فى سكوتارى يوم ٥ نوفمبر .

ولدى وصولها الى هناك ، اكتشفت ان الجرحى من الجنود يعيشون فى ظروف صعبه حيث كانت المستشفيات العسكرية تفتقر لجميع التسهيلات .. وكانت عنابر الجرحى مليئة بالذباب والفئران وكانت الحصة اليومية لكل جريح من الماء هى لتر واحد لجميع الاغراض .

ولاحظت فلورانس أن الاطباء العسكريين يتسمون بالصرامة ويتعاملون مع الجرحى على أنهم جنود فقط وكانوا لا يسمحون للممرضات بدخول عنابر المصابين .. وفى يوم وصول فلورانس ناتينجيل تفجرت معركة كبرى هى معركة « انكرمان » وتدفق الجرحى على المستشفيات بأعداد هائلة وكان هناك عجز كبير فى الأسرة والملابس والبطاطين وغيرها من المستلزمات الضرورية لأى مستشفى .. وكان الجرحى والمصابون يرقدون فى الأروقة على مراتب من القش وسط القاذورات وطفح مياه المجارى فى دورات المياه .

وبدأت مهمة فلورانس ناتينجيل فى هذه الظروف الصعبة بشراء مائتى مكنسة لتنظيف المستشفى وطلبت غسل الملابس المتسخة لجميع الجرحى خارج المستشفى .. واستخدمت الأموال التى أحضرتها معها من انجلترا ٣٠٠ ألف جنيه استرلينى ، فى شراء كل ما يحتاجه المرضى بعيدا عن الاجراءات الروتينية التى كانت تقف عقبة امام الحملة الكبرى التى قامت بها للقضاء على كل السلبيات بالمستشفيات العسكرية .

وعندما كانت تصطدم بمشكلة تعجز عن حلها كانت لا تتردد فى الكتابة الى اكبر المسئولين بالحكومة البريطانية تطالبهم باسم الجنود الذين دفعوا دما ءهم من أجل الوطن ان يتدخلوا وكانت دائما تنجح فى اقناع المسئولين بمساندتها .

وفى نفس الوقت ، كانت فلورانس ناتينجيل حاسمة مع الممرضات العاملات معها .. فقد كانت تؤكد لهن فى كل وقت القيمة الإنسانية الكبرى للعمل الذى يقمن به .. وعندما كانت تلاحظ أى خطأ فى سلوك أحدى الممرضات لم تكن تتردد فى مواجهتها بمنتهى الشدة والصرامة .. فقد قامت بترحيل احدى الممرضات لانها ضبطتها مخمورة وعاقبت أخرى لانها لم تكن نموذجا للممرضة الأخلاقية التى تحترم نفسها ومهنتها .

وكانت فلورانس ناتينجيل تقضى كل وقتها فى عنابر الجرحى والمصابين تتعامل معهم وكأنهم أخوة لها تكتب لهم الخطابات وتثير فيهم الأمل بقرب الشفاء والعودة للوطن وكانت أحيانا تقضى الليل كله بجانب أحد الجنود المصابين بانهيار عصبى حتى تهدئ من روعه ولا تتركه الا بعد أن ينام وكانت فلورنس ناتينجيل هى المرأة الوحيدة التى يسمح لها بدخول عنابر الجرحى والمصابين بعد الثامنة مساء لثقة الجميع فى أخلاقها ولأن جميع الجنود كانوا يتعاملون معها باعتبارها شقيقة لهم .. لذلك أطلق عليها الجنود اسم « السيدة التى تحمل المصباح » لأنها كانت تنتقل بينهم فى الظلام وهى تحمل مصباحا فى يدها للاطمئنان على كل واحد منهم فاذا كان عطشانا سقته وان كان يتألم حاولت التخفيف من آلامه .

وفى مايو ١٨٥٥ أصبح تمريض الجرحى والمصابين يحتل المرتبة الثانية من اهتمامات فلورانس ناتينجيل وصار اهتمامها الأول هو رعاية جنود الجيش البريطانى فى جميع مجالات حياتهم الاجتماعية .. ولذلك انتقلت الى خط القتال الأول وهناك أصيبت « بحمى القرم » وهو نوع شديد من الحمى كان ينتشر بين الجنود خلال هذه الحرب .

ورغم مرضها الا انها لم تتوقف عن مهمتها الإنسانية ولقد تعرضت لمكائد عديدة من جانب كبار اطباء الجيش البريطانى الذين أحسو أن ما تقوم به يتجاوز دورها كمسئولة عن التمريض .. وفى ١٦ مارس ١٨٥٦ صدر قرار بتعيينها مشرفا عاما على مؤسسة التمريض بالجيش البريطانى .

وبعد انتهاء حرب القرم وخروج جميع الجنود المصابين من المستشفيات عادت فلورانس ناتينجيل الى انجلترا حيث اعتبرت « بطلا قوميا » ولكنها رفضت اى شكل من اشكال التكريم وحفلات الاستقبال الفاخرة .. وعادت وحدها الى هامبشير وقد عقدت العزم على شن حملة كبرى من أجل تحسين الظروف الصحية والغذائية والمعيشة للجنود الذين يضحون بحياتهم من أجل الدفاع عن الوطن ويعيشون فى أقسى الظروف بينما يتمتع الآخرون بالحياة الرغدة .

ووجدت فلورانس ان المسئولين يتعاطفون مع حملتها على انها نوع من عمل الخير والاحسان ولكنهم لا يتحمسون للمعنى الى ما هو ابعد من ذلك فأعلنت فى كل مكان أن ما تقوم به ليس عملا من اعمال الخير وانما هو محاولة لسداد الدين الذى يطوق به الجنود اعناق الجميع .. وطلبت فلورانس لقاء الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا ورئيس الوزراء وكبار اعضاء الحكومة وفى النهاية نجحت فى الحصول على وعد بتشكيل لجنة ملكية لتحقيق مطالبها .

وفى مايو ١٨٥٧ شكلت بالفعل اللجنة الملكية لرعاية جنود الجيش .. وقدمت فلورانس ناتينجيل تقريرا تفصيليا للجنة حول الاحتياجات الصحية والاجتماعية للعسكريين .

وقد نشر هذا التقرير فى وقت لاحق عام ١٨٥٨ تحت عنوان « مذكرات حول الشئون الصحية وادارة المستشفيات بالجيش البريطانى » .

وكان من أهم النتائج التى اسفر عنها تشكيل هذه اللجنة هو تأسيس المدرسة الطبية العسكرية فى عام ١٨٥٧ .. وفى نفس الوقت قامت بتأسيس مدرسة فلورانس ناتينجيل للتمريض بمستشفى سانت توماس وكانت هذه هى اول مدرسة للتمريض فى العالم .

وخلال سنوات قليلة اشرفت فلورانس على العديد من البرامج التى خصصت لتدريب القابلات « المولدات» والمرضات المتخصصات فى مختلف الامراض ومجالات الخدمة الصحية بذلت جهدا لتخريج جيل جديد من الممرضات المتخصصات فى العمل بالمصحات ومراكز رعاية المعوقين والمحاربين القدماء ..

كل ذلك فعلته فلورانس ناتينجيل فى الوقت الذى كان الكثيرون يعتقدون انها على وشك الموت .. فمنذ عام ١٨٥٧ اصبحت فلورنس عاجزة عن الحركة وغير قادرة على مغادرة الفراش .. والغريب ان أحدا لم يعرف سبب العجز الذى كانت تعانى منه ولم يكن هناك مرض عضوى محدد اصابها وأدى بها الى تلك الحالة .

وقد ذكر البعض ان عجزها كان يرجع الى اسباب خاصة بالاعصاب . وقال البعض الآخر انها كانت تتعمد ادعاء الاصابة بالعجز حتى تستطيع ان تكرس كل وقتها للاشراف على مهامها تجاه المرضى والجرحى والمصابين حتى ولو كانت تقوم بذلك وهى فى الفراش ..

ويعترض الكثيرون من المؤرخين على هذا الرأى ويؤكدون ان فلورانس ناتينجيل كانت مصابة بالشلل نتيجة لمرض غامض والدليل على ذلك أنها بدأت تفقد بصرها تدريجيا حتى اصبحت عمياء تماما فى عام ١٩٠١ ..

وفى عام ١٩٠٧ منحها ملك بريطانيا وسام الاستحقاق وكانت هى اول امرأة تحصل على هذا الوسام .

وفى ١٢ اغسطس عام ١٩١٠ ماتت فلورنس ناتينجيل .. وجرت الاستعدادات لترتيب جنازة قومية كبرى من أجلها ولدفنها فى مقابر دير وستمنستر حيث يدفن عظماء بريطانيا ولكن وصيتها كانت صريحة وهى الا يكون هناك أى شكل من أشكال التكريم لها بعد موتها .. وتم دفنها فى مقبرة أسرتها بهامبشير وكان الطلب الأخير لها هو ان يحمل نعشها ثلاثة من جنود الجيش البريطانى وتحققت لها هذه الرغبة الآخيرة .. وهكذا ، انتهت حياة « المرأة ذات المصباح » وهى الحياة التى كرستها لمحاربة الآلم وتضميد الجراح التى تصاب بها الإنسانية من جراء الحروب والمعارك والصراعات.

* * *

١٤

اليزابيث الأولى ..

رجل الدولـة المحنك !!

انحياز التاريخ للأقوياء يعكس حتمية استمرار الحياة .. لأن هؤلاء الذين ينتصرون على المحن والأزمات يخرجون منها وهم أكثر قدرة على الدفاع عن الحياة ودفع عجلة التقدم والحضارة نحو ذلك الأفق النورانى الجديد بالإنسانية .. ولقد كان هذا بالتحديد هو جوهر حياة الملكة بريطانيا التى انتقلت من السجن الى العرش .. الى الخلود .

ولدت اليزابيث الأولى فى القصر الملكى بجرينتش يوم ٧ سبتمبر ١٥٣٣ وتولت العرش يوم ١٤ يناير ١٥٥٩ .

ووالدها هو الملك هنرى الثامن وأمها آن بولين الزوجة الثانية لهذا الملك الذى دخل فى صراع مرير مع بابا روما وانشق على الكنيسة الكاثوليكية بسبب تعدد زيجاته .

ومنذ ولادتها لم تجد اليزابيث ترحابا أو قبولا خاصة من جانب والدها الذى كان يرغب فى انجاب طفل ذكر ليخلفه على العرش البريطانى ويحفظ اسم اسرة تيودور من الاندثار وكانت آن بولين قد اجهضت فى ولد قبل ان تلد اليزابيث فغضب الملك هنرى غضبا شديدا وحملها مسئولية الاخفاق فى انجاب وريث للعرش،وتحول غضب الملك هنرى الثامن على زوجته آن بولين الى كراهية شديدة انتهت باعدامها . وقد أعلن الملك هنرى ان اليزابيث ابنه غير شرعية وتعامل على هذا الأساس مما جعلها

تفتقد حنان الأب والأم وتقضى سنوات طفولتها مع الخدم والمربيات . ورغم ذلك كانت الطفلة اليزابيث بالغة الذكاء فأخذت تنهل من بحور العلم والثقافة وأجادت اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والايطالية الى جانب الانجليزية .

وفى عام ١٥٤٧ توفى هنرى الثامن وخلفه على العرش ادوارد السادس ابنه من زوجته الثالثة . ولم يكن عمره يتجاوز ١٠ سنوات بينما كان عمر اليزابيث فى ذلك الحين ١٤ عاما . ولقد ظل ادوارد على عرش بريطانيا لمدة ٦ سنوات ثم خلفته اخته الكبرى مارى وهى ابنة هنرى الثامن من زوجته الأولى كاترين أوف اراجون . ولقد تفجر الصراع بين الاختين مارى واليزابيث حيث اتهمت الملكة مارى اختها اليزابيث بالتآمر مع البروتستانت للاطاحة بها من على العرش لأنها كاثوليكية المذهب . ولقد كانت الملكة تدرك أن أختها عنيدة فأمرت بالقبض عليها ووضعها فى السجن . وبعد وساطات عديدة وافقت على اطلاق سراحها بشرط أن توافق اليزابيث على الزواج من دون سافوى .

وكان هدف مارى واضحا وهو تزويج اختها من احد انصارها حتى تضمن انها لن تتحرك ضدها مستقبلا ولكن رد اليزابيث كان حاسما فقد اعلنت انها تفضل السجن على الزواج بالاكراه . وفى عام ١٥٥٨ توفيت الملكة مارى وأصبح من حق اليزابيث أن تتولى العرش البريطانى رغم وصية الملك هنرى بألا يحدث ذلك واعتبارها ابنة غير شرعية ، ولم يكن هناك مفر من تولى اليزابيث للعرش لأنها كانت هى آخر ورثة أسرة تيودور الذين يحق لهم تولى الحكم .

وعندما تم تتويج اليزابيث ملكة فى عام ١٥٥٩ كان عمرها حوالى ٢٥ عاما .. ورغم ذلك فقد كانت لديها خبرات هائلة اكتسبتها خلال فترة سجنها وتعاملها مع الساسة ونبلاء البلاط ، ولقد وصفت المراجع التاريخية اليزابيث الأولى بأنها كانت اشبه برجل دولة محنك . وبدأ حكم اليزابيث باصلاح الاحوال الاقتصادية لبريطانيا فتم تخفيض نفقات البلاط والحكومة وعملت على انشاء اسطول بحرى قوى مما دعم سلطتها كملكة قوية لدولة قوية .

ونتيجة لطبيعة العناد وحب السيطرة لدى اليزابيث الأولى دخلت فى معارك عديدة مع البرلمان . وكانت أكبر هذه المعارك هى تلك التى تفجرت عندما طالبها اعضاء البرلمان بضرورة الزواج حتى تنجب وريثا للعرش وحتى لا ينتقل الحكم الى ابنة خالتها مارى ملكة سكوتلندا التى كانت كاثوليكية المذهب .

ولقد كان موقف اليزابيث غريبا من الزواج ، فقد رفضت أن تتزوج رغم ان ملوك أوروبا كانوا يتهافتون على طلب يدها وكان من بينهم ملك السويد وملك اسبانيا .

ولا يعرف أحد حتى الآن السبب الذى جعل اليزابيث تتخذ هذا الموقف ضد الزواج وربما كانت تجربة امها آن بولين مع والدها هنرى الثامن ماثلة فى اذهانها وتشكل عقبة نفسية امام فكرة ارتباطها بأى

رجل معتقدة أن مصيرها ربما يكون هو المقصلة كما حدث مع أمها .

وربما كانت شخصية اليزابيث الأولى ترفض فكرة أن يسيطر أحد عليها حتى ولو كان زوجها وهذا التفسير منطقى فى ضوء عشق اليزابيث للسلطة والسيطرة والنفوذ لدرجة انها كانت لا تتحدث الى احد من وزرائها الا وهو راكع عند قدميها .

وقد ثارت مشكلة ذات يوم عندما صفعت احد النبلاء على وجهه امام الحاشية واحس هذا النبيل باهانة شديدة فابتعد عن البلاط وقال : انه مستعد للعمل فى خدمة صاحبة الجلالة ولكنه ليس مستعدا لأن يكون عبدا لها .

وهناك دلائل عديدة تشير الى ان اليزابيث الأولى احبت رجلا واحدا هو ايرل اوف ليشستر ولكنه كان متزوجا ، وعندما ماتت زوجته ترددت شائعات بأنه هو الذى قتلها حتى يتزوج من الملكة فخافت اليزابيث أن تتهم بالمشاركة فى هذه الجريمة ولم تتزوج منه .

ولقد احاطت اليزابيث نفسها بالمعجبين والمنافقين ايضا وكانت تتحول الى إمرأة حقيقية لدى سماعها لكلمات الاطراء والاشادة بجمالها .

كما كانت مغرمة بالمجوهرات والملابس الغالية ويقال انها كانت تمتلك ٣ آلاف فستان وكميات هائلة من الحلى والجواهر كما كانت تهوى الصيد والرقص وتعتنى بجمالها بشكل مبالغ فيه وتستخدم الشعر المستعار « الباروكة » .

ولقد كان نهج الملكة اليزابيث فى الحكم هو الحل الوسط خاصة أنها كانت تتولى السلطة فى ظروف حرجة يتصارع فيها الكاثوليك والبرتستانت والمتطرفون الدينيون المعروفون بالبيوريتان . وكان الكاثوليك يطالبون بأحقية مارى ملكة اسكوتلندا الكاثوليكية فى تولى عرش انجلترا .

ورغم ذلك فقد كانت اليزابيث حاسمة بل وعنيدة فى المواقف التى تتطلب القوة والحسم ومثال على ذلك خلافها مع بابا روما الذى قرر حرمانها من الكنيسة فى عام ١٥٧٠ .

فعندما تولت اليزابيث الأولى العرش ، أرسلت الى بابا روما تبلغه بأنها اصبحت ملكة على بريطانيا وانفجر غضب البابا لانها لم تبلغه من قبل وواتتها الجرأة على تولى العرش دون اذنه المسبق وردت اليزابيث على ذلك بأن تحدت البابا واطلقت على نفسها لقب « راس الكنيسة » واختارت شعارا لها على العملة البريطانية هو « على الله توكلت » ومضت فى خلافها مع البابا الى النهاية .

ولقد اثبتت الملكة اليزابيث الأولى قدرة هائلة على مواجهة المواقف الصعبة .. فقد لاحظت ان المبشرين والوعاظ الدينيين يثيرون البلبله بين الناس ويعملون على تعميق الخلافات المذهبية من خلال التفسيرات والأراء الدخيلة التى يقحمونها على جوهر الاديان فاعلنت انها لا تكره شيئا قدر

كراهيتها للوعظ والوعاظ واصدرت مرسوما ملكيا بالا يمارس أى شخص الوعظ أو الدعوة الدينية قبل ان يحصل على ترخيص رسمى بذلك . وقالت اليزابيث فى ذلك الحين ان المملكة البريطانية بأسرها لا تحتاج لأكثر من اثنين أو ثلاثة من الوعاظ .

وحول علاقة الملكة اليزابيث الأولى بشعبها ترددت الكثير من الروايات التاريخية التى وصلت الى درجة التناقض .

فقد قيل انها كانت رحيمة بالناس لانها انتقلت من السجن الى العرش وفى نفس الوقت تردد أنها كانت قاسية حيث أعدمت المئات بتهمة الخيانة العظمى وعلقت رءوسهم لأيام على جسر لندن الشهير حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر .

ويقول كتاب تاريخ الشعب الانجليزى : ان اليزابيث لم تكن تعرف الحذر او ضبط النفس وانها كانت تنطلق معبرة عن مشاعرها دون حرص او روية لدرجة انها كانت تبدى اعجابها بالشباب ذوى الملامح الجميلة وتغازل حبيبها لورد ليشستر أمام حاشيتها دون خجل .

ورغم ذلك ، فليس هناك شك فى أن العصر الاليزابيثى كان من أزهى العصور فى التاريخ البريطانى فتحت حكمها تحولت بريطانيا من دولة من الدرجة الثانية الى قوة أوروبية وعالمية من الطراز الأول وانتصر الأسطول البريطانى على الأسطول الأسبانى الشهير « الأرمادا » فى موقعة بحرية عام ١٥٨٨ بفضل اهتمامها الكبير بدعم القوة البحرية لبريطانيا باعتبارها المدخل الرئيسى لعالم الدول الكبرى فى ذلك الحين .

ولقد كان تأثير اليزابيث على عصرها هائلا خاصة فيما يتعلق بازدهار الفنون والآداب وكان من نتاج هذا العصر الشاعر الانجليزى الكبير وليم شيكسبير لا غيره من عظماء الأدب والفكر والفلسفة فى كل العصور من أمثال سير فيليب سيدنى وكريستوفر مارلو وفرنسيس بيكون وادموند سبنسر وغيرهم .

ومن الحقائق التاريخية الثابتة ان اليزابيث الأولى كانت مغرمة بالثقافة والآداب لذلك شجعت الشعراء والمبدعين فى كل المجالات واهتمت بالفنون التشكيلية وحثت الرسامين على الابداع ولكنها عندما رأت الصور التى رسموها لها بعد ان تقدم بها العمر أصيبت بالفزع والانزعاج لأن الرسامين لم يظهروها بدرجة الجمال التى كانت تنشدها فهرعت الى المرآة واكتشفت بنفسها الحقيقة المرة التى كانت تحاول الهروب منها فقضت السنوات الأخيرة من حياتها وهى ترفض النظر فى المرآة .

ولقد قدم لاليزابيث الأولى فى عام ١٥٦٠ أول جورب نسائى من الحرير صنع فى بريطانيا وفى عهدها دخل الدخان « الطباق » الى بريطانيا لأول مرة على يد الرحالة سير والتر رالى الذى راهن الملكة على أنه يستطيع ان يعرف وزن الدخان الذى يتصاعد اثناء عملية التدخين . وقبلت الملكة

الرهان وقام السير والتر رالى بوزن الطباق قبل التدخين ثم جمع الرماد المتخلف بعد التدخين وكان الفرق بين الوزنين هو وزن الدخان وبذلك كسب الرهان .

وفى عهد اليزابيث الأولى أيضا أتم سير فرانسيس دريك رحلته حول الأرض وارتبطت بريطانيا لأول مرة بعلاقات دبلوماسية رسمية مع روسيا وتركيا حيث أرسلت اليزابيث سفيرين انجليزيين الى هاتين الدولتين .

ولقد ظل موقف اليزابيث الرافض للزواج ثابتا حتى النهاية فلم تتزوج قط رغم الضغوط التى تعرضت لها ورغم ادراكها ان عدم انجابها وريثا للعرش سيعنى انتقال العرش البريطانى من أسرة تيودور الى اسرة سيتوارت . ولقد حدث ذلك بالفعل وخلف اليزابيث على العرش الملك جيمس السادس ملك اسكتولنده وابن عدوتها الملكة مارى الاسكوتلندية .

ففى شهر مارس عام ١٦٠٣ اصيبت اليزابيث بالحمى ولفظت انفاسها الاخيرة وهى فى التاسعة والستين من عمرها بعد ان قضت ٤٥ سنة على العرش وبموتها انقضى عهد اسرة تيودور فى حكم بريطانيا .

لقد كان عصر الملكة اليزابيث الأولى بحق هو عصر الشجاعة والعبقرية فى بريطانيا . ولقد أثبتت هذه المرأة القوية ان ما يتردد عن عجز المرأة وضعفها الطبيعى هو مجرد أسطورة بلا أساس .

ويرغم كل السلبيات التى ترددت عن حكم اليزابيث إلا أن دعمها للثقافة وتشجيعها للعلوم ومساندتها للابداع ستظل الى الابد علامات مضيئة تشير للاجيال الى « العصر الاليزابيثى » .. عصر الشجاعة والعبقرية .

١٥

دليلـــة ..

الحقيقة والاسطـورة

فى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، تمكن الفلسطينيون وهم السكان الأصليون فى أرض فلسطين من الحاق هزيمة كبرى بعصابات اليهود التى كانت تحاول الاستيلاء على أراضيهم .. واستعبد الفلسطينيون اليهود قرابة ٤٠ عاما .. وظل اليهود على هذا الوضع دون أن يغير ذلك من رغبتهم الدفينة فى القضاء على الفلسطينيين والاستيلاء على أراضيهم .

والقصة الشهيرة التى تتردد فى كتب التاريخ والأساطير حول شمشون ودليلة ، هى خير مثال على طبيعة هذا الصراع القديم بين الفلسطينيين اصحاب الأرض والأطماع اليهودية التى لم تتوقف حتى يومنا هذا .. وربما يكون من المفيد الاشارة الى هذه القصة كما وردت فى دائرة المعارف اليهودية « الطبعة الانجليزية ص ٧٧١ » ..

ووفقا لهذه الرواية التى تستند الى التوراة والتلمود فان دليلة كانت امرأة فلسطينية من غزة ارتبطت بعلاقة مع شمشون ثم تسببت فى القضاء عليه .. ولم يكن من الغريب ان تصف الادبيات اليهودية دليلة بأنها امرأة خائنة وفاسقة رغم ان مراجعة الدور الذى قامت به دليلة فى ضوء تطورات الصراع الفلسطينى الصهيونى قد تغير كل الأحكام السابقة التى أصدرها المؤرخون لادانتها وربما ايضا تجعل منها أول امرأة تشارك بفعالية فى هذا الصراع .

والقصة تبدأ بأحد قضاة اليهود وكان يدعى « منوح » كانت زوجته عاقرا فشلت فى الانجاب بعد عشرات السنين من الزواج ولأسباب مجهولة ظهر ملاك لهذه المرأة اليهودية وأبلغها بأنها ستلد طفلا وان طفلها سيكون نذرا للرب . وامتنعت المرأة على الفور عن تناول النبيذ أو أية اطعمه غير ظاهرة حتى لا تدنس حملها .

وعندما وضعت الطفل أطلقت عليه اسم « شمشون » وهو اسم مشتق من كلمة « شمش » بالعبرية وتعنى الشمس ، ونذرت الام إلا تقص شعر رأس الطفل مدى الحياة .

وتقول دائرة المعارف اليهودية أن الملاك أبلغ الأم بأن شمشون سيقف الى جانب بنى اسرائيل ضد الفلسطينيين وبأنه سيكون خارق القوة .

ورغم ان الأدبيات الصهيونية تحاول استغلال اسطورة أو قصة شمشون للتعبير عن كراهيتها الشديدة للفلسطينيين الا أن ما ذكرته عن صراعات شمشون ضد الفلسطينيين يؤكد ان الفلسطينيين هم أصحاب أرض فلسطين ويعد اعترافا من الصهاينة بأن الفلسطينيين عاشوا على هذه الأرض قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين .

وتمضى قصة شمشون لتحكى عن القوة الاسطورية التى كان يتمتع بها . وتقول انه ارتبط فى حياته بثلاث نساء فلسطينيات وكانت الأولى فتاة من منطقة تمنه أحبها شمشون وطلب من والديه تزويجه منها ولكن عنصرية الوالدين جعلتها يرفضان زواج ابنهما من فلسطينية .

وألح شمشون على والديه وتمسك بهذه الفتاة فوافقا فى النهاية كارهين وذهبا معه الى تمنه التى تسمى اليوم تمنه جنوب غربى بيت شمس .

وقبل أن يدخل شمشون الى القرية هاجمه أسد فانقض عليه شمشون وقتله .. وبعد فترة عاد الى موقع هذه المعركة فشاهد سربا من النحل يتجمع على جثة الأسد ويشيد فيها خلية يسيل منها العسل .

واثناء حفل زفاف شمشون أخذ يتسامر مع بعض الشبان الفلسطينيين فراهنهم على ان يقول لهم لغزا اذا عرفوا تفسيره خلال الايام السبعة الأولى التى يستغرقها العرس أعطاهم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة من الثياب وان عجزوا أعطوه هم نفس الرهان .

وقال شمشون اللغز وهو : « من الأكل خرج مأكول ومن الشرس خرجت حلاوة » .. وعجز الشبان الفلسطينيون عن حل اللغز وطلبوا مساعدة عروس شمشون باعتبارهم فلسطينية مثلهم لتعرف منه الحل وتبلغهم به .

وتمضى القصة اليهودية فتقول ان عروس شمشون الفسطينية بذلت كل جهدها حتى عرفت منه حل اللغز ، وهو خلية النحل التى شاهدها فى جثة الأسد .

وفى اليوم السابع اجاب الفسطينيون على لغز شمشون فعرف ان عروسه أفشت سره لقومها من الفلسطينيين واتهمها بالخيانة وقتل ٣٠ فلسطينيا من الشبان الذين كانوا يتسامرون معه ثم هجر عروسه وعاد الى عسقلان !!

هكذا ، حتى السمر واللهو يتحول بفضل العنصرية الى قتل ودماء .. ويقتل شمشون ٣٠ فلسطينيا لسبب بسيط هو أنهم عرفوا حل اللغز عن طريق عروسه !!

ولا يتوقف الامر عند ذلك ، فبعد فترة يحاول شمشون العودة لزوجته الفلسطينية ولكنه يعلم أنها تزوجت من شخص آخر بعد أن تركها فيقرر الانتقام !!

تمضى القصة اليهودية فتقول ان شمشون قيد ٣٠٠ من الثعالب فى أزواج من ذيولها ثم أشعل فيها النار وأطلقها فى حقول الفلسطنيين ليدمرها ثم يتوجه الى بيت عروسه السابقه فيقتل جميع افراد اسرتها !!

وتجمع الفلسطينيون على شمشون وتمكنوا من أسره وتقييده بالحبال ولكنه يمزق هذه الحبال ويقتل ١٠٠٠ فلسطينى بفك حمار ميت !!

هكذا دائما كان ، وما زال وسيظل مفهوم البطولة لدى اليهود هو سفك الدماء خاصة اذا كانت دماء عربية أو فلسطينية .

وتقول دائرة المعارف اليهودية : أن شمشون ارتبط بعد ذلك بعلاقة مع فلسطينية أخرى من غزة ولكنه ابتعد عنها بعد أن شك فى ان الفلسطينيين يدبرون خطة للقضاء عليه أثناء خروجه من منزلها .

أما ثالث امرأة فلسطينية فى حياة شمشون فكانت هى دليلة .. ودليلة هذه كانت تعيش فى منطقة تدعى وادى سوريك ، وكانت رائعة الجمال فأصبح شمشون لا يستطيع الابتعاد عنها .

ووفقا للقصص والأساطير اليهودية فإن الفلسطينيين كانوا يرغبون فى معرفة سر قوة شمشون بن منوح ، فطلبوا من دليلة عمل المستحيل لمعرفة هذا السر وبذلت دليلة ثلاث محاولات لاغراء شمشون بالكشف لها عن سر قوته ولكنه كان يرفض فى كل مرة .. واخيرا نجحت فى أن تعرف منه هذا السر ..

قال شمشون لدليلة : أن قوته تكمن فى شعره الذى نذرت أمه للرب إلا تقصه له طوال حياته .

وبعد أن نام شمشون قامت دليلة بقص ضفائره السبع وهجم عليه الفلسطينيون بعد أن فقد قوته وأمسكوا به حتى ينتقموا منه .. وأصيب شمشون بالعمى نتيجة للتعذيب والأسر لدى الفلسطينيين ..

وذات يوم تجمع الآلاف من الفلسطينيين داخل المعبد للاحتفال باحد اعيادهم الدينية وأحضروا شمشون لاهانته والسخرية منه خلال هذا الاحتفال .. خلال هذه الفترة كان شعر شمشون قد نما مرة أخرى واستعاد قوته دون أن يعرف احد .. وطلب شمشون من الشخص الذى يقوده أن يرشده الى أعمدة المعبد وقام بتلاوة صلاة يهودية استعدادا للانتقام ودفع أعمدة المعبد بيديه القويتين مطلقا صرخته الشهيرة « على وعلى أعدائى » وهدم المعبد على رءوس الجميع ومات هو أيضا مع ثلاثة آلاف من الفلسطينيين .

ان قصة أو أسطورة شمشون ودليلة تحتوى بلا شك على الكثير من المبالغات .. ورغم ان المبالغة

سمة أساسية فى الأساطير بوجه عام الا أن المبالغات فى هذه الأسطورة بالتحديد ليست عفوية أو عشوائية بل هى بالغة الخبث والدهاء .

فاليهود دائما يروجون لاكذوبة ان « الرب » كان معهم مهما ارتكبوا من جرائم ومهما تخضبت أيديهم بدماء الأبرياء .. وهم يطرحون فكرة السوبرمان أو « البطل الخارق » الذى لا يقهر سواء كان هذا « البطل » هو شمشون الذى يحرق الحقول ويقتل اسرة زوجته ويهدم المعبد على رءوس ٣ آلاف فلسطينى ، أو كان هو أريل شارون الجنرال الاسرائيلى السفاح الذى يقتل الاطفال العرب والفلسطينيين ويحرق مخيمات اللاجئين العزل .

خيط طويل متصل منذ آلاف السنين ومؤامرة تاريخية بدأت قبل الميلاد بآلاف السنين ولا يعرف أحد متى ستنتهى !

أما بالنسبة لدليلة ، تلك المرأة الفلسطينية التى شاركت قومها فى مواجهة شمشون عدو الفلسطينيين ، فربما تكون دليلا آخر على تزييف التاريخ واخضاع احداثه لوجهات نظر غير موضوعية تخدم أهدافها شريرة وخبيثة القصد .

ان معظم كتب التاريخ والأعمال الأدبية والفنية التى تناولت شخصية دليلة تشير اليها دائما باعتبارها المرأة الخائنة التى استخدمت جمالها لاغراء شمشون اليهودى على ان يبوح لها بسره . ورغم ان التوراه ذاتها لم تحدد جنسية دليلة الا ان الادبيات اليهودية والصهيونية تؤكد دائما انها كانت فلسطينية .

والكتب اليهودية تصف دليلة بانها كانت « عاهرة » وتدينها بكل قوة فى نفس الوقت الذى تقدس فيه شخصية شمشون وتدفعه الى مرتبة النبوة دون أن يؤثر فى ذلك عشقه للعاهرات ، دون أن تتعارض « قداسته » المزعومه مع مجونه ولهوه وعلاقاته النسائية الآثمة !

ومع قبول الرأى القائل بأن دليلة كانت فلسطينية فإن وقوفها مع قومها الفلسطينيين فى مواجهة عدوهم الجبار شمشون كان عملا وطنيا ولا يمكن أن يعد خيانة لانه ببساطة يتفق مع انتمائها وهويتها الفلسطينية .

ورغم ذلك ، فإن سيطرة المؤرخين اليهود والصهيانية على الفكر والتراث الانسانى فى العالم أدت الى قلب الحقائق ومطالبة دليلة بأن تكون مخلصة لشمشون اليهودى وبأن تخون قومها وكأنها تحاول الزعم بأن كل خيانة مقبولة ما عدا خيانة اليهود وان خدمة اليهود والولاء لهم واجب على كل انسان حتى لو تعارض مع وطنيته ومهما تناقض مع انتمائه الطبيعى .

والسؤال الآن هو : هل كانت دليلة حقا ضحية من ضحايا التاريخ ؟

الاجابة : بالطبع ، ليست سهلة لأن هناك آلافا من السنين مرت وفى كل يوم منها كان العالم يقرأ ويسمع الروايات اليهودية التى تدينها بكل قوة وتطلب من الجميع أن يلعنوها .

وربما يكون الأمل الوحيد لدليلة هو اعادة النظر فى الكثير من القصص والروايات التاريخية التى يعتبرها العالم الآن من المسلمات التى لا تقبل المناقشة .

وهذه الخطوة مطلوبة بالحاح ليس فقط من أجل الدفاع عن دليلة التى ربما كانت هى أول فدائية فى الصراع الفلسطينى اليهودى ، بل أيضا من أجل تنقية الفكر والتراث الأنسانى من كل الأكاذيب والأساطير الخبيثة التى لا تستهدف فحسب تشويه تاريخ الأنسان وانما تسعى بمكر ودهاء للتحكم فى حاضره مستقبل أيضا .

* * *

١٦

مدام تـــوسو ..

عاشقة الجمال والإبداع

مدام توسو ، التى يحمل متحف الشمع الشهير فى لندن اسمها ، حتى الآن ، فهى امرأة دخلت التاريخ لسبب بسيط هو انها قررت أن تكرس كل حياتها من أجل خدمة التاريخ .

اسمها الحقيقى آن مارى جروشولتز . ولدت فى سويسرا عام ١٧٦١ . ومنذ طفولتها عرف عنها الذكاء والقدرة على عمل تماثيل من شمع النحل حيث تعلمت هذا الفن على يد عمها الدكتور فيليب كيرتيوس الذى كان خبيرا فى هذا المجال . ولقد كانت السمة المميزة لتماثيل الشمع التى ابدعتها الفتاة آن مارى هى الحيوية الشديدة وقربها الواضح من الأصل ليس من ناحية الملامح فحسب بل أيضا من حيث الشخصية وخصائصها النفسية .

بدأت آن مارى فى صنع أول تمثال متكامل وهى فى سن السابعة عشرة وكان تمثالا لأديب فرنسا العظيم فولتير .. وبعد فترة قصيرة ذاعت شهرتها وأصبحت من أقرب أصدقاء الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا وزوجته مارى انطوانيت .

ولقد دفعت آن مارى ثمنا باهظا لهذه الصداقة خاصة بعد سقوط لويس السادس عشر عن العرش ، ففى عام ١٧٨٩ كانت فى باريس عندما قامت الثورة الفرنسية واقتحمت الجماهير سجن الباستيل الرهيب وتم اطلاق سراح جميع المسجونين . وبعد ذلك توجه الثوار الى القصور الملكية الفرنسية واقتحموا قصر التويلرى وشهدت فرنسا حمامات دم لم يسبق لها مثيل لافراد طبقة النبلاء وأنصار الملكية . وعندما تصاعدت هذه المذابح وأصبحت المقصلة رمزا لهذه الفترة التى أطلق عليها « عصر الأرهاب » حدثت موجة هروب واسعة النطاق لافراد الأسرة المالكة والنبلاء وكل من ارتبط اسمه بهم . وقد رفضت آن مارى الهروب كغيرها وقررت البقاء رغم أن الجميع كانوا يتوقعون أن تساق الى المقصلة كغيرها ممن ارتبطوا بالعهد الملكى .

وبالفعل تم اعتقال آن مارى جروشولتز انتظار لتنفيذ حكم الاعدام فيها بين لحظة وأخرى ولكن موهبتها الفنية هى التى انقذتها من هذا المصير المروع . فقد رأى الثوار ان هذه الموهبة يمكن الاستفادة منها فى خدمة الثورة .

كان قادة الثورة الفرنسية يحرصون على عرض رءوس انصار الملكية التى تطيح بها المقصلة فى الاماكن العامة . وفكر هؤلاء القادة فى عمل نماذج لهذه الرءوس حتى تعرض فى كل مدن فرنسا وهنا كانت تكمن مهمة آن مارى جروشولتز . وبينما كانت آن مارى تنتظر مصيرها المؤلم فى سجن لافورس بعد ان حلقوا لها شعرها استعدادا لأعدامها بالمقصلة . توجه اليها وفد من الثوار وأبلغوها بالمهمة التى ستكلف بها . وطلبوا منها عمل تماثيل لرأس الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى أنطوانيت لعرضهما على الجماهير فى مدن فرنسا الآخرى تأكيدا لانتصار الثورة .

ووقفت آن مارى أمام رأسى صديقيها لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت وأخذت فى عمل التمثالين بأصابع مرتجفة ودموع لا تتوقف . ومازال هذان التمثالان حتى الآن فى متحف مدام توسو بلندن .

واستمرت آن مارى تصنع التماثيل لرءوس أعز أصدقائها من النبلاء الفرنسيين وأفراد البلاط وامتزج ألمها الشديد بموهبتها الفنية الأصيلة فابدعت نماذج اسطورية حاولت من خلالها أن تخلد ذكرى هؤلاء الاصدقاء وفى عام ١٧٩٤ ، مات مكسميليان دوروبسبير وهو ابرز قادة الثور الفرنسية والذى بدأ عصر الأرهاب وقضى خلاله على معظم خصومه السياسيين وبعد وفاة روبسبير ، وانتهاء عصر الأرهاب فى فرنسا ، اطلق سراح آن مارى جروشولتز فخرجت من السجن لتفاجأ بوفاة عمها وبأنها أصبحت مسئولة عن الديون التى تراكمت عليه .

وبدأت آن مارى على الفور تبذل كل جهدها للخروج من المحنة الرهيبة التى عاشتها فى سجنها من خلال اغراق نفسها فى العمل .

وفى عام ١٧٩٥ ، تزوجت آن مارى من مهندس يدعى فرانسوا توسو وأنجبت منه ولدين هما جوزيف وفرنسيس .

واستمر هذا الزواج لمدة ٧ سنوات انفصل الزوجان بعدها فى عام ١٨٠٢ ، وقررت مدام توسو أن تنقل بعض تماثيلها الى لندن وادنبره .

وفى الوقت الذى بدأت فيه مدام توسو تنطلق نحو تحقيق احلامها الفنية فى انجلترا تلقت صدمة قاسية أخرى . ففى عام ١٨٠٤ كانت فى طريقها إلى ايرلندا عن طريق البحر وتحطمت السفينة التى كانت تقلها وغرقت جميع تماثيلها التى كانت معها على ظهر السفينة وبذلك ضاع جهد سنوات من العمل والعرق والكدح .

وسيطر على مدام توسو احساس غريب بأن هناك قوة غامضة تدفع بها الى الفشل والعجز عن تحقيق أحلامها ولكنها لم تستسلم لهذه المشاعر المحبطة وقررت أن تبدأ من جديد فعكفت على العمل المستمر لمدة ٣ شهور متواصلة أبدعت خلالها مجموعة أخرى من التماثيل الرائعة وأقامت معرضا ناجحا فى ايرلندا .

ومرة أخرى ، منيت مدام توسو بصدمة جديدة ، فقد حاولت احضار التماثيل التى قامت بعملها فى باريس ولكنها علمت ان مستحيل لأن هذه التماثيل كان قد حجز عليها وفاء لديون زوجها السابق الذى كان يحتفظ بها فى منزله .

وفى عام ١٨١١ ، قررت مدام توسو ان تعيش فى انجلترا حيث بدأت الحياة تبتسم لها من جديد واقامت عددا كبيرا من المعارض الفنية فى مختلف المدن الانجليزية .

وفى النهاية استقرت مدام توسو فى لندن بشارع بيكر حيث ظلت تمارس عملها حتى تقاعدت عن العمل فى عام ١٨٤٢ وهى فى سن الحادى والثمانين ، وبعد ٨ سنوات من التقاعد أى فى عام ١٨٥٠ توفيت مدام « توسو » بعد مرض قصير وشيع جثمانها الى مثواه الأخير بكنيس سانت مارى فى العاصمة البريطانية .

لقد كان الانجاز الاكبر الذى سعت مدام توسو الى تحقيقه ونجحت فى ذلك الى حد بعيد هو تخليد تلك الشخصيات التاريخية التى لعبت ادوارا هامة فى تاريخ الإنسانية . ولذلك حرصت كل الحرص الحياد التام فى عملها ولم تتدخل بأية رتوش من عندها لابراز عيب معين او ميزة ما فى الشخصية التى تحاول تجسيدها .

ونتيجة لهذا المفهوم الملتزم يستطيع العالم الآن ان يشاهد فى متحف مدام توسو بلندن صورة طبق الأصل من ملامح ملوك وملكات أوروبا فى العصور الماضية والأكثر من ذلك أن مدام توسو حرصت

على أن تخلد روبسبير زعيم عصر الأرهاب فى فرنسا ، والذى سجنها ومثل بها حيث قامت بصنع تمثال له والغريب انها استطاعت أن تقاوم ذاتيتها وكراهيتها الشديدة لهذا الرجل الذى أعدم بعد ذلك بالمقصلة عندما بدأت الثورة الفرنسية تأكل ابنا ءها .

ومتحف الشمع او متحف مدام توسو فى لندن ما زال يعد من ابرز معالم العاصمة البريطانية حتى الآن ويتدفق عليه الزوار لألقاء نظرة على الماضى ومشاهدة ملامح تلك الشخصيات الشهيرة فى التاريخ وهى شخصيات لرجال ونساء وسياسيين ورياضيين وفنانين يجمع بينها جميعا خيط واحد وهو التأثير فى عصرها سواء بالسلب أو الأيجاب .

* * *

١٧

مدام كورى ..

روح الاصـــرار وعبقرية التحدى

امرأة جمعت شخصيتها بين العبقرية والاصرار والوفاء والانتماء الحقيقى للإنسانية .. امرأة ذرف التاريخ دمعه من اجلها يوم حرم البشر من نبوغها .. وافسح لها المكانة التى تستحقها بين العظماء والمبدعين .. انها مارى كورى أو مدام كورى ..

اسمها « مانيا سكلود وسكا » ولكنها بعد ان سافرت الى فرنسا وتزوجت من بيير كورى حملت اسمها الفرنسى الجديد وهو مارى كورى . ولدت فى ٧ نوفمبر ١٨٦٧ فى وارسو ، عاصمة بولندا الآن ، ومنذ طفولتها كانت تتميز بذكاء ملحوظ وذاكرة قوية .. وفى سن السادسة عشرة حصلت على ميدالية ذهبية لتفوقها فى شهادة البكالوريا من مدرسة الروسية كان والدها مدرسا للرياضيات وخسر أمواله فى استثمارات فاشلة فاضطرت مانيا الى العمل كمدرسة لتشارك فى نفقات تعليم اختها برونيا التى كانت تدرس الطب فى باريس .

وفى عام ١٨٨٩ ، توجهت مانيا أو مارى ، الى باريس لتلقى محاضرات فى جامع السوربون ..

لم تكن لديها أية امكانيات مادية ولكن اصرارها الشديد على التعلم جعلها تتحمل كل الصعوبات لدرجة انها كانت تكتفى بوجبة واحدة فى اليوم مكونة من الخبز والزبد والشاى .

وفي عام ١٨٩٣ التحقت بالعمل فى أحد معامل الأبحاث الفرنسيةوهو معمل « ليبمان » وهناك التقت ببيير كورى .. وحصلت مارى على شهادة فى العلوم الطبيعية وكان ترتيبها الأولى ثم حصلت على شهادة أخرى فى علم الرياضيات .

وفى ٢٥ يوليو ١٨٩٥ تزوجت من زميلها فى المعمل بيير كورى الذى بدأت معه رحلة كفاح أسطورية حققت للعالم والإنسانية منجزات لم يسبق لها مثيل .

وفى عام ١٨٩٧ ، انجبت ايرين ابنتها الاولى من زوجها بيير كورى الذى لا يمكن الحديث عن اية مرحلة من مراحل حياة مارى دون الاشارة اليه فعلاقتهما لم تكن مجرد علاقة زوجية بل كانت نوعا من المشاركة الكاملة فى كل شئ وكان بالنسبة لها هو الزوج والزميل والأخ ورفيق الكفاح .

وقد ولد بيير كورى فى باريس فى ١٥ مايو ١٨٥٩ وكان والده طبيبا . وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمرة ظهر واضحا اهتمامه الكبير بعلم الرياضيات والهندسة بوجه خاص .. وعندما بلغ السادسة عشرة التحق بجامعة السوربون وحصل منها على بكالوريوس العلوم .. وفى عام ١٨٧٨ أصبح مساعدا للمعمل فى نفس الجامعة وحقق أول انجازاته العلمية عندما قام بقياس طول الموجه فى الموجات الحرارية وفسر ظاهرة الكهربية الحرارى التى توصل اليها العالم « لورد كيفلن » وهى ظهور شحنات كهربية عند تسخين المادة ، وارجع بيير كورى ذلك الى حدوث تغيير فى حجم البللورات عند تسخينها .

ومضى فى ابحاثة حتى اكتشف انبعاث شحنات كهربية عند تعريض المواد للضغط المرتفع والعكس بالعكس أى تغيير ضغط وحجم بعض البللورات عند تعرضها لمجالات كهربية .

وفى عام ١٨٨٢ أصبح بيير كورى مديرا لمدرسة الفيزياء والكيمياء الصناعية فى باريس وواصل ابحاثة فى المغناطيسية وفى عام ١٨٩٢ حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم عن رسالته فى هذا المجال .

ونعود مرة أخرى الى كورى ، التى لم تمنعها ظروفها كأم وزوجة لعالم من أن تواصل أبحاثها العلمية فبدأت بعد انجاب ابنتها « ايرين » مباشرة فى البحث عن موضوع لرسالة الدكتوراه . وأخذت تتابع احدث الاكتشافات العلمية فى مجال الفيزياء ولفت نظرها بوجه خاص الاكتشاف الذى توصل اليه العالم « هنرى بكيوريل » فى عام ١٨٩٦ حول ظاهرة « الانبعاث التلقائى » أى انبعاث اشعاعات تشبه أشعة اكس من حبيبات اليورانيوم بشكل طبيعى .. وثبت ان الغازات التى تتعرض

لهذه الاشعاعات تصدر أجساما مشحونة كهربيا .

وقررت ماري أن تبحث فيما اذا كانت هذه الظاهرة تحدث في اليورانيوم فقط ام انها تتكرر في مواد اخرى أيضا . وبدأت ابحاثا مضنية وبالغة الخطورة تعرضت خلالها للمواد النووية المشعة وتوصلت في النهاية الى ان نفس الظاهرة تحدث مع عنصر « الثوريوم » ايضا .

وخلال ابحاث ماري كوري ، لاحظت ان مادة اكسيد اليورانيوم تصدر اشعاعات اكثر من اليورانيوم النقي وفسرت ذلك النشاط الزائد على انه يرجع الى وجود مادة اخرى غير معروفة مختلطة بخام اليورانيوم . وركزت جهودها على محاولة الحصول على العناصر النقية للمواد وسط ظروف بدائية وصعبة وامكانيات محدودة للغاية .

وانضم اليها زوجها بيير كوري في هذه المرحلة من الابحاث التي اكتشف خلالها انبعاث ثلاثة انواع مختلفة من الاشعاعات من عنصر اليورانيوم .. وهذه الاشعاعات اولها يحمل شحنة كهربية موجبة والثاني شحنة سالبة والثالث متعادل وقد وصف العالم روزرفورد هذه الاشعاعات بعد ذلك بأنها اشعة الفا وبيتا وجاما .

وكانت ماري كوري وزوجها بيير هما اول من استخدم مصطلح النشاط الاشعاعي في عام ١٨٩٨ بالنسبة لعنصر الثوريوم وقالا ان هذا النشاط الاشعاعي هو الذي يحدد كمية اشعاعات الفا وبيتا وجاما التي تصدر من العنصر المشع .

وتوصل الزوجان كوري الى وسيلة لقياس النشاط الاشعاعي للمواد ثم حققا واحدا من اكبر المنجزات العلمية عندما اكتشفا عنصرين جديدين هما البولوتيوم والراديوم .. وقد اطلقت ماري كوري اسم البولوتيوم على العنصر الأول تكريما لبلادها بولندا أو بولونيا بالفرنسية .

لم تكن ماري كوري مجرد شخصية علمية تهتم بالجانب العلمي البحت لأبحاثها بل كانت مخلوقا انسانيا على أعلى مستوى من الرقي العاطفي والوجداني وكانت ترى ان القيمة الوحيدة للعلم هي ان يكون في خدمة الإنسان وأن هذه هي الفلسفة الحقيقية للعلم .. لهذا السبب كان اهتمامها البالغ ببحث أثر الراديوم وغيرها من العناصر المشعة على أعضاء جسم الإنسان وامكانية استخدام خواص الاشعاع النووي في علاج الأمراض وكانت هذه هي الخطوة الأولى في أحد أهم فروع العلم بالنسبة للإنسان وهو الطب النووي الذي يعد الآن هو الأمل الوحيد للكثيرين من ضحايا الامراض الخطيرة التي عجز الطب التقليدي عن مواجهتها .

وفي بداية القرن الحالي ، عرضت جامعة جنيف على بيير كوري ان يعمل استاذا بها ولكنه رفض حتى يواصل ابحاثه ورسالته السامية مع زوجته .. وفي عام ١٩٠٤ أصبح بيير كوري استاذا في

جامعة السوربون تقديرا لأبحاثه ومكانته العلمية .. وكانت ماري كوري قد عينت في عام ١٩٠٠ كمعلمة كيمياء في مدرسة للبنات حيث ابتكرت وسيلة جديدة لتدريس مادة العلوم على أساس التجارب العملية التي يشاهدها الطلاب ويجربوها بأنفسهم .

وفي عام ١٩٠٣ حصلت ماري كوري وزوجها بيير على جائزة نوبل في الفيزياء تقديرا لاكتشافاتهما في مجال النشاط الاشعاعي والعناصر المشعة .. وفي نفس العام حصلت ماري على درجة الدكتوراه في العلوم وفازت مع زوجها بميدالية الجمعية الملكية للعلوم في لندن .

ولقد كان اشد ما يؤرق ماري وبيير كوري هو ان يتحول العلم الى اداة تدمير في ايدي اعداء الإنسانية .. كانا يدركان جيدا ان العلم مارد أسطوري يستطيع ان يفعل الكثير وان قوة هذا المارد يجب ان تستغل في خدمة البشرية ، ولكن نفس هذه القوة يمكن ان يستغلها البعض لتدمير الانسان والقضاء على امنه وسلامته .. وربما لا تكون قيمة هذا الموقف واضحة بالنسبة لنا في الوقت الراهن بعد ان عرف الجميع الكثير من التفاصيل حول الرعب النووي ومدى الدمار الذي يمكن ان تحدثه قنبلة ذرية واحدة .

اما في بداية هذا القرن فلم يكن معظم البشر يدركون خطورة العلم اذا استخدم كسلاح للموت وكأداة ضد الحياة .. وهكذا ، كانت ماري وبيير كوري هما اول صوت يحذر العالم من خطورة الأسلحة النووية وهو الصوت الذي ما زال يتردد في كل مكان رغم مرور أكثر من ٨٠ عاما على تلك الكلمة التي القاها بيير كوري عند تسلمه جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠٣ .

فقد قال : « انني أشعر بقلق شديد من امكانية وقوع أسرار النشاط الاشعاعي في « ايدي مجرمة » لان ذلك سيكون بمثابة كابوس تعاني منه الإنسانية .. ولقد طالب بيير كوري في كلمته بأن يستفيد الإنسان من سلاح العلم من أجل خدمة الحياة والتخفيف من معاناة الإنسانية .

ولكن ، بكل أسف ، كان بيير كوري مجرد « صوت يصرخ في البرية » ولم يستمع اليه أحد بدليل ما يعيشه العلم الآن من هلع بسبب تلك الأسلحة الرهيبة التي استغل العلم من أجل ابتكارها وتهديد الحياة على الأرض بها .

وفي عام ١٩٠٤ ، انجبت ماري كوري ابنتها الثانية « ايفا » ، وفي نفس العام عينت رئيسة للمساعدين الفنيين في المعمل الذي كان يديره زوجها .. وقدمت له كل العون وشاركته في التجارب التي كان يجريها بروح التعاون والحب والرغبة في خدمة الإنسانية .

لم تشعر ماري كوري في أية لحظة بأنها يجب ان تنفصل بأبحاثها عن ابحاث زوجها بل كانت دائما تضع نصب عينها انهما يقومان معا بمهمة سامية .. ولم تتردد في تعريض نفسها للمواد المشعة أثناء

اجراء التجارب وهى أول من يعلم خطورة التعرض لهذه المواد .. وفى عام ١٩٠٥ رشح بيير كورى لعضوية أكاديمية العلوم الفرنسية وهى أكبر هيئة علمية فى فرنسا ولها مكانتها البارزة فى جميع انحاء العالم .. ولكن بيير كورى مات فجأة عندما دهمته سيارة نقل فى باريس ولفظ انفاسه على الفور فى يوم ١٩ ابريل ١٩٠٦ .

لم تترك مارى كورى الحزن يحطم حلمها وحلم زوجها الراحل وعقدت العزم على اكمال الرسالة .. ورغم ان وفاة بيير كورى كانت صدمة لها الا انها ايضا كانت نقطة تحول فى حياتها العلمية والعملية .. فقد كرست مارى كل جهدها وطاقتها من أجل استكمال الأبحاث التى كانت قد بدأتها مع زوجها .. وفى ١٣ مايو ١٩٠٦ عينت فى منصب الاستاذية بجامعة السوربون وهو نفس المنصب الذى كان يشغله زوجها .. وبذلك أصبحت مارى كورى هى أول امرأة تقوم بالتدريس فى جامعة السوربون الفرنسية العريقة من مقعد الاستاذية .

وفى عام ١٩١٠ نشرت اعظم ابحاثها العلمية عن النشاط الاشعاعى وتوصلت الى الحصول على الراديوم النقى فى حالته المعدنية الصلبة لأول مرة وكان ذلك بمساعدة عالم الكيمياء الفرنسى « اندريس لويس ديبرين » .. وفى عام ١٩١١ حصلت على جائزة نوبل فى الكيمياء على اكتشافها للراديوم والبولونيوم وعزل الراديوم النقى .

وخلال الحرب العالمية الأولى قامت مارى كورى بمساعدة ابنتها ايرين فى اجراء ابحاث حول استخدام اشعة اكس فى مجال التشخيص الطبى وخاصة استخدام هذه الاشعة فى علاج الجنود المصابين فى الحرب .. وتم افتتاح معهد الراديوم فى باريس عام ١٩١٨ تحت اشراف مارى كورى وأصبح مركزا كبيرا لابحاث الفيزياء والكيمياء الطبية الفرنسية عام ١٩٢٢ وكرست كل ابحاثها بعد ذلك لدراسة التطبيقات الطبية للاشعاع النووى وعلاج الامراض بالمواد المشعة .

وقامت بزيارة لامريكا حيث قدم لها الرئيس الامريكى هاردنج جراما من اليوارنيوم تبرعت النساء الامريكيات لشرائه وتقديمه لها لتجرى عليه ابحاثها .. واصبحت مارى كورى عضوا باللجنة الدولية للتعاون الفكرى التى كانت تابعة لعصبة الأمم وكانت مارى سعيدة بتطور مؤسسة كورى للأبحاث النووية فى باريس وافتتاح معهد « ماريا سكلود وشكا » للراديوم فى عاصمة بلادها وارسو تكريما لها .. وقد أصبحت شقيقتها برونيا مديرة لهذا المعهد .. ولم يشغل النشاط العلمى مارى كورى عن قضية المرأة التى كانت تناضل فى ذلك الحين من أجل انتزاع حقوقها فى مختلف انحاء العالم .

وهكذا ، طالبت مارى كورى بمنح المرأة الفرنسية حق التصويت فى الانتخابات .. وكانت تردد فى كل مكان ان المرأة لم تحتل بعد المكانة التى تستحقها فى المجتمع .

وكانت المكانة العلمية المرموقة التى وصلت اليها مارى كورى هى الدليل الأكيد على ان المرأة

تستطيع ان تحقق الكثير اذا توافرت لديها الارادة واختارت لنفسها مهمة إنسانية سامية تكرس لها كل حياتها بعيدا عن قيود الذاتية والكثير من القضايا التافهة التى ما زالت تشغل تفكير عدد كبير من النساء حتى الآن .. ولقد بلغ اخلاص مارى كورى لرسالتها حد التضحية بحياتها .. فرغم ان الأطباء طلبوا منها الابتعاد عن المعمل بسبب تدهور حالتها الصحية الا انها رفضت ذلك وظلت تقوم بأبحاثها حتى توفيت بمرض سرطان الدم « اللوكيميا » نتيجة لتعرضها لاشعاعات نووية قاتلة اثناء التجارب .

ولقد كانت مارى كورى حريصة على الا تنتهى رسالتها بانتهاء حياتها .. فأعدت ابنتها ايرين كورى لتكمل هذه الرسالة .. وقامت الابنة بهذه المهمة على خير وجه .. وحققت انتصارات كبيرة فى كل مجال عملت فيه امها لدرجة ان حياة ومنجزات ايرين كورى اصبحت لا تقل أهمية عن حياة ومنجزات امها مارى ..

وسوف يكون حديثنا فى فصل آخر عن هذه الابنة المعجزة التى لم تسمح لراية العلم بأن تسقط بعد وفاة والدها ووالدتها .

* * *

١٨

جوزفين دى بوارنييه ..
تاج الحب
وعرش الامبراطورية

مارى جوزيف تاشير دى لابا جرى المعروفة تاريخيا باسم جوزفين شخصية مليودرامية بمعنى الكلمة اذا جاز لنا أن نستعير هذا اللفظ المسرحى للتعبير عن العديد من جوانب حياتها . وهى « بطل درامى » بكل ما يحمله هذا اللفظ من معان أبرزها أن المرء لا يملك سوى التعاطف معها بصرف النظر عن تحفظه على بعض مواقفها وسلوكياتها التى تؤدى بها فى النهاية الى الكارثة .

وجوزفين .. هى زوجة نابليون بونابرت أو نابليون الأول امبراطور فرنسا خلال الفترة من ١٨٠٤ وحتى ١٨١٥ .. وقد تزوجها نابليون فى عام ١٧٩٦ .. قبل ثمانى سنوات من

تتويجه امبراطورا وظلت زوجة له حتى عام ١٨٠٩ ..

ورغم ان جوزفين ظلت تحمل لقب امبراطوره حتى بعد طلاقها من نابليون الا ان ملامح شخصيتها لم تكن لتوحى على الاطلاق بأنها ولدت لتكون امبراطورة .

فقد ولدت جوزفين فى عام ١٧٦٣ أى قبل ٢٦ عاما من قيام الثورة الفرنسية وقضت السنوات الأولى من عمرها فى جزر الهند الغربية حيث كانت تعيش مع عمها وحيث ارتبطت بالطبيعة ارتباطا عضويا انعكس فى الكثير من صفاتها مثل الصدق والاخلاص والعاطفة الجياشة والاندفاع فى بعض الأحيان .

وفى مرحلة الصبا والشباب اتقنت جوزفين الكثير من الفنون فكانت بارعة فى الموسيقى والرسم والرقص وتميزت شخصيتها بالانطلاق والمرح والرقة ..

كانت جوزفين جميلة الملامح ذات تقاطيع اغريقية وكانت أيضا تتسم بذكاء متوقد وجاذبية ملحوظة وقدرة على اكتساب مشاعر المحيطين بها .. وفى نفس الوقت كانت صريحة .. واثقة من نفسها متمسكة بقرارها مهما اختلف معها الآخرون .

لذلك لم يكن من الغريب أن تتزوج قبل أن تبلغ العشرين من عمرها وكان زواجها من أحد النبلاء الفرنسيين قبل الثورة .. وهو الفيكونت دى بوارنبيه الذى حملت اسمه وأنجبت منه ولدا وبنتا هما أيوجين وهورتنسى .

وعندما قامت الثورة الفرنسية بدأت حمامات الدم ضد أفراد الطبقة النبيلة فى فرنسا واعدم الفيكونت دى بوارنبيه بالمقصلة أما زوجته جوزفين فقد سجنت لفترة حتى هدأت عاصفة الأرهاب وتدخل أحد الأصدقاء من كبار رجال الثورة لاطلاق سراحها حتى ذلك الحين ، كانت حياة جوزفين نموذجا لما حدث للآلاف من أفراد طبقة النبلاء الفرنسيين فى ذلك العصر .. وبعد ذلك تعرف عليها الجنرال نابليون الذى كان نجمه قد بدأ فى الصعود ولفتت انتباهه بشخصيتها المتميزة فتقدم لخطبتها .

ورغم أن الكثيرين من اصدقاء جوزفين حذروها من الزواج من هذا الجنرال الذى كان سيئ الطبع الا ان جوزفين قبلته بسبب بسيط هو انها أحبته حبا جما وكان هذا وحده سببا كافيا لكى تتجاهل كل التحذيرات وتندفع فى علاقتها معه الى آخر المدى ..

وفى عام ١٨٠٤ ، تم تتويج نابليون امبراطورا لفرنسا وتوجت جوزفين امبراطورة أيضا رغم أنها اعترفت بانها لم تحلم فى يوم من الأيام بأن تكون امبراطورة وكان أقصى مناها أن تعيش مع الرجل الذى احبته فى جزر الهند الغربية التى قضت فيها فترة صباها ..

كانت جوزفين ذات حس انسانى مرهف انعكس فى علاقتها الحميمة بخدمها ووصيفاتها فكانت

تعاملهم جميعا بكل رقة وعطف واحسان .. ومنذ البداية كان لها موقف من النبلاء وحاشية البلاط الامبراطوري الذين كانوا يحاولون احياء الملكية الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر بكل ما كانت تمثله من فساد الطبقة الارستقراطية .

وعجزت جوزفين عن ادراك خطورة أفراد الحاشية على استقرار حياتها سواء كزوجة أو كامبراطورة .. وقد ازدادت كراهية النبلاء لهذا عندما رأوا بانفسهم مدى حرص الامبراطور عليها وحبه لها وأحسوا أنها تشكل خطرا على نفوذهم لدى الامبراطور خاصة بعد أن وصفها نابليون نفسه بأنها مستشاره الأول الذي يثق كل الثقة في آرائه .

ولقد كانت جوزفين امرأة تعشق الاناقة لدرجة الجنون وقيل انها كانت ترتدي الثوب لمرة واحدة وبعد ذلك تعطيه لوصيفاتها حتى أصبحت التجارة في ملابسها المستعمله عملية مربحة لبعض التجار اليهود في فرنسا الذين كانوا يشترون هذه الثياب من الوصيفات والخادمات ثم يقومون بعد ذلك ببيعها لسيدات الطبقة الارستقراطية الفرنسية .

وكانت جوزفين تهوى أيضا الحلي والمجوهرات كما كانت تتمتع بذوق بارع في اختيار ملابسها وقطع الاكسسوار الملائمة لها مما كان يزيدها جمالا على جمال .. وقد ادى ذلك بالطبع ، الى اثارة مشاعر الغيرة لدى كل نساء البلاط الامبراطوري منها وخاصة بين سيدات اسرة نابليون مثل والدته واخته بولين .

ولقد وصفت جوزفين بأنها ابنة الثورة الفرنسية لأنها كانت تؤمن بالكثير من افكارها ومبادئها مثل العدل والمساواة وجعل ذلك نبلاء البلاط يتهمونها بأنها صديقة الرعاع .

كل هذه العناصر شاركت في تشكيل جبهة معادية لجوزفين في البلاط الامبراطوري ولكن أفراد هذه الجبهة كانوا عاجزين عن القيام بأي عمل ضدها بسبب ادراكهم لمدى حب الامبراطور لها .. وبسبب ادراك جوزفين أيضا لهذه الحقيقة ، تمادت في تحديها للمنافقين المحيطين بنابليون وكانت دائما تحذره منهم وتؤكد لاصدقائها انها لو تركت زوجها لهؤلاء المنافقين لأودوا به الى الهلاك .. وكلما حذرها أحد من المبالغة في التحدي كانت ترد عليه بقولها : إن اخلاصها المطلق لزوجها الامبراطور هو الدرع الذي سيحميها من أية مؤامرة تدبر ضدها .

وعندما كانت تشعر بالقلق من المكائد التي تحاك ضدها كانت تعبر لنابليون عن مخاوفها وكان يقول لها : « اطمئني يا عزيزتي فالويل كل الويل لمن يحاول الوقيعة بيني وبينك » ..

وكان نابليون يدرك حب الشعب الفرنسي لها درجة جعلته يقول : « انني أكسب البلاد والاراضي وجوزفين تكسب القلوب والأفئدة » .

ورغم ذلك كانت مشاعر القلق قوية فى اعماق نفس جوزفين ، وان لم تصرح بذلك على الاطلاق .. فقد كانت تدرك أن علاقتها بزوجها ستظل فى مهب الريح لانها لم تنجب له ابنا برغم مرور سنوات على زواجها منه وكانت على ثقة من ان هذه النقطة هى المقتل الذى سيحاول خصومها ضربها فيه للقضاء على مكانتها لدى الامبراطور .

وبالفعل ، بدأت الحرب ضد جوزفين عندما سافر نابليون الى مصر على رأس الحملة الفرنسية واشتركت اسرة نابليون فى هذه الحرب عندما طالبته والدته واخوته بالزواج مرة أخرى من احدى نبيلات اوروبا حتى ينجب وريثا للعرش من دمه ..

وكان نابليون قد اعرب عن رغبته فى ان يتولى اوجين دوبوارنيه ابن جوزفين من زوجها الأول عرش الامبراطورية من بعده فأثار ذلك قلق اسرة نابليون .. وتدخل فوشيه وزير داخلية فرنسا فى ذلك الحين لاقناع نابليون بضرورة تطليق جوزفين والزواج من أخرى لانجاب ولى للعهد .. واثناء وجود نابليون فى مصر وصلته الكثير من الوشايات التى تطعن جوزفين فى شرفها وتتهمها بخيانة زوجها .

ونتيجة لتزايد الضغوط على نابليون من كل اتجاه خضع فى النهاية وقرر تطليق جوزفين رغم انه حرص على أن تظل تحمل لقب امبراطورة وخصص لها قصرا رائعا لتقيم فيه وكان اكثر ما يحز فى نفس جوزفين هو احساسها بالظلم فقد اخلصت لزوجها واحبته ولكنها تلقت جزاء ذلك تخليه عنها وتطليقه لها ..

حدث الطلاق فى عام ١٨٠٩ ، وفى يوم اعلان الطلاق رسميا بكى نابليون وبكت جوزفين خاصة مع ادراكهما ان قرار الطلاق مفروض عليهما معا .

ورغم ان نابليون تزوج بعد ذلك من ماريا لويزا الا انه ظل على حبه لجوزفين التى لم تستطع ايضا ان تكرهه واستمرت تدافع عنه وتؤكد لنفسها قبل الآخرين انه اضطر لتطليقها لاعتبارات سياسية وان الأمر لو كان بيده لما انفصل عنها ابدا .

ولقد اصدر نابليون أوامره بأن تلقى جوزفين كل تكريم حتى بعد ان طلقها وظل يلتقى بها ويذهب اليها فى كل وقت يشعر فيه انه بحاجة لرأى صادق ومشورة مجردة عن الهوى وعندما انجبت الزوجة الجديدة ماريا لويزا ابنا لنابليون لم تشعر جوزفين بالحقد على غريمتها بل ابتهجت لأن امل الامبراطور قد تحقق وانجب طفلا من صلبه وأصبح له وريث يتولى العرش من بعده .

وكان من مفارقات القدر ألا يتولى هذا الابن عرش أبيه وأن يكون وريث نابليون هو حفيد جوزفين من ابنتها هورتنسى التى انجبتها من زوجها الأول .

ولقد اندفع نابليون فى مغامراته العسكرية وبدأ حملته المشئومة ضد روسيا والتى كانت بداية بالنسبة له .. وانتهت مغامرات نابليون العسكرية بهزيمته المروعة فى معركته« واترلو » الشهيرة عام ١٨١٥ .. وتخلى الجميع عن نابليون بعد هزيمته وكان فى مقدمة هؤلاء زوجته الثانية مارى لويزا التى أخذت ابنها ورحلت بعيدا عن الامبراطور المهزوم .. الذى نفى الى جزيرة سانت هيلانه حيث تردد انه أصيب بالجنون ، اما جوزفين ، فقد ماتت فى هدوء عام ١٨١٤ وكانت رغبتها الأخيرة ، التى لم تتحقق ، هى ان ترى نابليون الرجل الذى احبته والذى عجزت عن أن تكرهه أو تحقد عليه برغم تخليه عنها .

وبموت جوزفين أغلقت صفحتها فى كتاب التاريخ وتحولت تلك المرأة العاشقة الى « شخصية درامية » فريدة قامت بدورها بكل نجاح على مسرح الحياة فاكتسبت اعجاب الكثيرين ودموعهم أيضا .

* * *

١٩

أنا بافلوفا ..

أغنية البجعة
وانشودة الخلود

صفحات قليلة جدا فى كتاب التاريخ تلك التى خصصت للمرأة الفنانة .. والسبب فى ذلك ربما يرجع الى ندرة من مارسن الفن كرسالة سامية ووسيلة أخلاقية لتهذيب المشاعر والرقى بالفكر الإنسانى .

ومن هؤلاء كان أناباقلوفا أعظم راقصة بالية فى كل العصور والتى كانت حياتها مشهدا اسطوريا من بالية سحرى تنطلق فيه روحها من أسر الجسد الرقيق لتحلق فى أجواء نورانية على أنغام أروع السيمفونيات والمقطوعات الموسيقية الكلاسيكية ..

اسمها بالكامل أناباقلوفنا باقلوفا . من أصل بولندى ولكنها ولدت فى مدينة سانت بطرسبرج « لينجراد حاليا » فى روسيا .

هناك خلاف بين المؤرخين حول تاريخ ميلادها ولكن أقرب التقديرات تشير الى أنها ولدت فى ٣١ يناير عام ١٨٨٢ .

ليس هناك شك فى ان الظروف التى عاشتها انا بافلوفا فى طفولتها قد ساعدتها على تنمية مواهبها الاسطورية فى فن الرقص الكلاسيكى .

فقد انشأ قيصر روسيا فى ذلك الحين العديد من المدارس لتعليم مختلف الفنون وكان الالتحاق بهذه المدارس يتم بعد اجتياز اختبارات صعبة .

ورغم أن والدة أنا بافلوفا كانت فقيرة وبرغم وفاة والدها وهى لم تتجاوز الثانية من عمرها الا أن موهبتها الطبيعية اتاحت لها الالتحاق بمدرسة البالية الملكية التابعة لمسرح مارينسكى وهو المعروف الآن بمسرح كيروف . وكان التحاق آنا بافلوفا بمدرسة البالية فى سانت بطرسبرج فى عام ١٨٩١ وعمرها ٩ سنوات فقط . وكان المدرسون والمدربون فى هذه المدرسة من كبار راقصى وراقصات البالية فى ذلك الحين وقد تخرجت آنا بافلوفا فى عام ١٨٩٩ وبزغ نجمها بسرعة حتى أصبحت هى راقصة البالية الأولى « بريما باليرينا » فى عام ١٩٠٦ واشتهرت بادائها المعجز فى بالية « جيزيل » بالتحديد . وفى عام ١٩٠٧ قامت مع فرقة البالية التى تعمل بها بجولة فى اوروبا رقصت خلالها فى ستوكهولم وكوبنهاجن وبرلين وباريس ولندن .

وكان الطابع المميز لاداء آنا بافلوفا هو بذل كل جهد ممكن لاظهار جماليات هذا الفن - البالية .

وذاع صيتها كأعظم راقصة بالية فى العالم فقد تلقت عدة دعوات للرقص فى نيويورك وغيرها من المدن الامريكية حيث بهرت عشاق هذا الفن بخطواتها الحالمة وكانت تبدو بالفعل كفراشة أسطورية أو كروح هائمة تنطلق عبر حواجز الزمان والمكان .

وأحست آنا بافلوفا ان ارتباطها بفرقة البالية الملكية الروسية يقيد رغبتها فى الانطلاق وممارسة فنها فى كل مكان من العالم فتركت الفرقة فى عام ١٩١٣ .

وبدأت آنا ترقص مع العديد من فرق البالية العالمية وقال النقاد : ان خطواتها على المسرح هى شكل جديد من اشكال الشعر وأن أنغام الاوركسترا تخترق جسدها الرقيق وتمتزج به لتقدم نمطا ساحرا ومزيدا من الفن الذى يثرى الوجدان ويحرك فى النفس اسمى المعانى وانبل المشاعر .

وتزوجت آنا من راقص الباليه الشهير الفنان فيكتور داندرى وقدما معا اروع الباليهات مثل دون كيشوت وجيزيل وبحيرة البجع وغيرها وكانت المشاهد التى تؤديها آنا بافلوفا وحدها « صولو » على المسرح من اعظم المشاهد فى تاريخ فن البالية لدرجة ان بعض المشاهدين كانت تنهمر دموعهم نتيجة لهذا الاداء المعبر واستجابة لكل ما كان يوحى به اداء آنا بافلوفا من تدفق المشاعر . وفى عام ١٩١٨ قدمت آنا بافلوفا بالية « أوراق الخريف » الذى ابدعت فيه كما لم تفعل من قبل واستطاعت ان تنقل للمتفرجين كل ما يوحى به مشهد سقوط ورق الشجر فى هذا الفصل الرمادى من فصول العام .

لقد كانت آنا بافلوفا تتميز بحس انسانى بالغ الرقة ولذلك انشأت فرقة بالية خاصة بها وقدمت

رقصات من تراث كل الشعوب من بولندا وروسيا والمكسيك . وعندما زارت الهند واليابان درست فنون الرقص هناك بعمق وقدمت من وحيها مشاهد راقصة بعنوان « انطباعات شرقية » وتقول دائرة المعارف البريطانية : ان اهتمام آنا بافلوفا بدراسة فن الرقص الهندى قد ساعد على احياء هذا الفن ونهضته .

ولقد كانت آنا بافلوفا هى المسئولة عن جميع شئون فرقتها من حيث الادارة والتمويل الى جانب الاداء الفنى وكانت هذه الاعباء اثقل من أن تتحملها .

ورغم ذلك ، استمرت آنا بافلوفا تؤدى رسالتها التى وهبت لها حياتها كلها . ولم تنجب آنا اطفالا حيث ضحت بغريزة الامومة لديها من أجل فنها وكانت تعوض هذه الغريزة برعاية الاطفال اليتامى فى روسيا وبمحاولة اغراق نداء الامومة داخلها فى بحر الفن الذى عشقته . وفى عام ١٩٢٠ انشأت آنا بافلوفا احد الملاجئ فى باريس لرعاية الأطفال الروس اليتامى وكانت تغدق على هذا المركز برغم الظروف المالية الصعبة التى كانت تمر بها .

وكانت بافلوفا أيضا مغرمة للغاية بالطيور والحيوانات الأليفة . واشتهر بيتها فى منطقة هاميستد بانجلترا ببحيرة البجع الخرافية التى اقامتها فى حديقته والتى كانت تحفة حقيقية استلهمتها من البالية الشهير « بحيرة البجع » ولقد تم تصوير آنا بافلوفا فى فيلم رائع بجوار هذه البحيرة فى منزلها وهى تؤدى مشهد « موت البجعة » أداء فرديا مذهلا . وما زال هذا الفيلم موجودا حتى الآن مع مجموعة من رقصاتها الصولو الفردية التى صورت وجمعت فى فيلم واحد بعنوان « البجعة الخالدة » وقد صورت معظم لقطات هذا الفيلم فى هوليوود عام ١٩٢٤ تحت اشراف الممثل الشهير دوجلاس فيربانكس .

ورغم بدء تقدم آنا بافلوفا فى السن الى الحد الذى لابد ان يعرقل اداءها كراقصة بالية الا أنها ظلت حتى آخر حياتها تبدع فى اداء المشاهد الفردية على خشبة المسرح .

ومن الحقائق المعروفة أن البجعة تشدو بأحلى الأصوات قبل موتها مباشرة ويطلق على هذه الاصوات الرائعة التى تودع بها البجعة العالم اسم الاغنية الأخيرة .

وكان هذا هو بالتحديد ما حدث مع آنا بافلوفا . ففى عام ١٩٣٠أصيبت بداء الرئة ولكنها أصرت على ألا تتوقف عن رقص البالية وظلت تمارس هذا الفن حتى آخر رمق من حياتها . والغريب ان موهبتها الفنية التهبت وتألقت فى أيامها الأخيرة وكأنها بجعة حقيقية تودع العالم الوداع الآخير .

وكان هذا الوداع فى لاهاى بهولندا حيث ماتت آنا بافلوفا يوم ٢٣ يناير عام ١٩٣١ ليتحول حبها للفن الى اسطورة خالدة تتناقلها الأجيال .

٢٠

ماري ملكة اسكتلندا ..

الحذر لا يمكن أبدا
أن يمنــع القــدر !

ماري ستيوارت ملكة اسكتلندا نموذج مأساوي للإنسان عندما تعانده الأقدار ويرافقه الحظ وكأنه لعنة غامضة ارتبطت بكل لحظة من لحظات حياته .. فمنذ البداية ، كان من الواضح انها لن تعيش حياة طبيعية كبقية البشر لدرجة ان اليزابيث الأولى ملكة بريطانيا وصفتها بأنها « ابنة الجدل والخلاف » .. ورغم مرور حوالى أربعة قرون على وفاتها الا أن المؤرخين مازالوا مختلفين على تقييم شخصيتها ومازال الجدل محتدما حولها حتى الآن .

ولدت ماري ستيوارت في ٨ ديسمبر عام ١٥٤٢ وكانت هى الطفلة الوحيدة للملك جيمس الخامس ملك اسكتلندا من زوجته الفرنسية ماري دى جايز .. وبعد ستة أيام من مولدها مات أبوها وحاول جدها الملك هنرى الثامن ملك انجلترا ، ان يسيطر عليها وعلى عرش اسكتلندا ولكن أمها ارسلت بها الى فرنسا عندما بلغت الخامسة حيث تربعت في بلاط الملك هنرى السابع وزوجته الملكة كاترين دى ميدتشي .. وساعدتها اسرة « جايز » التى تنتمى اليها أمها على ان تنمو في احسن ظروف ممكنة .

كانت طفولة ماري ستيوارت في فرنسا رائعة .. فكانت تمارس الصيد والرقص وتعلمت اللغات اللاتينية والايطالية والاسبانية واليونانية الى جانب الانجليزية والفرنسية .. ونتيجة لهذه التربية أصبحت ماري أقرب لفتاة فرنسية منها الاسكتلندية . .

كانت جميلة الملامح طويلة القامة ذات شعر ذهبي وعينين في لون العنبر تعشق الموسيقى والشعر .. لذلك كان من الطبيعى أن تخطب لفرانسيس الثانى الابن الأكبر لهنرى السابع وكاترين دى مديتشي وهى لم تتجاوز العاشرة من عمرها . وتم زواجها بفرانسيس في شهر ابريل عام ١٥٥٨ .

ورغم ان هذا الزواج كان يرمى الى تحقيق هدف سياسى هو توحيد فرنسا واسكتلندا الا ان ماري اخلصت في حبها لزوجها الذى أصبح بعد ذلك ملكا لفرنسا .

وفى نوفمبر ١٥٥٨ تولت اليزابيث الأولى عرش انجلترا وكان معنى ذلك أن ماري ستيوارت قد

اقترب دورها لتولى عرش انجلترا بعد اليزابيث مباشرة وذلك وفقا للترتيب الشرعى من خلال قرابتها للأسرة الانجليزية الحاكمة .

والأكثر من ذلك أن الكاثوليك فى انجلترا كانوا يعتبرون اليزابيث ملكة غير شرعية ويرون ان مارى أحق بالعرش الانجليزى والسبب فى ذلك أن هؤلاء الكاثوليك لم يعترفوا بزواج الملك هنرى الثامن من آن بولين أم اليزابيث وبالتالى فليس من حقها وراثة العرش .

وفى نفس الوقت ، قال الكاثوليك أن طلاق هنرى الثامن من زوجته الأولى كاترين داراجون ، جدة مارى لأمها ، لا يعتد به وباطل ولذلك فالعرش من حق مارى .

وهكذا ، استند هنرى السابع ملك فرنسا ووالد زوج مارى على هذا الموقف وادعى أن عرش انجلترا من حق زوجة ابنه وانه يجب أن يحكم انجلترا ايضا باسمها .. وفى عام ١٥٥٩ مات هنرى السابع وتولى عرش فرنسا من بعده ابنه فرانسيس الثانى زوج مارى التى أصبحت ملكة فرنسا ولكن فرانسيس الثانى مات فى عام ١٥٦٠ بعد عام من توليه عرش فرنسا وأصبحت مارى أرملة وهى فى الثامنة عشرة من عمرها .

وفى أغسطس ١٥٦١ عادت مارى الى اسكتلندا واكتشفت أن الملكة اليزابيث تكن لها عداء مريرا باعتبارها احدى المطالبات بعرش انجلترا .. وقد رفضت اليزابيث ان تعترف بمارى حتى كوريث للعرش .

ورغم أن مارى كانت كاثوليكية الا ان اسكتلندا كانت تدين بالمذهب البروتستانتى فتفجرت ضدها المعارضة وبدأ البروتستانت يتآمرون للقضاء عليها وكان فى مقدمة هؤلاء طبقة النبلاء الاسكتلندية التى حاول أفرادها اسقاط مارى من على عرش اسكتلندا .

ومما زاد فى كراهية الملكة اليزابيث لها أن ملوك أوروبا طلبوا الزواج من مارى مثل فيليب الثانى ملك اسبانيا وجوستاف ملك السويد والارشيدوق تشارل ابن امبراطور المانيا واصبحت اليزابيث لا تطيق مجرد سماع اسم مارى .. ولقد رفضت مارى الزواج من كل هؤلاء وتزوجت من ابن عمها « دارتلى » الذى احبته بشدة ولكنها اكتشفت بعد الزواج انه انسان بالغ المكر والدهاء وانه يتآمر ضدها مع خصومها من البروتستانت والنبلاء .

وبدأت العلاقة تفتر بين مارى ودارتلى .. وفى نفس الوقت وقعت مارى فى حب نبيل آخر هو جيمس هيبورن « ايريل بوتويل » وقيل أنها اتفقت معه على قتل زوجها الذى مات فى انفجار بمنزله فى ادنبره ..

وقد تزوجت مارى بعد ذلك من جيمس هيبورن وتصاعدت الحملة ضدها فاضطرت الى التنازل عن العرش فى ١٥٦٧ بعد ان تأكدت من ان استمرارها كملكة لاسكتلندا اصبح مستحيلا .. وبعد ان

تخلت ماری عن العرش انفض الجميع من حولها واتهمها خصومها بالقتل والانحلال الخلقی والتآمر والخيانة .

وانضم زوجها جيمس هيبورن « ايرل بوثول » الى اعدائها وقام بسجنها فی احدى القلاع تمهيدا لمحاكمتها .. ولكنها تمكنت من الهرب .

وحاولت ماری ان تثبت انها لم تقتل زوجها دارتلی وان قتلته هم النبلاء الذين حاولوا الصاق الجريمة بها ولكن احدا لم يستمع اليها .. وليس هناك شك فی ان سلوك ماری بعد وفاة دارتلی كان طائشا وساعد خصومها على اثبات الجريمة لانها تزوجت من الرجل الذی اتهموها بالتآمر معه لقتل زوجها .

ولقد وضع معارضو ماری على العرش ابنها جيمس الذی كان عمره فی ذلك الحين عاما واحدا ، واضطرت ماری للهروب الى خارج اسكتلندا وتوجهت الى انجلترا على امل ان تساعدها الملكة اليزابيث وتنسى الخلافات القديمة بينهما حول الأحقية في العرش .

ولكن ما حدث بعد ذلك كان هو عكس ما توقعته ماری تماما .. فقد استخدمت اليزابيث كل دهائها السياسی واستندت الى قضية موت دارتلی زوج ماری لكی تصدر أمرا باعتقالها لمدة ١٨ عاما دون ان يتحرك أحد لمساعدتها سواء شقيقها موارى الوصی على عرش اسكتلندا أو ابنها جيمس الذی اصبح ملكا لاسكتلندا بعد ذلك ..

وفی السجن ، تدهورت صحة ماری وذبل جمالها ، وقد وصلت الى مرحلة من اليأس الشديد بعد ان تقدمت بعشرات الالتماسات لاطلاق سراحها ولكنها قوبلت كلها بالرفض من جانب اليزابيث .

وفی نفس الوقت ، لم يتوقف الكاثوليك عن المطالبة بحق ماری فی عرش انجلترا رغم وجودها فی السجن ، وفی عام ١٥٨٦ اكتشفت الملكة اليزابيث مؤامرة لاغتيالها فی اطار محاولة كاثوليكية للاستيلاء على العرش .. وادركت اليزابيث ان ماری ستظل تشكل خطرا على عرشها حتى وهی فی داخل السجن ..

ورغم ان ماری كانت ملكة لدولة اجنبية هی اسكتلندا الا ان اليزابيث قدمتها للمحاكمة امام المحاكم الانجليزية بتهمة التآمر على العرش والخيانة .

وصدر الحكم باعدام ماری ستيوارت ولم يعترض ابنها جيمس ملك اسكتلندا لانه كان يطمع فی ان تقبله اليزابيث وريثا لعرش انجلترا فلم يشأ أن يغضبها ولم يبذل أية محاولة لانقاذ حياة امه التی لم يرها منذ كان طفلا رضيعا .

وطلبت ماری ان تدلی ببيان امام البرلمان الانجليزی تثبت به براءتها من التهم المنسوبة اليها ولكن طلبها قوبل بالرفض ايضا .

وقد تردد أن الملكة اليزابيث لم توقع على الحكم باعدام ماري ستيوارت وان بعض وزرائها قد زوروا هذا التوقيع ولكن الأحداث التاريخية التالية تؤكد ان اليزابيث لم تفعل أى شئ لاثبات براءتها من واقعة اعدام الملكة ماري .

وعندما ادركت ماري ان الحياة بالنسبة لها تعتبر فى حكم المنتهية استسلمت لقدرها وحاولت ان تكون شجاعة فى مواجهة الموت وتوقفت عن طلب العفو عنها أو اثبات براءتها وانتظرت فى صمت اليوم الموعود الذى ستوضع فيه نهاية لقصة حياتها المأساوية .

وفى صبيحة يوم ٨ فبراير ١٥٧٨ أبلغت ماري بأن موعد تنفيذ حكم الاعدام قد حل وان عليها ان تذهب الى الجلاد على قدميها .

وطلبت ماري من حراسها ان يسمحوا لها بارتداء اجمل ملابسها ولما ترددوا قالت لهم : انها كانت ملكة لاسكتلندا وزوجة لملك فرنسا وانها تنتمى للاسرة المالكة فى انجلترا وكل ذلك يعطيها الحق فى ان تواجه الجلاد كشخصية نبيلة يحيط بها التبجيل والاحترام .

وسمح لماري بارتداء ما تشاء من ثيابها وكانت آخر جملة قالتها وهى على المقصلة : « انني اشعر بالسعادة الآن لأن هذة الحياة التى عشتها سوف تنتهى أخيرا » .

ورفع الجلاد سيفه .. وهوى به على رقبتها ولكنه اخطأ فأصيبت ماري بجرح بالغ فى رأسها ولكنها لم تصرخ من الألم .. وكرر الجلاد المحاولة ولكن يبدو انه كان يشعر بالرهبة أمام هذه المرأة التى لم يرمش لها جفن وهى تصعد الى المقصلة واخطأ الجلاد محاولته الثانية ايضا وفى المرة الثالثة والأخيرة كانت نهاية الملكة ماري ستيوارت وبعدها ارتمى الجلاد على الأرض وكأنه لا يصدق انه أنجز هذه المهمة العسيرة .

وقد دفن جثمان ماري بعد ذلك فى دير وستمنستر وبعد أن تولى ابنها جيمس الأول عرش انجلترا وتحقق الحلم الذى كان يسعى اليه اقام نصبا تذكاريا رائعا لأمه وكأنه يحاول ان يكفر عن خطيئته فى حق أمه التى تخلى عنها وتركها وحدها . كما فعل الآخرون ، لتواجه حوالى ٢٠ عاما من السجن وبعد ذلك ينفذ فيها حكم الاعدام .

ومعظم المؤرخين ينظرون الى حياة الملكة ماري ستيوارت على أنها كانت نموذجا للمآسى التى يمكن ان يتعرض لها إنسان دون ذنب أو جريرة .. فقد اضطهدتها الملكة اليزابيث ملكة انجلترا بسبب خوفها على عرشها وتخلى عنها أقرب الناس اليها وهو ابنها جيمس الأول طمعا فى العرش وتآمر ضدها زوجها املا فى ان يصل الى السلطة وحاربها نبلاء اسكتلندا ليس فقط لانها تنتمى للمذهب الكاثوليكى بل أيضا لانهم استكثروا عليها ان تجلس على العرش وهى المرأة التى لا تجيد دهاء السياسيين ومكر رجال وسيدات البلاط .

ووسط كل ذلك ، كانت ماري ستيوارت تعتقد ان النية الحسنة تكفي وحدها لاحباط كل مؤمرات خصومها وكانت تؤمن بأن الإنسان لا يحتاج لأكثر من السير في الطريق حتى يأمن المؤمرات التي تحاك ضده .

والسؤال الآن هو .. هل ثبتت صحة هذه الفلسفة التي التزمت بها الملكة ماري ستيوارت طوال حياتها ؟ ولا يملك الاجابة على هذا السؤال سوى التاريخ وحده وهي موجودة بالفعل في تلك الصفحات الحزينة التي سطرها المؤرخون وسجلوا فيها مأساة ماري ملكة اسكتلندا .

* * *

٢١

بوديكيا ..

معادلة القوة .. والمقاومة

قبل مائة عام من ميلاد المسيح ، كان الأوروبيون يعيشون في ظلمات الجهل والتخلف وكانت بريطانيا بالتحديد عبارة عن مجموعة من القبائل المتفرقة التي تعبد الأوثان والاصنام وعلى رأس كل قبيلة ملك يخوض صراعات لا تنتهي مع ملوك القبائل الأخرى . وفي ذلك الحين ، كانت الامبراطورية الرومانية هي القوة المسيطرة على العالم شرقا وغربا ، وكان الجيش الروماني يتقدم في جميع الاتجاهات للسيطرة على المزيد من الأراضي وضمها الى ممتلكات امبراطور روما .

وفي عام ٤٣ قبل الميلاد بدأت قوات الامبراطورية الرومانية غزو الأراضي البريطانية ولكنها لم تستطع أن تحسم الموقف لصالحها الا بعد مرور سنوات بسبب المقاومة التي لقيتها هذه القوات من جانب بعض القبائل البريطانية ..

ولقد كانت الملكة بوديكيا هي احدى ملكات القبائل البريطانية في هذه الفترة ولعبت دورا تاريخيا بارزا في التصدي للرومان .. كانت بوديكيا زوجة لملك قبيلة الايسني بمنطقة نورفولك وكان ملكا ضعيف الشخصية فاتر الهمة .

ونظرا لأنه لم يكن لديه أولاد من البنين وخشى على زوجته وابنتيه من بطش الرومان فقد اتخذ قراره بالاستسلام للقوات الرومانية وقال لقومه : انه يفضل ان يقدم مملكته للرومان على أن يتركها لزوجته أو ابنتيه .

وبالفعل ارسل الى قادة الرومان معربا عن استعداده للتسليم دون قيد أو شرط وطلب فقط حمايته واسرته ولكن بمجرد ان وصلت القوات الرومانية الى اراضى قبيلة الايسنى استولى الرومان على جميع الممتلكات والأراضى واعتقلوا النبلاء والأغنياء وحولوهم الى عبيد يعملون فى خدمتهم وقاموا بتجنيد الرجال من أفراد القبيلة للخدمة العسكرية وفرضوا ضرائب باهظة لم يكن بوسع أحد أن يتحملها .

وفى عام ٦١ قبل الميلاد توفى زوج الملكة بوديكيا وتركها وحدها تواجه اهانات الرومان ولكن هذه المرأة كان لديها قدر هائل من الشموخ والاباء فتوجهت الى قائد الحامية الرومانية وقدمت له احتجاجا ـ باعتبارها وريثة لعرش زوجها ـ على الممارسات الرومانية التعسفية ضد شعبها وسخر منها القائد الرومانى وأصدر أوامره بضربها بالسياط وتعذيب ابنتيها وهنا أدركت ان اسلوب المهادنة لن يقنع بالتخلى عن طغيانهم وقررت ان تلجأ الى الأسلوب الوحيد الذى يفهمه الغزاه فى كل العصور وهو القوة ..

لقد كان عامة الشعب يخضون لأكثر من طاغية .. الامبراطور الرومانى وقائد حامية الاحتلال وضباط الجيش والجنود وحتى العبيد . الذين كانوا يعملون فى احقر المهام ، كانوا يمارسون القمع ضد الشعب ويعوضون مهانتهم باذلاله .

وبلغت الأمور حد اقتحام البيوت والاعتداء على الاعراض واختطاف الاطفال لتحويلهم الى عبيد وبدأت بوديكيا تجمع حولها عددا من أفراد الشعب وتشعل فيهم نيران الثورة ضد الغزاة المحتلين .

ورويدا رويدا ادرك الرومان ان هذه المرأة تشكل خطرا عليهم لانها لجأت الى السلاح الذى يعجز اى محتل عن مواجهته وهو تحريض الشعب على الثورة .

وطلب القائد الرومانى من جنوده اعتقال بوديكيا بأية وسيلة واندفع الجنود فى كل مكان يبحثون عنها ويعتقلون أى شخص يشكون مجرد شك فى انه من رجالها .

وقررت بوديكيا ان تتخذ لها قاعدة أخرى لتنظيم المقاومة بعيدا عن قبضة البطش الرومانية وانتقلت بالفعل الى ضواحى مدينة « كولتستر » التى كانت خاضعة للرومان ولكنها بلا حماية رومانية تدافع عنها ، وعملت بوديكيا المستحيل حتى تزود الشعب بالسلاح فهاجمت الدوريات الرومانية واستولت على اسلحة أفرادها حتى أصبح لديها فى النهاية جيش كبير ، وهنا قررت بوديكيا شن هجوم شامل على « كولشيستر » وتم هذا الهجوم اثناء الليل حيث اشعلت قواتها النار

فى الممتلكات الرومانية .. وسيطرت تماما على المدينة وقررت ان تعتبرها نقطة انطلاق لمطاردة القوات الرومانية .

وربما تتضح قيمة هذه العمليات فى ضوء القوة العسكرية الهائلة التى كانت تمتلكها الامبراطورية الرومانية فى ذلك الحين والاسلحة المتطورة بمقاييس ذلك العصر والتى كانت بحوزة الجيش الرومانى .. وفى مواجهة هذه القوة كانت هناك بوديكيا بجيشها الصغير المستميت فى القتال دفاعا عن ارضه .

وتوصف حركة الملكة بوديكيا فى المراجع التاريخية بانها كانت « ثورة حقيقية » خاصة انها أدت الى هز اركان الامبراطورية الرومانية .

لقد تجاهلت بوديكيا حقيقة انها امرأة ينظر اليها الآخرون على انها ضعيفة وغير قادرة على قيادة الجيوش أو خوض الحروب وبدأت تصعد هجماتها ضد القوات الرومانية اينما وجدت فقطعت طرق الامدادات واقتحمت القلاع والحصون الرومانية وقتلت كل الجنود الذين كانوا فيها .

وفى خضم الانتصارات التى حققتها بوديكيا ، قررت ان تتوجه بقواتها الى لندن حيث كانت توجد حامية رومانية صغيرة ارسل قائدها يستنجد ببولينوس القائد العام للجيش الرومانى الذى حرك قواته فى اتجاه لندن لانقاذها من السقوط فى ايدى قوات الثورة .

وقبل وصول هذه التعزيزات اقتحمت بوديكيا لندن ودمرت كل المواقع الرومانية داخلها واندفعت لتسيطر على مدن جنوب انجلترا بأسرها .

واحتشدت القوات الرومانية فى موقع استراتيجى بحيث تحمى أحدى الغابات جانبى ومؤخرة الجيش الرومانى الذى بادر بمهاجمة قوات بوديكيا بشراسة ..

ورغم الفارق الهائل بين عدد جنود الجيشين الا أن قوات الملكة بوديكيا تمكنت من الصمود وقاتلت بشرف حتى آخر رجل وانتصر الرومان انتصارا ساحقا أسفر عن أبادة جيش الملكة البريطانية .

وبعد هذه الهزيمة الساحقة لم يكن أمام بوديكيا سوى أن تتجرع السم وتنتحر حتى تلحق بجنودها الذين وثقوا فيها وحتى لا تسقط فى أيدى الرومان وتتعرض للذل والمهانة من الأسر .

وكانت آخر كلمات بوديكيا لمن بقى من جنودها انها حاولت ان تثبت للغزاة الرومان ان قوة الشعب مهما كانت واهنة وضعيفة يمكن ان تتحدى الطغاة .

والدليل على ذلك انه رغم خسارة جيش بوديكيا للمعركة الحاسمة مع الرومان الا أنه كان ق استطاع ان يلحق بقوات الرومان خسائر فادحة بلغت حوالى ٧٠ الف قتيل ..

وفى نفس الوقت ، تؤكد المراجع التاريخية ان تضحيات بوديكيا والموالين لها لم تذهب هباء منثورا .. فقد ادرك الامبراطور الرومانى ان القمع لن يؤدى الا الى الانفجار ولذلك قرر تغيير حكام المناطق فى انجلترا واستبدالهم بحكام آخرين اكثر قدرة على تهدئة الثورة واحتواء نيران الغضب فى نفوس المقهورين .

وسوف تبقى بوديكيا فى ضمير التاريخ رمزا خالدا على الضعف عندما يتحول الى قوة هادرة .. فقد كانت مجرد امرأة مات زوجها ملك القبيلة وكان عليها ان تختار بين التعامل مع الواقع فى ضوء ظروفها الخاصة التى تبرر الضعف وقبول الهزيمة .. اما الخيار الآخر فكان هو التحدى وايقاظ روح الثورة فى نفوس الشعب .

* * *

٢٢

إليانورا ديوز ..

عـرض مـأساوى على مسرح الحياة !

من اروع الشخصيات فى تاريخ المسرح تلك الممثلة الايطالية العظيمة « اليانورا ديوز » التى ارتبط اسمها بالتمثيل المسرحى واصبحت حياتها بمثابة دراما واقعية عاشها العالم معها فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .. هى بلا شك أعظم ممثلة مسرحية فى عصرها .. كانت موهبتها تختلف تماما عن موهبة أسطورة المسرح الفرنسى سارة برنار التى عاشت معها فى نفس العصر .

فقد كانت سارة برنار ممثلة محترفة من ارفع طراز تطغى شخصيتها القوية على الشخصية التى تقوم بتمثيلها وتذكر المشاهد فى كل وقت بأن التى تتحرك أمامه على المسرح هى سارة برنار العظيمة .

أما اليانورا ديوز فقد كانت كالملاك الحارس تحلق حول الشخصية التى تؤديها وتضيف اليها الأبعاد الروحية والنفسية التى تؤكد حقيقتها وتحولها الى كائن حى بدرجة عجز أعظم كتاب المسرح

عن تحقيقها فى رواياتهم لم يكن المسرح بالنسبة لاليانورا ديوز مجرد مهنة أو حتى هواية تعشقها وتذوب فيها بل كانت رؤيتها للمسرح بالغة العمق والجدية .. وهى رؤية ترجع جذورها الى العصر الذهبى للمسرح أيام الاغريق عندما كان جزءا أساسيا من الحياة ووسيلة للتعبير عن الفكر والعقيدة والسلوك والاخلاق .

وكانت اليانورا ديوز ترفض بشدة اعتبار المسرح وسيلة للترفيه او التسلية بل تنظر اليه على انه مدرسة للأمم وأداة بالغة الرقى لتهذيب المشاعر وصقل الوجدان ..

وفى نفس الوقت ، كانت شخصية اليانورا بالغة الرومانسية فائقة الحساسية ، وكانت تبكى بدموع حقيقية على خشبة المسرح فى المشاهد المؤثرة وكانت دموعها الطبيعية تنهمر كل ليلة فى نفس المواقف دون ان تتبلد مشاعرها بسبب التكرار ..

ولدت اليانورا ديوز فى احدى عربات السكك الحديدية قرب مدينة « فيفانو » الايطالية يوم ٣ اكتوبر عام ١٨٥٨ .. وكان جميع افراد اسرتها من الممثلين فى الفرق المسرحية المتجولة فعاشت الطفلة الصغيرة سنوات حياتها الاولى كفراشة هائمة تنطلق فى حقول وغابات القرى التى كانت تتوقف فيها الفرقة لتقديم عروضها .

وكانت اليانورا الصغيرة تشاهد كل ليلة العروض المسرحية من وراء الكواليس وتندفع بين اقدام المغنين والممثلين كقطة برية تجرى هنا وهناك بلا قيود .. ولاحظ المسئولون ان الفتاة الصغيرة تقوم بتقليدهم وتؤدى المشاهد المختلفة بموهبة ملحوظة فقرروا ضمها للفرقة ولم تكن تتجاوز الرابعة من عمرها ..

وكانت اول شخصية تمثلها اليانورا هى شخصية ابنة جان فالجان فى رواية « البؤساء » لاديب فرنسا العظيم فيكتور هوجو .

وفى سن الرابعة عشرة مثلت اليانورا دور جولييت فى رائعة شيكسبير الشهيرة « روميو وجولييت » .. وبعد وفاة والدها ووالدتها عاشت اليانورا اوقاتا صعبه وعملت مع العديد من الفرق المسرحية حتى توجهت الى مدينة نابولى فى عام ١٨٧٨ وبدأت نقطة التحول الرئيسية فى حياتها الفنية .

ففى نابولى كانت فرصتها أكبر لاظهار موهبتها فالتحقت بأحدى الفرق وابدعت فى اداء الشخصيات المسرحية الكلاسيكية مثل « الكترا » من المسرح الاغريقى و«اوفيليا » بطلة مسرحية هاملت وعندما لعبت شخصية « راكينى » فى رواية « تيريزا » لاميل زولا حققت نجاحا هائلا واجمع النقاد على مولد ممثلة عظيمة تؤدى ادوارها على المسرح بصدق لم يسبق له مثيل .

وفى عام ١٨٨٢ ، توجهت اليانورا الى باريس حيث شاهدت تمثيل نجمة فرنسا الشهيرة « سارة برنار » ولاحظت النجاح الذى حققته فى اداء الروايات المعاصرة وقررت منذ ذلك الحين ان تقوم بتمثيل مسرحيات لكتاب معاصرين وخاصة من فرنسا .

وبدات اليانورا فى تمثيل روايات الكسندر ديماس الابن وكان اول هذه الادوار هو دور « ليونيت » فى رواية أميرة بغداد وانطلقت بعد ذلك لتتفوق على سارة برنار وتصبح أعظم ممثلة مسرحية فى العالم .

وفى عام ١٨٨٥ ، قامت اليانورا بجولة فى امريكا اللاتينية مع فرقة سيزارروس .. وبعد عودتها الى ايطاليا كونت فرقتها المسرحية الخاصة وكان اسمها « فرقة روما المسرحية » .. وقامت الفرقة بجولة فى النمسا والمانيا وانجلترا وفرنسا وروسيا ومصر وبلجيكا والبرتغال والولايات المتحدة .. ومع كل نجاح كانت اليانورا تحققه ، كان عشقها للمسرح يتضاعف وكان تألقها يزداد وموهبتها تتفجر كينبوع متجدد للفن والحياة .

وعلى الصعيد الشخصى ، كان من الطبيعى لمثل هذه الشخصية الفريدة ان تخوض اروع تجارب العلاقات الإنسانية .

ففى عام ١٨٩٤ ، التقت اليانورا بشاعر ايطالى مغمور هو « جابرييل دانونزيو » وكان اشد ما لفت نظرها اليه هو شخصية البوهيمية والطابع الرومانسى الذى كان يغلف كل تصرفاته .

ورغم ان دانونزيو كان فى ذلك الحين شاعرا مبتدئا لم يحقق أى نجاح الا ان اليانورا كانت مؤمنة تماما بانه شاعر موهوب ولذلك طلبت منه ان يكتب لها عددا من المسرحيات .

وفى عام ١٩٠٠ ، كتب جابرييل دانونزيو افضل اعماله الأدبية وكانت قصة بعنوان « لهيب الحياة » وكانت هذه القصة بمثابة تسجيل امين لعلاقة الحب التى ربطته باليانورا .

والى جانب مسرحيات دانونزيو ، عثرت اليانورا على معين لا ينضب للتعبير عن ذاتها وتمثل هذا المعين فى روايات ومسرحيات الكاتب النرويجى هنريك ابسن .. ولم تكن اليانورا تشعر بالملل من تمثيل شخصية « نورا » فى رائعة ابسن « بيت الدمية » ..

ومن أروع الأدوار التى ارتبطت باسمها شخصية « ايليدا » فى « سيدة من البحر » وشخصية هيدا جابلر وهى كلها شخصيات ابدعتها عبقرية هنريك ابسن واضافت اليها اليانورا بأدائها التمثيلى نبض الحياة لدرجة جعلت ابسن نفسه يعترف بأنه مبهور لأن هذه الممثلة العظيمة اضفت على شخصياته ابعادا عجز هو نفسه عن التعبير عنها .

وقد كان أديب ايرلندا الكبير جورج برناردشو احد النقاد الذين بهرتهم اليانورا بتمثيلها المعجز

وقدرتها على تجسيد الجوانب النفسية والروحية من خلال الحركة والسكون .. والحديث والصمت .

وفى عام ١٩٠٩ ، تركت اليانورا خشبة المسرح لاسباب صحية واكتفت بادارة شئون فرقتها ، ولكن خلال الحرب العالمية الاولى ، منيت الفرقة بخسائر مادية فادحة واضطرت اليانورا للعودة الى التمثيل لانقاذ الموقف ولانها ادركت بالفعل عجزها عن الحياة بعيدا عن خشبة المسرح .

ورغم تدهور حالتها الصحية الا ان موهبتها وعبقريتها كانت ملتهبة وفى أوج تألقها وذروة نضجها الفنى .

وانتقلت اليانورا بعد ذلك الى مدينة « بيتسبورج » لتقديم عروضها المسرحية الرفيعة وفى ليلة ٢١ ابريل عام ١٩٢٤ ، انتهت من اداء دورها فى الرواية واسدل الستار على الفصل الآخير من المسرحية لتسقط اليانورا ديوز على الأرض وتلفظ انفاسها الآخيرة وكان آخر صوت سمعته اذناها هو هتاف الاعجاب والتقدير من جمهورها واغمضت عينيها للمرة الآخيرة وكأنها تحاول ان تستمتع بذلك الصوت العذب الذى طالما ساعدها على مقاومة الارهاق والمرض .

ماتت اليانورا ديوز ونقل جثمانها الى ايطاليا حيث دفن فى قبر صغير متواضع بمنطقة « اسولو » وفقا لوصيتها التى أوصت بها قبل موتها .

٢٣

الاخوات برونتى ..

سنوات العزلة .. والعبقرية

شارلوت وأميلى وآن برونتى ثلاث شخصيات خالدة فى تاريخ الأدب الانجليزى والابداع الإنسانى بأسره .. هن ثلاث أخوات عشن ظروفا بالغة الصعوبة سواء بالنسبة للمناخ العام الذى كان سائدا فى انجلترا خلال مطلع القرن التاسع عشر أو بالنسبة للبيئة الخاصة التى تربين فيها والتى كانت تفرض عليهن العزلة والوحدة والاكتئاب .

ورغم ذلك استطاعت الشقيقات الثلاث اختراق حاجز العزلة القائم واثراء الفكر الإنسانى بأعمال أدبية مميزة أصبحت الآن تحتل مكانة فريدة بين اعمال المبدعين الكبار كنتاج للعقول الملهمة .

ولقد انعكس الطابع المأساوى لحياة الأخوات برونتى بكل صدق فى شخصيات رواياتهن ورموز قصائدهن الشعرية فجاءت أعمالهن تجسيدا حيا لمختلف الصراعات التى تعتمل فى نفس المرأة عندما تعيش وسط ظروف بالغة الصعوبة والقسوة .

فرواية « جين آير » التى كتبها شارلوت برونتى كان لها تأثير هائل على حركة المرأة الانجليزية نحو التحرر لانها قدمت فيها بكل الصراحة والانفعال الصراع الداخلى للمرأة بين رغباتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية ..

والشقيقة الثانية « أميلى برونتى » كانت بمثابة الفرس البرى الشارد بين الاخوات الثلاث ، كانت متعتها الوحيدة هى التجول فى البرارى وتلقى حبات المطر على صفحة وجهها البرئ . وكتبت أميلى واحدة من اروع الأعمال الأدبية فى تاريخ الأدب العالمى وهى رواية « مرتفعات وذرنج » التى تعرض مأساة حب قدرى بين خادم مجهول الأبوين وابنة سيده .. وقد حاول هذا الحب ان يصمد امام الظروف الاجتماعية والطبقية السائدة ولكنه انهار وتحولت عاطفة الحب السامية لدى الخادم « هيتكليف » الى رغبة جهنمية فى الانتقام من كل شئ حتى من نفسه وحبيبته .

ولقد وصفت رواية « مرتفعات وذرنج » بعد ذلك بأنها كانت اول رواية ثورية اجتماعية وهى تعد بالفعل بمثابة الجذر الحقيقى لأسلوب تدفق المشاعر فى الأعمال الأدبية التالية .

أما الشقيقة الثالثة « آن برونتى » فقد كانت شخصيتها تفتقد النيران التى ميزت شخصيتى

شقيقتيها وكانت تعبيرا أصيلا عن القوة الهادئة والواقعية المتزنة وكان ابطالها دائما لديهم القدرة على التعامل مع الواقع بوقار وهدوء دون انفعال أو انسياق وراء تيار العاطفة .

كان الأب هو باتريك برونتى .. رجل ايرلندى تعلم فى كمبردج رغم فقر اسرته بفضل قدرته الهائلة على الادخار ومساعدة الكنيسة له .

تخرج باتريك برونتى فى الجامعة عام ١٨٠٦ وعمل راعيا لابرشية هارتشيد فى يوكشير وفى عام ١٩١٢ تزوج من ماريا برانويل وانجب منها الابنة الكبرى ماريا فى ١٨١٣ ثم اليزابيث فى عام ١٨١٤ ثم شارلوت فى عام ١٨١٦ ثم ابنه الوحيد باتريك فى عام ١٨١٧ وأميلى فى عام ١٨١٨ ثم ان فى عام ١٨٢٠ .

وبعد ثلاثة شهور من مولد « آن » أصبح والدها قسيسا لكنيسة هاوورث فى يوركشير وظل فى هذا المنصب حتى نهاية حياته .

فى سبتمبر ١٨٢١ ماتت الأم بالسرطان وتولت شقيقتها اليزابيث رعاية منزلها وأولادها حيث اهتمت بتعليم الفتيات الخمس الحياكة والتطريز وبذلت اقصى ما فى وسعها لمساعدتهن ولكنها ، رغم ذلك ، كانت بعيدة عن قلوبهن بسبب تزمتها الدينى وصرامتها وقسوتها فى التعامل معهن .. اما الابن باتريك فكان أبوه هو الذى يتحمل مسئولية تعليمه .

كان الأب محبا لعائلته ولكنه فرض على أطفاله العزلة وابعدهم تماما عن الحياة الاجتماعية وكان كل اهتمامه يتركز فى حث أطفاله على القصائد والمقالات .

قرأ الأطفال الستة كل ما وقع تحت أيديهم ابتداء من الصحف وحتى أعقد الكتب الدينية وكانت متعتهم الوحيدة هى التجول فى البرارى والأحراش الأمر الذى له أثره البالغ فى تنمية مشاعرهم وعواطفهم بدرجة تفوق سنهم ..

ولكن هذه التربية الصارمة والحياة فى عالم العزلة تركت لدى البنات الخمس صفة الخجل الشديد والخوف من التعامل مع الناس فى الواقع ، وفى عام ١٨٢٤ أرسل الأب ابنتيه ماريا واليزابيث الى مدرسة لبنات رجال الدين ولحقت بهما بعد ذلك شارلوت واميلى .

كانت نفقات المدرسة رخيصة وطعامها سيئ ونظامها صارم لذلك فعندما كتبت شارلوت برونتى رائعتها « جين اير » كان حجم كراهيتها للمدرسة شديدا وصورتها فى شكل ملجأ للأيتام مما دفع بطلة القصة الى قبول اى عمل للهروب من جحيم المدرسة .. وبالفعل خرجت جين اير بطلة القصة لتعمل مربيه لطفلة وتقع فى حب رب الأسرة المتزوج وتعانى أشد الصعوبات فى تعاملها مع المجتمع الذى لم تكن تعرف عنه شيئا .

ونتيجة لسوء التغذية فى المدرسة مرضت الشقيقتان ماريا واليزابيث وأعيدتا لمنزل الأسرة حيث كان مصيرهما هو الموت .

وتعمقت كراهية شارلوت للمدرسة وحملتها مسئولية وفاة شقيقتيها .

وفى يونيو ١٨٢٥ عادت شارلوت واميلى الى منزل الأسرة .. وخلال السنوات الخمس التالية تفتحت ملكات ومواهب الشقيقات الثلاث شارلوت واميلى وآن وشقيقتهن باتريك وانطلقوا فى البرارى يقرأون ويمارسون متعة اطلاق العنان للخيال .

وخلق الأطفال الأربعة مملكة وهمية اسمها « انجيريا » وابتكرت عقولهم ، الحروب والسياسات وشخصيات الطبقة الراقية فى هذه المملكة .

وفى عام ١٨٣١ أرسلت شارلوت الى مدرسة فى هيدرسفيلد فقررت اميلى وآن ترك مملكة « انجيريا » لها وانشاء مملكة وهمية أخرى أطلقا عليها اسم مملكة جرونداال » وأخذ خيال اميلى وآن يبدع علاقات الحب والعداء بين شخصيات هذه المملكة .

واستمرت هذه القصة الرومانتيكية المعقدة مع الأخوات برونتى حتى سن العشرين .. وليس هناك شك ان مملكتى « انجيريا » و« جرونداال » الوهميتين كانت تعبيرا عبقريا عن رغبة عارمة فى الانطلاق تحتمل داخل نفوس الاخوات برونتى .

وقد أكدت شارلوت برونتى أن هذه الوسيلة كانت تعويضا عن حياتها القادمة ، أما أميلى فلم تكن تشعر بالتناقض بين حلمها « مملكة جورنداال » وواقعها المر وقالت : انها اكتشفت فى النهاية أن جرونداال هى نفسها يوركشير التى تعيش فيها .

وبالنسبة للشقيقة الثالثة آن فقد كانت تعتبر أن مملكة « جرونداال » الوهمية هى مجرد وسيلة لتعميق اتصالها الفكرى بشقيقتها أميلى التى كانت تحبها حبا جما ..

والأخ الوحيد « باتريك » كانت مشكلته أو مأساته منذ البداية وحتى النهاية هى انه لم يعد قادرا على التمييز بين الحلم والواقع فاختلطت الأشياء فى ذهنه وتحولت حياته الى تراجيديا حقيقية .

كان جميع أفراد أسرة برونتى يعشقون القراءة والرسم .. وكانوا جميعا يعزفون الموسيقى باستثناء شارلوت .. وفى عام ١٨٣٥ عملت شارلوت مدرسة وعمل باتريك رساما وذهبت اميلى الى المدرسة التى تدرس فيها شقيقتها كتلميذة ولكنها كانت مرتبطة بالمنزل برباط عاطفى غامض فلم تستطع الاستمرار فى البقاء بعيدا عنه فعادت واحتلت شقيقتها آن مكانها فى المدرسة .

وفى نفس الوقت لم يكن العمل الروتينى كمدرسة يلائم عبقرية شارلوت فأصيبت بمرض « الاكتئاب » وأصبحت فى حالة مستمرة من الحزن والانقباض لذلك استقالت من المدرسة فى عام

١٨٣٨ وعادت الى بيت اسرتها .

كان لدى شارلوت طموح بأن تستغل عبقريتها الأدبية ولكنها اضطرت لقبول أعمال مختلفة لمساعدة شقيقها باتريك فى سداد ديونه .

ورغم أن باتريك كان موهوبا فى الكتابة والرسم والموسيقى الا أنه كان يعانى من الفشل المستمر .. وقد أنشأ باتريك مرسما للبورتريه عام ١٨٣٧ ، وعمل بدأب لمدة عام ولكنه كان ضعيف الارادة فلم يستمر وانهار مشروعه وفصل من جميع الاعمال التى فيها بسبب شخصيته اللامبالية .

وفى عام ١٨٤٢ توجهت شارلوت واميلى الى بلجيكا لتعلم الفرنسية والالمانية وتعلمت اميلى فى بروكسل المزيد من الموسيقى وكانت تعطى دروسا فى العزف على البيانو ..

ولكن ، فى نهاية نفس العام ماتت الخالة اليزابيث وعادت الشقيقتان الى هاوورث حيث ورثت كل فتاة ٣٠٠ جنيه استرلينى الخالة .. وظلت اميلى فى منزل الاسرة وعمل باتريك مدرسا مع شقيقته آن وعادت شارلوت وحدها الى بروكسل حيث تعرفت بمدرس يدعى قسطنطين هاجر بعد ان بهرتها شخصيته وثقافته وإيمانه بموهبتها .

ولكن زوجة هاجر أحست بالخطر من علاقة زوجها بشارلوت وأحست شارلوت بعجزها عن مواجهة الموقف فأحكمت السيطرة على مشاعرها وانهت علاقتها به ..

وفى عام ١٨٤٥ طرد الاخ باتريك من عمله بعد اتهامه بالخطيئة مع زوجة صاحب المدرسة وعادت معه اخته آن الى منزل الأسرة ليجتمع الشمل مرة أخرى فى هاوورث .

وخلال هذه الفترة بدأت شارلوت واميلى فى نشر بعض القصائد والأعمال الأدبية بتوقيع مستعار وطبعت الشقيقتان هذه الاعمال فى كتاب على نفقتها الخاصة ، ولكن بيعت من هذا الكتاب نسختان فقط .. ورغم ذلك كانت معالم الطريق قد اتضحت امامها .. ففى منتصف صيف ١٨٤٧ نشرت لاميلى رائعتها الفذة « مرتفعات وذرنج » ، ونشرت لـ « آن برونتى » قصة « أجنس جرى » ، ولكن شارلوت فشلت فى نشر قصتها « البروفيسور » .

ورغم ذلك أكملت شارلوت كتابة أروع قصصها « جين اير » ونشرت فى أكتوبر ١٨٤٧ وحققت نجاحا كبيرا .. وبدأ انتشار الاخوات برونتى فى الأوساط الادبية ولكن فى العام التالى ١٨٤٨ مات شقيقهن باتريك بعد ان أدمن الخمر والأفيون وبدأت الكوارث تنهمر على هذه الأسرة العبقرية .

فبعد موت باتريك أصيبت أميلى بنزلة برد اثناء جنازته وتدهورت حالتها لتصاب بمرض السل ورفضت اى علاج بسبب حزنها على شقيقها وماتت فى ١٩ ديسمبر من نفس العام .

وكانت الصدمة هائلة على الشقيقة الصغرى آن التى اصيبت بعدها مباشرة بنفس المرض وماتت

ايضا فى مايو ١٨٤٩ ولم يبق سوى شارلوت مع ابيها فى منزل الاسرة وواصلت ابداعها الأدبى فنشرت قصتها « شيرلى » وأصبحت ادبية مشهورة .

وفى عام ١٨٥٤ تزوجت شارلوت برونتى من احد رجال الدين من تلاميذ والدها .. كان الزوج يحبها ولكنه كان مختلفا تماما عنها وكل أمله ان يصبح راعيا للكنيسة بعد وفاة والدها .. لذلك لم تشعر هى بأى حب نحوه .. وعندما حملت فى بداية ١٨٥٥ اجتاحها مشاعر غريبة حول الحياة وأصيبت باكتئاب جديد ولم تكمل الحمل حتى نهايته فماتت فى ٣١ مارس عام ١٨٥٥ وظل زوجها مع أبيها حتى مات الأب فى عام ١٨٦١ ليغلق ملف أسرة برونتى ولتدخل عبقرية الاخوات الثلاث شارلوت واميلى وآن فى سجل التاريخ كنموذج للعطاء الإنسانى الذى لا يتوقف مهما كانت الظروف صعبة وقاسية ..

* * *

٢٤

الأمبراطورة أوجينى ..

سيمفونية الأقدار

اذا توهم المرء ان شمسه لا تعرف سوى الشروق وانه خلق فقط ليحلق فوق ذرى النجاح وقمم المجد ، عندئذ يكون قد اختار ان يعيش منتشيا فى غيبوبة الوهم حتى يفيق ذات يوم على ضوء الحقيقة ودوى الواقع ، فتكون النهاية القاسية .. والمأساوية أيضا . وقد كان هذا بالتحديد هو الدرس الهام الذى تعلمته الاجيال من سيرة حياة أوجينى امبراطورة فرنسا .

« اوجينى دى مونتيسو » هى زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولدت فى غرناطة باسبانيا عام ١٨٢٦ وكان والدها هو الكونت « تيبا » اشهر نبلاء اسبانيا فى ذلك الحين ..

ومنذ دخلت أوجينى مرحلة الصبا أصبحت محط انظار شباب الطبقة الارستقراطية فى أوروبا لجمالها وثقافتها الغريزية وشخصيتها الجذابة .. التقت بنابليون الثالث اثناء فترة وجوده فى منفاه بانجلترا وتعاهدا على الزواج فى اللحظة التى يسترد فيها نابليون مكانته ويصبح جديرا بها ..

فخلال السنوات الآخيرة من القرن السابع عشر كانت أسرة « البوربون » الحاكمة فى فرنسا قد

بلغت ذروة استبدادها وأصبح الشعب الفرنسى عاجزا عن تحمل ذلك التفاوت الطبقى الهائل الذى أعطى للنبلاء والارستقراط الحق فى ملكية ثروة فرنسا وتبديدها فى اوجه البذخ بينما كانت غالبية الشعب تعانى من شظف العيش وقسوة الحكم الدكتاتورى الذى جسدته مقولة الملك لويس الرابع عشر الشهيرة « انا الدولة والدولة انا » .. واستمر هذا الوضع المؤسف حتى تفجرت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وتم اعدام الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت .

وقد بدأت الامبراطورية الفرنسية الجديدة بتتويج نابليون الأول فى عام ١٨٠٤ وشاءت الأقدار الا يخلفه على العرش ابن من صلبه بل كان الملك التالى هو حفيد زوجته جوزفين من ابنتها « هورتنس » التى كانت قد أنجبتها قبل ان تتزوج من نابليون ..

وحكم هذا الامبراطور فرنسا باسم نابليون الثالث وكان هو الذى تزوج من أوجينى فى ٢٩ يناير عام ١٨٥٣ ..

ورغم الكثير من السلبيات التى أحاطت بحكم نابليون الثالث لفرنسا الا ان عهده شهد العديد من المنجزات ، فقد بذل جهودا هائلة لتحقيق العدالة وعمل على اعادة بناء العاصمة باريس وتجديدها وانشاء الحدائق والشوارع الجديدة فى انحائها .

وكان نابليون الثالث هو الذى اتم بناء متحف اللوفر الشهير ..

وقد استمر نابليون الثالث يحكم فرنسا لمدة ٢٢ عاما ابتداء من عام ١٨٥١ وحتى ١٨٧٣ .. وكانت هذه الفترة بحق مرحلة رخاء واستقرار كانت فرنسا فى شوق شديد اليها بعد الاحداث الجسام التى شهدتها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

أما سلبيات عهد نابليون الثالث فكان معظمها مرتبطا بشخصية زوجته الامبراطورة أوجينى التى اتهمت بأنها كانت تملى عليه ارادتها وتتدخل فى القضايا السياسية للدولة وتسيطر على شئون الحكم .

ويتهم بعض المؤرخين أوجينى بأنها هى المسئولة عن دفع نابليون الثالث الى خوض حروب خاسرة مثل شن حملة لغزو المكسيك والدخول فى مواجهة عسكرية مع واحدة من أقوى الدول الأوروبية فى ذلك الحين وهى بروسيا .

كذلك كانت أوجينى تعشق حياة الترف والبذخ وتسرف فى الانفاق بجنون لدرجة جعلت الشعب الفرنسى يخشى من عودة عصر النبلاء والارستقراط مرة أخرى بكل ما شهده هذا العصر من ظلم اجتماعى صارخ .

والواقع ان أوجينى كانت بالفعل محبة للحياة المرفهة الناعمة لذلك كانت تهتم اهتماما شديدا بأزيائها .

وتقتنى عددا هائلا من الأثواب وكميات من الحلى والمجوهرات .

ورغم ذلك ، فالتاريخ يذكر لأوجينى أيضا انها تبرعت بجزء من مجوهراتها لبناء معهد لتعليم بنات العمال الفرنسيين كما تصدقت بمبلغ ٢٠ ألف دولار للفقراء وكان هذا المبلغ جزءا من هدية مالية قدمها لها نابليون الثالث قيمتها ٥٠ ألف دولار .

وقد شاركت الامبراطورة أوجينى فى احتفالات افتتاح قناة السويس فى مصر عام ١٨٩٦ وحضرت حفل العرض الأول لأوبرا عايدة للموسيقار العالمى فيردى بدار الأوبرا المصرية فى ذلك الحين .. ولقد كان الخطأ الفادح الذى ارتكبه نابليون الثالث بتشجيع من زوجته الامبراطورة هو اعلان الحرب على بروسيا فى عام ١٨٧٠ .

ورغم أن الجيش الفرنسى لم يكن مهيأ على الأطلاق لخوض هذه الحرب ضد واحد من أقوى الجيوش الأوروبية الا ان نابليون الثالث لم يتراجع عن قراره بالحرب خاصة بعد ان تحداه داهية السياسة الجرمانى الشهير « بسمارك » .

وكانت النتيجة الطبيعية هى ان يلقى الجيش الفرنسى هزيمة مروع بعد معارك استمرت ٣ أسابيع فقط مع البروسيين .

ولم يستقر الأمر على مجرد الهزيمة العسكرية فحسب بل أدى ايضا الى سقوط الامبراطورية الفرنسية الثانية وأسر الامبراطور نابليون الثالث ودخول الجيش البروسى باريس وجلوس الملك وليم ملك بروسيا على عرش نابليون فى العاصمة الفرنسية .

وخلال المعارك الأولى بين الفرنسيين والبروسيين لم تكن أوجينى تتوقع هزيمة جيش زوجها ولكن بعد أيام بدأت الانباء ترد اليها حولها هزيمة الجيش الفرنسى .. وعندما حاصر الجيش البروسى باريس ، حاولت اوجينى ان تفعل شيئا لانقاذ امبراطورية زوجها من السقوط وفكرت فى الخروج الى الشوارع ودعوة الشعب الى المقاومة والالتفاف حول أمبراطوره المهزوم ولكن حادثة بسيطة وقعت أدت الى تغيير مجرى التاريخ .. فقد كانت أوجينى شديدة الاهتمام بمظهرها واناقتها .. وعندما فكرت فى الخروج الى شوارع باريس والتحدث الى الشعب الفرنسى امرت باعداد جوادها وأخذت تبحث عن زيها المخصص لركوب الخيل ولكنها لم تجد هذا الثوب ورفضت ان ترتدى اى ثوب آخر وقررت التراجع عن فكرتها خشية ان تراها الجماهير وهى تمتطى الجواد بثياب غير تلك المخصصة لركوب الخيل !!

وهكذا ، فضلت أوجينى أن يضيع العرش وتفقد تاج الامبراطورية على أن تفقد تاج الاناقة ويقال عنها بعد ذلك انها لا تجيد اختيار ثيابها حتى فى احلك الظروف .

وتشير المصادر التاريخية الى ان خدم الامبراطورة أوجينى تخلوا عنها بمجرد ان أدركوا أن البروسيين على ابواب باريس فهربوا من القصر وحملوا معهم اثمن ممتلكات الامبراطورة وفى مقدمتها

بالطبع ثيابها الانيقة الرائعة .. لذلك قال المؤرخ الفرنسى الشهير تيرس : « ان ضياع ثوب واحد اضاع الامبراطورية الفرنسية » .

وانتهز عامة الشعب الذين يطلق عليهم اسم « الرعاع » أو « الغوغاء » هذه الفرصة وتوجهوا الى قصر التويلرى حيث كانت تقيم الامبراطورة أوجينى وأخذوا يهتفون بسقوط نابليون المهزوم .

واسرع سفيرا ايطاليا والنمسا الى الامبراطورة وطلبا منها سرعة مغادرة القصر قبل أن يقتحمه « الغوغاء » .. وخضعت أوجينى لطلبهم وقبل ان تستقل العربة وقفت أمام متحف اللوفر تنظر اليه فى حسرة وانهمرت الدموع من عينها .. وغادرت الامبراطورة فرنسا الى بريطانيا حيث نزلت فى ضيافة الملكة فيكتوريا ..

وتوجه نابليون الثالث بعد ذلك الى بريطانيا ليعيش فى المنفى مع زوجته أوجينى وابنه لويس نابليون .. وعاش امبراطور فرنسا السابق فترة قصيرة من الحزن والأسى على عرشه الذى ضاع حتى توفى يوم ٩ يناير عام ١٨٧٣ ..

وكأن الأقدار كانت قد أعدت لأوجينى مرحلة من الأحزان والكوارث المتتالية ، ففى عام ١٨٧٩ ، قتل ابنها لويس اثناء اشتراكه فى الحرب ضد قبائل الزولو بجنوب افريقيا .

وعاشت الامبراطورة بعد ذلك تعانى من الوحدة والاحزان وتستعيد ذكريات الماضى الحافل وكأنها تحاول ان تبحث عن شئ يستحق ان تحيا من أجله ..

وتغيرت الظروف فى فرنسا وانتهزت أوجينى الفرصة وسافرت الى باريس وكانت هذه المرأة مجرد أمرأة عجوز ترتدى ثوبا وتتحرك بصعوبة دون ان يتعرف عليها احد .. واخذت هذه المرأة العجوز تحوم حول القصور الشامخة التى شهدت ايام مجدها الغابر وتتطلع الى جدرانها وكأنها شبح من الماضى .. كانت تتخيل مرحلة صباها والجنود يحيطون بها والنبلاء يقبلون يديها وكأنها شمس تتألق بالضياء وتبعث الحياة فى كل ما يحيط بها .

وأمام قصر « فرساى » انحنت الامبراطورة السابقة لتقطف زهرة من الحديقة المواجهة للقصر ولكن احد الحراس تقدم منها ونهرها بشدة طالبا منها الابتعاد .

وادركت أوجينى ان الامبراطورية التى كانت بين يديها قد ضاعت منها الى الابد وانه لم يعد من حقها حتى ان تقتطف زهرة صغيرة من أمام قصر كان ذات يوم مجرد واحد من عشرات القصور التى كانت تمتلكها .

وفى يوم ١١ يوليو سنة ١٩٢٠ توفيت الامبراطورة أوجينى فى العاصمة الأسبانية مدريد وكان عمرها ٩٤ عاما وبموتها أغلقت الصفحة الأخيرة فى كتاب الأمبراطورية الفرنسية .

٢٥

ممتاز محل ..

التاريخ تصنعه النساء
عندما تحب !

كانت سيدة تاج محل واحدة من ثلاث نساء احتفظن بمكانة فريدة فى التاريخ الإسلامى بالهند وجميعهن من أصل فارسى .

الأولى هى « البيجوم حميدة بانو » التى تزوجت من الامبراطور همايون فى السند وعمرها لم يكن يتجاوز ١٥ عاماً وأخلصت له لدرجة أنها لم تتركه وحده فى المنفى خلال الصراع على العرش وظلت بجانبه لمدة ١٥ عاما كاملة عاشها فى منفاه ..

والثانية هى « نور جهان » أسطورة الجمال والذكاء التى خلبت لب الامبراطور جهانجير وجعلته يكرس أمبراطوريته بأسرها لتكون فى خدمتها .

أما الثالثة فكانت هى « البيجوم أرجوماند بانو » التى أطلق عليها اسم « ممتاز محل » والتى يضرب بها المثل باعتبارها نموذجا للزوجة المحبة المخلصة التى تذوب عشقا لزوجها ..

فخلال القرن الخامس عشر كان الوجود الإسلامى فى وسط آسيا قويا وملحوظا وحدثت صراعات وحروب من أجل السيطرة على الاراضى الشاسعة فى تلك المنطقة حيث لم تكن هناك دولة موحدة تضم تحت لوائها القوى الإسلامية ممثلة فى الاباطرة والخانات المسلمين .

وفى عام ١٦١١ ميلادية ، تزوج الامبراطور جهانجير من نورجهان التى تؤكد كتب التاريخ أنها أعظم مراكز القوة فى الامبراطورية .

وكان نورجهان حريصة على تدعيم نفوذها من خلال ترتيب زيجات بين أقاربها والامراء لضمان الاستمرار فى السلطة ..

وكان والد نورجهان هو اعتماد الدولة رئيس وزراء الامبراطور جهانجير وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى عام ١٦٢١ .

أما ابنتها من زوجها الاول ، وكانت تدعى شير افغان فقد زوجتها من شهريار اصغر ابناء الامبراطور . وكانت انجح الزيجات التى رتبتها نورجهان هى تلك التى تمت فى عام ١٦١٢

واسفرت عن زواج البيجوم ارجوماند بانو (ممتاز محل) ابنة أخيها عساف خان للأمير خورام ابن الامبراطور .

ورغم ان الامبراطور جهانجير لم يكن قد اختار خورام بشكل نهائى كولى للعهد من بين أبنائه الا أن خورام كان يعد نفسه لتولى العرش .

وعندما مات جهانجير فى عام ١٦٢٧ حاولت نورجهان اعطاء العرش لشهريار زوج ابنتها ولكن خورام تحرك بسرعة بمساعدة عساف خان والد زوجته وحدثت مواجهة دموية اسفرت عن انتصار خورام الذى اعلن نفسه امبراطورا باسم شاه جهان عام ١٦٢٨ .

ورغم ان الامبراطور شاه جهان كان متزوجا من احدى حفيدات اسماعيل شاه امبراطور الفرس قبل عامين من زواجه من ممتاز محل ورغم انه تزوج ذلك لأسباب سياسية من أبنة أحد الخانات لدعم موقفه فى صراعات القوة الا ان ممتاز محل كانت هى زوجته المفضلة دون منازع ..

والواقع ان ممتاز محل كانت تستحق هذه العاطفة القوية من جانب زوجها .. فقد كانت ذات جمال باهر رقيقة كالنسيم والأهم من ذلك انها كانت تحب زوجها شاه جهان حبا لا يوصف وتكرس كل لحظة من عمرها لاسعاده وادخال البهجة الى قلبة .. وكانت دائما تدعم ثقته فى نفسه وتؤكد له انه قادر على مواجهة مسئوليات الحكم مهما تعاظمت .

ولم تضعف عاطفة الحب فى قلبى ممتاز محل وشاه جهان بمرور سنوات على زواجهما بل كانت تشتعل يوما بعد يوم .. وظل الزوجان عاشقين يسيران كل ليلة معا على ضفة نهر السند وسط المروج والحدائق وتحت ضوء القمر ويعيشان معا اروع قصص الحب الرومانسية فى التاريخ .

ومن الحقائق المعروفة عن ممتاز محل وشاه جهان انهما كانا لا يفترقان طوال ساعات الليل او النهار .. كان كلاهما يشعر بالضياع اذا لم يكن نصفه الآخر امام عينيه .. وكانت ممتاز محل تخشى النوم لأنه يحرمها من رؤية زوجها فتبقى الى جواره وهو نائم حتى يغلبها النعاس فتقاومه وتتعجل طلوع النهار حتى تتبادل الحديث مع شاه جهان .

والزوج من جانبه كان يعتبر ممتاز محل كل شئ فى حياته فهى زوجته وصديقته ومستشاره الأول وكان اخشى ما يخشاه الزوجان العاشقان ان يفرق بينهما الموت لانه وحده الذى لن يستطيع حبهما أن يتحداه ولانهما عقدا العزم على الا يفرق بينهما أى شئ فى الحياة .

وذات يوم ابلغ شاه جهان زوجته ان عليه التوجه جنوبيا لمواجهة حركة تمرد .. ورغم ان ممتاز محل كانت حاملا الا أنها أصرت على ان ترافق زوجها وقواته برغم صعوبة السفر على أمرأة فى مثل حالتها ورغم قسوة الحياة وسط الجنود فى الثكنات العسكرية .. ولم يستطع شاه جهان أن يرفض

رغبة زوجته لانها كانت رغبته أيضا فوافق على ذهابها معه .. وبينما كان الامبراطور وقواته يعسكرون فى منطقة برهان بورا أحست ممتاز محل بالآم الوضع ، وكانت ممتاز محل قد انجبت ١٣ طفلا من الامبراطور شاه جهان .. وأحست أن ولادة طفلها الرابع عشر لن تتم على ما يرام .. واندفع الامبراطور الى الخيمة التى كانت عملية الوضع تتم فيها ونظر الى عينيها فوجد الدموع تترقرق فى مقلتيها فامسك بيديها واحس بالبرودة تسرى فى جسدها ..

وبصوت واهن كأنه قادم من أعماق الزمن قالت ممتاز محل لزوجها انها تشعر بالموت يسرى فى أوصالها وانها ليست حزينة الا على شئ واحد هو انها ستحرم منه .. وناشدته ان يعنى باطفالهما بعد موتها ثم لفظت انفاسها الأخيرة وعيناها عالقتان بوجهه .. وأجهش شاه جهان بالبكاء واجتاحه شعور عارم بالحزن .. وخرج الجميع وتركوه مع جثمان ممتاز محل وكأنه يستعطف الموت ان يتراجع ولكن هيهات .

كان موت ممتاز محل فى يوم ٢٨ يونيو ١٦٣١ .. وتقول كتب التاريخ : ان لحية شاه جهان التى لم يكن يوجد بها سوى عدة شعيرات رمادية قد تحولت كلها الى اللون الأبيض خلال الفترة القصيرة التى قضاها مع جثمان زوجته من فرط حزنه عليها والصدمة التى اصابته برحيلها .

واعتاد الامبراطور بعد ذلك ان يتوجه وحده كل يوم جمعه لزيارة القبر المؤقت الذى دفن فيه جثمان ممتاز محل بحديقة زين محل فى مدينة برهان بور .

وظل شاه جهان لمدة عامين كاملين بعد وفاة زوجته يمتنع عن تناول اى طعام فاخر ويرتدى ابسط الملابس واشدها تقشفا كما اصدر قرارا بمنع عزف الموسيقى أو اقامة اية احتفالات لعدة سنوات بعد وفاة زوجته .. وظل الشهر الذى ماتت فيه ممتاز محل شهر حداد كامل حتى بمرور سنوات على وفاتها ..

وبعد ستة شهور من وفاة ممتاز محل نقل جثمانها الى مدينة « أجرا » ودفن فى قبر مؤقت آخر بحديقة « راجاجاى سنج » يوم ٩ فبراير ١٦٣٢ .. وفى هذا المكان بالتحديد قرر شاه جهان ان يشيد ذلك النصب الخالد الذى اطلق عليه اسم « تاج محل » لزوجته .. واعطى الامبراطور لصاحب الحديقة اربعة قصور من ممتلكات التاج كتعويض له عن حديقته ..

وقد عاد شاه جهان الى اجرا فى موعد الذكرى الاولى لوفاة زوجته حيث احتشد الالوف للاحتفال بهذه المناسبة . وفى مقدمتهم الملوك والخانات والأمراء والعلماء والسفراء ورددت جنبات المدينة اصداء آيات القرآن الكريم واقيمت الصلوات على روح ممتاز محل ووزعت ٥٠ ألف روبية ترحما عليها و٥٠ ألف روبية اخرى فى اليوم التالى .. واصبح ذلك تقليدا خلال السنوات التالية حيث كان يتم توزيع مبلغ مماثل اذا كان آلامبراطور فى اكبر اباد و١٢ ألف روبية اذا كان الامبراطور بعيدا عن المدينة .

وكان الفقراء يتجمعون فى هذه المناسبة من كل عام أمام مقبرة ممتاز محل حيث كان الطعام يقدم لهم .. ووفقا للتقاليد التى كانت سائدة فى ذلك الحين فإن المرأة التى كان تموت اثناء الوضع كانت تعتبر شهيدة وكانت تتحول الى مزار مقدس .. وهكذا ، كان من الطبيعى ان يضفى شكل من القداسة على تاج محل منذ اللحظة الأولى لبنائه ..

ولقد كان اختيار شاه جهان لحديقة « راجاجاى سنج » كموقع لاقامة ضريح تاج محل اختيارا فنيا عبقريا .. فالمنطقة كلها تحيط بها الحدائق وتعتبر من اجمل المواقع الطبيعية وتنتشر حولها قصور وقلاع اباطرة ونبلاء « الموغال » ويجانب الضريح يجرى النهر فى رقة ونعومة فى اتجاه الشرق .

والموغال اشتقوا اسمهم من الغزاه المغول فى آسيا وكان هذا الاسم يشمل الاتراك والمغول والقبائل المسلمة بوسطة آسيا .. وما زال اسم الموغال يطلق على سكان هذه المنطقة باستثناء الافغان .

كان هدف شاه جهان ان يرى ضريح زوجته مباشرة من فوق قلعة اجرا .. ولا تذكر كتب التاريخ اسم مهندس معمارى واحد صمم ضريح تاج محل وتشير السجلات فقط الى أسماء النبلاء الذين عينهم الامبراطور للاشراف على البناء .. والحقيقة التاريخية الواضحة ان تاج محل كان ثمرة ابداع مجموعة كبيرة من المعماريين والفنانيين .. ولكن بعض المصادر التاريخية ذكرت ان احمد لاهورى رئيس المعماريين فى بلاط الامبراطور شاه جهان هو الذى أشرف على تنسيق جهود بناء تاج محل ..

وقد بدأ بناء تاج محل فى عام ١٦٣٢ واستقدم شاه جهان لهذا الغرض امهر الفنانين والحرفيين من جميع انحاء هندوستان وغرب آسيا وبلغ عدد هؤلاء ٢٠ ألف شخص ظلوا يعملون لمدة ٢٢ عاما حتى انتهوا من بناء الضريح ..

وتقول المراجع التاريخية ان تكلفة بناء تاج محل تروحت بين ٣٠ و ٦٠ مليون روبية .. وبعد انتهاء البناء ، كانت عادة الامبراطور ان يتوجه لزيارة الضريح فى موكب مهيب عن طريق النهر حيث يستقل زورقا ينساب مع المياه حتى يرسو الى جانب تاج محل .. وكان شاه جهان يقضى الاعياد والمناسبات فى الضريح ويعتبره مكانه المفضل للاستجمام واستعادة ذكرياته مع زوجته الراحلة .

وفى ٣ فبراير ١٦٦٦ لحق الامبراطور شاه جهان بزوجته ممتاز محل ونقل جثمانه بنفس الطريقة عبر مياه النهر حيث دفن الى يمين جثمان زوجته وبذلك التقيا مرة أخرى والى الابد ..

ولقد ترددت أساطير عديدة حول قصة حب ممتاز محل وشاه جهان وذكرت أحداها ان ممتاز محل اثناء حملها فى الطفل الرابع عشر سمعت الجنين يبكى داخل بطنها قبل ان يولد فهرعت الى زوجها الامبراطور وقالت له : ان الأم عندما تسمع صوت بكاء الجنين فهذا يعنى انها سوف تموت ولذلك يتعين عليها ان تستعد للرحيل عن العالم .

وأوصت ممتاز محل زوجها الا يتزوج بعدها وان يبنى لها قبرا لم يشهد به العالم مثيلا ..

ورغم ارتباط هذه القصة بالامبراطور الا ان هناك حقيقة تبقى وهى ان الامبراطور شاه جهان لم يتزوج بعد وفاة ممتاز محل رغم انه عاش ٣٥ عاما بعدها كما انه ليس هناك جدال فى ان ضريح تاج محل هو اعظم مقبرة فى العالم ولا يوجد ضريح على مثل هذه الدرجة من الروعة ولذلك لم يكن من الغريب ان يصبح احدى عجائب الدنيا السبع .

* * *

٢٦

إيرين كورى ..

ولدت من رحم المجد والعبقـــــرية !

« إيرين كورى » ابنة العبقرية الفذة لبيير ومارى كورى والتى اثبتت ان التقدم يكمن فى تسلسل الخلق والابداع تماما كالتفاعلات النووية التى تخصصت فيها .

ولدت ايرين كورى فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٧ وحصلت على شهادة البكالوريا فى عام ١٩١٤ . واثناء الحرب العالمية الأولى عملت بوظيفة فنى اشعة اكس فى الجيش الفرنسى وبدأت جهودها للحصول على شهادة عليا فى الفيزياء .. وفى نفس الوقت عملت ابتداء من عام ١٩١٨ كمساعدة لامها مارى كورى فى المعمل حيث استهوتها دراسة المواد المشعة التى كانت تجذبها بسحر غامض رغم علمها بخطورة هذه الأشعات الصادرة منها ..

ولقد ورثت إيرين كورى عن والدها بيير وامها مارى عشق الابتكار والبحث العلمى والرغبة الملحة فى خدمة الإنسانية .. وفى عام ١٩٢٥ حصلت على شهادة الدكتوراه وكانت رسالتها عن اشعة « الفا » التى تنبعث من عنصر البولونيوم .. وفى نفس العام التقت بفرديريك جوليوت الذى كان يعمل كمساعد فنى بمعمل امها مدام كورى .

ووجدت إيرين فى فردريك صورة أخرى من أبيها بيير كورى .. عاشق العلم يحلم بتحقيق منجزات علمية تفيد البشرية .. وكان فردريك ، من جانبه ، معجبا أشد الاعجاب بأعمال بيير ومارى كورى وحصل على بكالوريوس فس الهندسة ثم اكمل خدمته العسكرية والتحق بعد ذلك بوظيفة

مساعد فنى فى معمل مدام كورى .

وفى عام ١٩٢٧ بدأ فردريك جوليوت الدراسة من جديد للحصول على شهادة فى العلوم الى جانب قيامه بالتدريس فى مدرسة الصناعات الكهربائية بباريس .

ونجح فردريك فى دراسته ثم قدم رسالة الدكتوراه فى عام ١٩٣٠ حول « تخفيف السوائل بالاملاح المشعة » وتخصص بعد ذلك فى الخواص الالكترونية للعناصر المشعة .

ورأى فردريك وراء الشخصية العلمية الجادة والجافة لايرين كورى انسانة بالغة الرقة والرومانسية .. وجذبه اليها ذلك الهدوء والنقاء الذى كان يميز والدها بيير كورى وبهره ذلك الوميض المنبعث من عينيها والباحث دوما عن الحقيقة .. وفى عام ١٩٢٦ تزوج فردريك جوليوت وايرين كورى وبدأت رحلتهما المشتركة وتعاونهما المثمر فى المعمل والبيت .. وانجبا هيلين فى سنة ١٩٢٧ ثم بيير فى سنة ١٩٣٢ ..

وتكررت قصة التعاون الخلاق بين بيير ومارى كورى مع فردريك وايرين اللذين تركز اهتمامهما على نواة الذرة وسارا على درب عالم الذرة الكبير روزفورد الذى كان قد توصل الى وسيلة لقذف نواة الذرة باشعة الفا .

وكانت المشكلة التى تواجه بيير ومارى كورى هى البحث عن مصدر للمواد المشعة لاستخدامها فى الابحاث اما ايرين وزوجها فقد كانا أكثر حظا لان كل رصيد معمل مدام كورى من هذه المواد كان تحت تصرفهما .

وفى عام ١٩٣٢ نجح فردريك فى التقاط أول صورة طبيعية لعملية الاشعاع النووى وظهرت فيها لأول مرة جزئيات مثل الالكترون والبوزيترون .

ولقد كانت مساهمة ايرين وفردريك فى اكتشاف النيوترون حاسمة .. ففى عام ١٩٣١ عملا معا كمحاضرين فى جامعة السوربون وأشرفا على اجراء تجربة هامة تم خلالها قذف شريحة من الالومنيوم بجزئيات اشعة الفا من مصدر مكثف لعنصر البولوتيوم وانبعث نتيجة ذلك النيوترون والبوزيترون .. وظل انبعاث النيوترون مستمرا حتى بعد ابعاد مصدر البولوتيوم بمعدلات كانت تقل تدريجيا بمرور الوقت .. وبهذه الطريقة تم التوصل الى الفوسفور المشع والنيتروجين المشع والسليكون المشع بتغيير مادة الشريحة التى يتم قذفها بأشعة الفا .

والواقع أن هذه العناصر المشعة كان يتم الحصول عليها من قبل بشكل طبيعى ولكن ايرين وفردريك كانا هما أول من انتج هذه العناصر المشعة بطريقة صناعية فى المعمل .. ولقد سعدت مدام كورى كثيرا عندما شاهدت أول عينة من المواد المشعة المنتجة صناعيا قبل شهور من وفاتها باللوكيميا « سرطان الدم » فى ٤ يوليو ١٩٣٤ ..

وبعد وفاة مدام كورى استمرت ايرين تواصل رسالة والديها فى البحث العلمى .. وفى عام ١٩٣٥ حصلت ايرين كورى وزوجها فردريك جوليوت على جائزة نوبل فى الكيمياء لمنجزاتهما العلمية فى مجال العناصر المشعة .. وعين فردريك استاذا فى « الكوليج دوفرانس » عام ١٩٣٧ وكرس جهوده للبحث عن مصادر جديدة للاشعاع النووى .

وفى ١٥ ديسمبر ١٩٤٨ ، توجت جهود ايرين كورى وفردريك جوليوت بانشاء أول مفاعل نووى فرنسى .. ورغم أن هذا المفاعل كان متوسط القوة الا انه انهى احتكار الأمريكيين والانجليز للمفاعلات النووية . وفى عام ١٩٤٩ ظهرت الى الوجود أول عينة من البلوتنيوم تم انتاجها فى فرنسا بعد ١٥ عاما من اكتشاف ايرين وزوجها للنشاط الاشعاعى الصناعى .

وفى ابريل ١٩٥٠ وخلال ذروة الحرب الباردة بين الشرق والغرب اقيل فردريك جوليوت من جميع مناصبه العلمية بقرار من جورج بيدو رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الحين .. وبعد شهور حدث نفس الشئ مع ايرين كورى دون اى تفسير .

وعاد الزوجان بعد ذلك الى الأبحاث العلمية وتركزت جهودهما فى مجال الاستخدام السلمى للطاقة النووية .. وشاركا فى حملات مناهضة التسلح النووى وحظر اجراء التجارب على القنابل الذرية والهيدروجينية .

وكان فردريك جوليوت قد أجرى اتصالات مع العلماء البريطانيين لتشكيل الاتحاد الدولى للعاملين فى مجالات البحث العلمى واسس حركة السلام العالمى وأصبح رئيسا لها فى عام ١٩٤٩ وكان فردريك جوليوت هو الذى وجه نداء ستوكهولم الشهير ضد التسلح النووى عام ١٩٥٠ وطالب بأن تستفيد الإنسانية من الطاقة النووية فى الأغراض السلمية . وفى مقدمتها علاج الامراض .

وخلال الخمسينيات تدهورت صحة ايرين كورى . وفى عام ١٩٥٦ تأكدت اصابتها بمرض « اللوكيميا » سرطان الدم وهو نفس المرض الذى قضى على امها والذى تحدث الاصابه به نتيجة التعرض لجرعات اشعاعية غير عادية .

وماتت ايرين كورى فى ١٧ مارس ١٩٥٦ ، وشغل زوجها منصبها كأستاذ فى السوربون الى جانب عضويته باكاديمية العلوم الفرنسية . وكان آخر منصب له هو رئاسة المؤتمر الدولى للطبيعة النووية الذى عقد بباريس فى يوليو ١٩٥٨ وبعد ذلك بشهر واحد مات فردريك جوليوت ليلحق بزوجته وليحتل اسماهما واحدة من أنصع الصفحات فى كتاب التاريخ تقديرا لدورهما الرائع فى اكمال رسالة العلم ورؤيتهما الثاقبة للعلم كوسيلة لخدمة الإنسانية وتخفيف معاناة البشر وليس كاداة لاشعال الحرب وتدمير الحضارة .

٢٧

كورازون اكينو ..

من البيت الى قمة السلطة !

لا تختلف قصة كورازون أكينو فى الفليبين عن تلك التى عاشتها بنازير بوتو باستثناء انها خاضت حربها فى مواجهة رجل مستعد لتجاوز جميع الحواجز من أجل الحفاظ على السلطة ، وزوجته ايميلدا .

لم تعش كورازون الأجواء السياسية ففى الستينيات لم تكن سوى ربة منزل كغيرها من السيدات ، واستمرت كذلك حتى سنة ١٩٨٣ تاريخ مقتل زوجها « وينيبو اكينو » على يد الدكتاتور فريناند ماركوس ، وفجأة تبدل كل شئ وبعد هذه المأساة ، بدأت زوجة الشهيد بالغوص فى عالم السياسة من بابه الواسع ، وهى حذره مصممه ، حزينة ، خطواتها دقيقة ، خوفا من الوقوع فى المطبات التى يحضرها لها اعداؤها .

وواجهت ماركوس فى الانتخابات وانتصرت بالرغم من محاولة هذا الاخير للغش والتزييف وهكذا زال نظام ماركوس واختفى عن الحياة السياسية الفليبينية . وفى عام ١٩٨٦ وصلت كورازون الى رئاسة الجمهورية .

« عندما تكون امرأة ـ قالتها كورازون مرة لاحدى المجلات الامريكية بعد استلامها السلطة ـ يتطلب النجاح مضاعفة العمل » .

ولدت ماريا كورازون كونخوانكو فى عام ١٩٣٣ لأغنى عائلة فى مقاطعة تارلاك ، عائلة جمعت مجد الدنيا من طرفيه : مزرعة كبيرة للسكر وجد دخل مجلس الشيوخ ، وتبعه أبو كورازون وأخوها من مجلس النواب . درست فى أمريكا ، فى مدرسة للراهبات ، وتتذكرها معلماتها فتاة هادئة مجتهدة متدينة . تخرجت فى الأدب الفرنسى ، وتهوى جميع اللغات فى ذاكرتها كما تهوى ايميلدا ماركوس جمع الثياب والاحذية ، وتتقن الانجليزية الفرنسية ، اليابانية ، والتاغالوغية ، اللغة المحلية الفليبينية .

التقت وينينيو اكينو ، أو نينوى كما يدعوه الأصدقاء ، ذات عطلة ولم تتجاوب مع رسائله الكثيرة التى بعث بها اليها . كان صحافيا من عائلة ثرية من مقاطعتها . وانطباعها عنه تحسن بلقائهما مجددا عند عودتها الى مانيلا لدراسة الحقوق التى تركتها الى واجبات الزوجية والقليل من حقوقها ، اذ كانت « زوجة شرقية كلاسيكية » تربى خمسة اطفال ، فتستقبل الزوار ، تطبخ ،

وه تعنى بحصان زوجها المحارب » ، كما رأى صديق لها . راقبت نجم نينوى يزداد سطوعا ، وكانت وراءه دائما ، من اصغر رئيس بلدية الى اصغر حاكم فإلى أصغر سناتور . وعينه على القصر ، لكن المتربع فيه رأى انه صاحبه فأعلن حال الطوارئ فى عام ١٩٧٢ لتمديد فترة رئاسته وسحق معارضيه . وكان بنيتو أكينو المرشح لخلافة فرديناند ماركوس ، أول من دخل السجن بتهمة القتل وحيازة سلاح غير مشروع .

والسجن الذى احتوى زوجها سبع سنوات ونصف السنة كان محطة فى حياة المرأة الخجولة الصامدة ، كانت صلته الوحيدة بالخارج ، وعليها ان تحفظ كلماته لتعلنها فى مؤتمرات صحافية للحفاظ على ذكرى زوجها . كانت فى خوف دائم على حياته ، وتعرضت للتفتيش كلما زارته ، تجاهلها الأصدقاء ، وتعلمت ان الناس ينسون المغلوب سريعا ، لذلك ما عاد الناس المحامون يعنون لها شيئا ، فكان هذا جزءا من قوتها ، لأنها ما عادت ترهبهم ، وعادت الى اميركا وزوجها الذى أدى تدخل الرئيس جيمى كارتر الى السماح له بالسفر لعملية فى القلب ، درست فى هارفرد وخلعت ثوب السياسة لتعود ست البيت التى تتحوج وتطبخ لعائلتها وتتفرج على التليفزيون ، ولا تتفوه بكلمة واحدة عندما يقرر زوجها العودة الى بلاده لدعم المعارضة على معرفتهما بمخاطرها ، ويكبر قلب زوجها بها ويقول بفخر لصديق : أليست سيدة رائعة ؟ امرأة غيرها كانت بكت وتوسلت إلىّ الا افعل . ولم تنطق بكلمة . وعاد ليقتل فى المطار فور خروجه من الطائرة ، وادعت الحكومة ان قاتله الدوغالمان الذى قتل فورا بعد الجريمة وراء الحادث ، والمعارضة اتهمت رئيس الأركان ورئيسه المباشر ماركوس بالتخطيط للاغتيال . واثارت كورى دهشة عائلتها وأصدقائها ، ودهشت هى ـ للهدوء والشجاعة فى نفسها ـ لاغتيال زوجها ، كل الخوف المختزن من مقتله قوة كامنة خرجت لتحقق ما كانت تخشاه سارت امام مليون فيليبينى فى جنازة استغرقت عشر ساعات ووقفت امام التابوت لتقسم على المواصلة . وارتدت الأصفر حزنا ، وتخطت التأثير المغناطيسى الذى اراده زعماء المعارضة لحصرها فيه وقررت خوض الانتخابات التى ارادوا مقاطعتها . وربحت المعارضة ثلث المقاعد وتغيرت النظرة الى الأرملة الناعمة الضئيلة ، وترددت فى مسألة ترشيح نفسها للرئاسة رغم تلقيها عرائض مليون و ٢٠٠ ألف فيليبينى يطلبون منها ان تفعل . ولم تؤخذ القرار الا بعد يوم صلاة وصوم تلا قرار المحكمة اسقاط اقوال رئيس الاركان المتهم بالتورط فى مقتل زوجها . قالت انها كانت ستلوم نفسها لو لم تجرب .

فى أول عام ١٩٨٦ اختارتها مجلة « تايم » الأمريكية » شخصية العام « ل » تصميمها وشجاعتها على رأس ثورة ديموقراطية خطفت اعجاب العالم » . وكانت الثالثة تحوز اللقب بعد واليس سمبسون ، الامريكية المطلقة مرتين التى تنازل ملك بريطانيا ادوارد الثامن عن العرش ليتزوجها عام ١٩٣٦ ، وملكة بريطانيا اليزابيث الثانية فى عام ١٩٥٢ .

٢٨

أجاثا كريستي ..

إمـرأة تسبح ضد التيار !

أجاثا كريستى (١٨٩١ ـ ١٩٧٦) : روائية بريطانية ، كتبت ٦٨ رواية ، و١٧ مسرحية ، وأكثر من ١٠٠ قصة قصيرة ، واهتمت بكتابة الروايات البوليسية التى تعنى بحل الجرائم الغامضة ، وترجمت رواياتها الى اكثر من ١٠٣ لغات عالمية . وفى عام ١٩٧١ اسمعها الملكة اليزابيث الثانية (١٩٢٦) عضو الامبراطورية البريطانية .

ولدت اجاثا ويللر فى قرية ثوركاى بمقاطعة دينوتشاير من اب امريكى وام انجليزية . وقد شجعتها هذه الاخيرة على الكتابة منذ صغرها ، كما شجعها على ذلك صديق العائلة يدعى ايدن فيليبوتس ، وهو كاتب مسرحى مشهور . وكانت اختها مولعة بقراءة الروايات والقصص البوليسية ، وكانت تأتى معها بعديد من المجلات التى تنشر هذا النوع من القصص . وكانت أجاثا تشترك معها فى قراءتها .

وقد حملها شغفها بقراءة الروايات البوليسية الى مناقشة اختها والاختلاف معها فى الرأى أكثر من مرة ، فقد زعمت هذه الأخيرة بأن ما من رواية بوليسية الا ويخمن القارئ من هو القاتل ويعرف شخصيته بمجرد ان يقرأ الصفحات الاولى منها . ولكن اجاثا اجابتها بأنها لا توافقها على ذلك ، وان فى مقدورها هى ان تكتب رواية لا يستطيع اى احد ان يخمن من هو القاتل أو ان يعرف حقيقته الا فى الصفحات الاخيرة منها « قضية قصر ستايلس الغامضة » وفيها يظهر المخبر البلجيكى هركسيوس بوارو لاول مرة ، وقد نشرتها روايات الهلال باسم اللغز العجيب .

وكانت قد تزوجت فى اثناء ذلك بضابط شاب يدعى ارشيبالد كريستى ، ولكن ما كادت الشهيرة تعرف طريقها حتى اهتز عالمها ، فقد خانها زوجها وماتت امها ، واصيبت عندئذ بصدمة عنيفة .

وقد ماتت أجاثا كريستى فى يناير سنة ١٩٧٦ ، مخلفة وراءها أكثر من مائة رواية عالجت فيها الرواية البوليسية والقصة القصيرة وروايات الاثارة والتشويق ، وعرفت كيف تفتن القارئ وتأخذ بلبه ، فإذا ما بدأ برواية لها لا يتركها الا بعد الفراغ من قراءتها دفعة واحدة . ومن هذه الروايات الرواية التى تقدمها اليوم الى القراء ، وهى تعد من احسن رواياتها من حيث الحبكة والموضوع وقد نشرتها بالانجليزية باسم « عشرة هنود صغار » .

٢٩

ماري ملكة انجلترا ..

عندما تبكي صفحات التاريخ

رغم كآبة هذه الصفحات من كتاب التاريخ الا أنها بالغة الأهمية لكي يعمل كل إنسان اقصى ما بوسعه لمنع اضافة اى صفحات جديدة من هذا النوع الحزين الدامي ..

حكمت الملكة ماري الأولى انجلترا خلال الفترة من ١٥٥٣ وحتى ١٥٥٨ .. وكات هي أول امرأة تتولى عرش انجلترا بحكم حقها الشخصي ووفقا لتربيتها في الأسرة المالكة .

وقد دخلت الملكة ماري التاريخ باسم « ماري الدموية » نظرا للمذابح التي اقامتها للبروتستانت في محاولة منها للحفاظ على الطابع الكاثوليكي لانجلترا .

ولدت ماري في جرينتش في ١٨ فبراير ١٥١٦ وكان والدها هو الملك هنري الثامن وامها الأميرة الاسبانية « كاترين داراجون » ومنذ طفولتها كانت ماري بمثابة اداة في لعبة التنافس بين انجلترا والأمم الأخرى التي كانت اشد قوة في ذلك الحين حيث اقترح أكثر من مرة تزويجها من هذا أو ذاك في أطار لعبة التحالفات .

كانت ماري فتاة مجتهدة مولعة بالدراسة وتتميز بالذكاء واشرفت والدتها بنفسها على تعليمها .. وقد تمت خطبتها الى ابن عمها (تشارلز الأول ملك اسبانيا) الذي طلب منها الحضور الى أسبانيا وعرض استعداده لدفع مبلغ كبير كمهر لها اذا وافقت على الزواج .. وقد تجاهلت ماري هذا العرض فتحول عنها تشارلز الى خطبة فتاة اخرى .

وفي عام ١٥٢٥ حصلت ماري على لقب أميرة ويلز وبعد ذلك مباشرة بدأت حياتها تواجه اعنف الأزمات خاصة بعد زواج ابيها من ان بولين .. فقد اراد الملك هنري تطليق زوجته كاترين حتى يتزوج من آن بولين وادعى ان زواجه من كاترين باطل ويعتبر نوعا من السفاح نظراً لأنها كانت زوجة لأخيه الراحل ..

وقد رفض بابا روما الاعتراف بحق الملك هنري في تطليق زوجته كاترين والزواج من ان بولين رغم ان انجلترا اقرت شرعية ذلك ..

وفي عام ١٥٣٤ انفصل الملك هنري عن كنيسة روما وأسس كنيسة انجلترا .

ونتيجة لادعاء الملك هنرى بأن زواجه من كاترين لم يكن شرعيا أصبحت مارى بمثابة ابنة سفاح وقد انجبت ان بولين ابنة جديدة للملك هنرى هى اليزابيث التى اصبحت ملكة لانجلترا فيما بعد ومنعت الملكة الجديدة ماري من الاتصال بوالديها وسحبت منها لقبها كأميرة وجعلتها وصيفة لابنتها اليزابيث .. ولم تلتق مارى بعد ذلك بأمها على الاطلاق رغم ان المراسلات السرية استمرت بينهما ..

وقد اثرت كراهية آن بولين لمارى تأثيرا شديدا على هذه الاميرة التى حرمت من كل شئ واصبحت مارى تخشى من ان يتم اعدامها فى اى وقت .. ورغم ذلك لم تعترف قط بانها ابنة غير شرعية وقاومت كل الضغوط التى تعرضت لها مستندة فى ذلك الى الشجاعة التى ورثتها عن امها والعناد الاسطورى الذى كان هو السمة الاساسية لشخصية والدها .

كذلك حاولت آن بولين ايضا الضغط على مارى لاجبارها على ان تدخل الدير وتنخرط فى سلك الرهبنة ولكن مارى قاومت ذلك بكل قوة ورفضت الخضوع .

وبمرور الوقت ، بدأت علاقة الملك هنرى بزوجته آن بولين تتدهور فعرض العفو عن مارى اذا اعترفت به رئيسا لكنيسة انجلترا وبأن زواجه من أمها كاترين لم يكن شرعيا .

وقد رفضت مارى بقوة الاستجابة لمطالب ابيها ولكن ابن عمها تشارلز « امبراطور اسبانيا » حثها على قبول تلك المطالب واقنعها بالفعل ولكنها ندمت بعد ذلك ندما شديدا على هذا القرار .

وفى اعقاب التنازلات التى قدمتها مارى تمت المصالحة بينها وبين والدها الملك هنرى الثامن الذى منحها مخصصات تليق بمكانتها وعرض عليها الزواج من بعض النبلاء وأصبحت مارى أما فى العماد للامير ادواردابن الملك هنرى من زوجته الثالثة جين سيمور ..

وهكذا ، اصبحت مارى أهم الاميرات فى اوروبا .. ورغم انها لم تكن جميلة الا انها كانت تحظى بشعبية كبرى وكانت تتمتع بصوت رنان وقدرات بلاغية ولغوية ملحوظة .

ومع كل هذا النجاح ، كانت مارى عاجزة عن التخلص من تلك الصفة التى وصفها بها والدها وهى انها « ابنة سفاح » وان زواجه من امها كاترين لم يكن شرعيا .. وقد خطبت مارى اكثر من مرة ولكن هذه الحالات لم تصل الى النهاية الطبيعية وهى الزواج .

وعندما تزوج الملك هنرى للمرة الرابعة من كاترين هوارد سمح لمارى بالعودة الى البلاط الملكى .. وفى عام ١٥٤٤ تم الاعتراف رسميا بحقها فى وراثة عرش انجلترا بعد ادوارد.. وقد حدث ذلك رغم عدم الاعتراف بها رسميا كابنة شرعية للملك هنرى .

وكان شرط تولى مارى لعرش انجلترا هو الا يكون هناك اى ابن شرعى اخر لهنرى .. وقد خلف ادوارد السادس والده فى تولى العرش عام ١٥٤٧ وكان من المتزمتين دينيا واحاط نفسه بمجموعة

من المستشارين ذوى الميول الدينية المتشددة ايضا فقرر ان تحل اللغة الانجليزية محل اللاتينية بالنسبة للصلاة فى الكنائس وبقية المراسم الدينية .. ورفضت مارى الالتزام بتعليمات الملك ادواردواستمرت فى اداء الشعائر الدينية بالطريقة القديمة وباللغة اللاتينية .. ومرة اخرى اصبحت حياتها فى خطر من احتمال بطش الملك ادوارد بها ..

وفى عام ١٥٥٣ توفى ادوارد وهربت مارى الى نورفولك بعد ان استولت شخصية اخرى هى « ليدى جين جرى » على العرش واعترف بها كملكة لايام قليلة .

ورغم ذلك كانت البلاد كلها ترى آن مارى هى الوريث الشرعى لعرش انجلترا وبالفعل عادت مارى مرة أخرى الى لندن وتولت الحكم وهى فى السابعة والثلاثين من عمرها .. وقد ورثت مارى عن ابيها الحماس والعاطفية المزاجية والعناد والقوة ولكنها كانت على النقيض منه فى جوانب اخرى تميزت بها مثل كراهيتها الشديدة للقسوة والبطش بالمعارضين والخصوم وتوقيع أحكام الاعدام .. ولكن المفاجأة كانت هى ذلك التغيير الهائل الذى طرأ على شخصية مارى بعد ان تولت السلطة .

فقد وقعت مارى فى عدة أخطاء بعد توليها العرش .. فهى لم تدرك اهمية توخى الحذر بالنسبة لملكة جديدة وفشلت فى ان تتأقلم مع الظروف الجديدة التى طرأت على حياتها والأخطر من ذلك أنها أعلنت رغبتها فى اعادة انجلترا مرة أخرى الى كنيسة روما .

ومن أجل تحقيق هذه الرغبة وافقت على الزواج من فيليب الثانى ملك اسبانيا وابن الامبراطور تشارلز الخامس .. وكان فيليب فى ذلك الحين يصغرها بحوالى ١١ عاما . وقد أصرت على هذا الزواج رغم ان معظم مستشاريها نصحوها بالزواج من ابن عمها كورتناى .. ايرل أوف ديفون .

ونتيجة لرغبة الملكة مارى فى اعادة انجلترا الى كنيسة روما ، تحول عدد كبير من النبلاء الانجليز الى اعداء لها .. والسبب ان هؤلاء النبلاء كانوا قد حققوا ثروات هائلة من وراء الاراضى والممتلكات الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية التى استولوا عليها بعد ان صادرها الملك هنرى الثامن .. وعندما بدأت مارى تفكر فى العودة الى كنيسة روما خشى هؤلاء النبلاء من أن تستعيد الكنيسة ممتلكاتها .. وبالتالى تحولوا الى عداء الملكة مارى .

وكذلك دخلت مارى فى خلاف شديد مع البرلمان الانجليزى بسبب معارضته لزواجها من الملك فيليب ملك اسبانيا وأساءت معاملة الوفود التى أرسلها البرلمان اليها لاقناعها بالتراجع عن هذا الزواج وقالت لهم : « ان زواجى امر يخصنى وحدى ولا دخل للبرلمان به » ..

وفى عام ١٥٥٤ ، بات واضحا ان الملكة مارى مصرة على الزواج من فيليب فحدث تمرد للبروتستانت ضدها تزعمه سير توماس وايت .. وعلمت مارى ان وايت يتقدم بسرعة نحو لندن على رأس مؤيديه فألقت خطابا رائعا اسفر عن حشد آلاف المواطنين للقتال دفاعا عنها .

وبالفعل اسفرت المواجهة بين الجانبين عن هزيمة سير توماس وايت واعدامه .. وتزوجت مارى من فيليب واعادت الكاثوليكية إلى إنجلترا واصدرت عدة مراسيم لاعادة القوانين التى تعاقب البروتستانت بتهمة الهرطقة .

ودخل حكم مارى بعد ذلك أشد مراحله الدموية ولمدة ثلاث سنوات ظلت جثث المتمردين عليها تعلق على المشانق واعدم المئات بتهمة « الهرطقة » وبلغ عدد من احرقوا وهم احياء حوالى ٣٠٠ شخص وأصبحت الملكة مارى نموذجا لحكم الارهاب والقمع والوحشية ..

ومنذ ذلك الحين ، أصبح يطلق على الملكة مارى اسم « مارى الدموية » وكرهها الشعب وأصبحت سمعة زوجها الملك فيليب سيئة للغاية وفقد الناس ثقتهم فيه وفيها .

وفى هذه الظروف الصعبة خاضت مارى حربا لا مبرر لها ضد فرنسا وفى هذه الحرب كانت اسبانيا حليفة لانجلترا التى فقدت ميناء « كاليه » وهو آخر منطقة فى أوروبا كانت تحت سيطرة انجلترا .

ولم تكن مارى قد انجبت وليا لعهدها وكانت تحلم بانجاب طفل يتولى عرش انجلترا بعدها وفى كل مرة كانت تعتقد أنها حامل وكان الأطباء يؤكدون لها ان الحمل كاذب فأصيبت بالحزن والاكتئاب ومرضت .. وفى ١٧ نوفمبر ١٥٥٨ ماتت الملكة مارى فى لندن وبموتها انتهى عهد الحكم الدموى والغيت كل الخطوات التى اتخذتها لفرض افكارها وميولها الخاصة على الشعب الانجليزى .

٣٠

كـــريستينـــا ..

طفلـة تتولـى العـــرش
ولكنها تفعل المعجزات !!

لو عدنا الى « كتاب التاريخ » لاكتشفنا هذه « البديهية الصحة » فى كل صفحة من صفحاته وكل سطر من سطوره خاصة تلك التى تحدثنا عن الملكة كريستينا ملكة السويد فى القرن السابع عشر .. فهى المرأة التى رفضت الزواج بشكل قاطع وعندما ادركت ان الثمن الذى يتعين عليها ان تدفعه لهذا الموقف هو العرش لم تتردد فى خلع تاج الملكة مؤكدة انها ترفض اى قيد على حريتها حتى ولو كان قيدا من ذهب .

وهى المرأة التى أعطت كل حياتها للأدب والثقافة والفن فأثرت فى عصرها وتركت بصمتها على الفكر الأوروبى الذى ما زال يذكر لها بعرفان انها اعطته بلا حدود واستحقت عن جدارة لقب « مينيرفا » الهة الحكمة الأوروبية مثلها فى ذلك مثل « مينيرفا » الهة الحكمة عند الأغريق .

وهى واحدة من أذكى النساء واعظمهن علما وثقافة فى عصرها .. فاجأت العالم كله فى القرن السابع عشر عندما تخلت عن العرش وخلعت تاج الملك بمحض ارادتها حتى تستطيع التحول الى الكاثوليكية .. سياسية من أرفع طراز حاولت أكثر من مرة ان تصبح ملكة على العرش نابولى وان تحكم مملكة بولندا . كانت تكره الزواج وتنفر منه وتراه بمثابة قيد يفرض على المرأة البقاء فى الدرجة الثانية وراء الزوج ويحول بينها وبين احتلال المركز الأول حتى ولو كانت جديرة به .. خلد التاريخ اسمها كأعظم داعية للفنون والآداب فى القرن السابع عشر وباعتبارها المرأة التى أثرت بكل قوة على الثقافة الأوروبية فى عصرها .

وهى ابنة الملك جوستاف الثانى ملك السويد من زوجته ماريا اليانورا دى براند نبورج . ولدت فى ستوكهولم فى ٨ ديسمبر ١٦٢٦ .. وبعد وفاة والدها فى معركة « لوتزن » أصبحت كريستينا ملكة السويد وهى لا تتجاوز السادسة من عمرها باعتبارها الابنة الوحيدة للملك جوستاف .

وكان ملك السويد قد حرص طوال حياته على ان تتم تربية ابنته وكأنها امير ذكر وليست فتاة . وأحضر لها أعظم معلمى المملكة لتلقينها كل العلوم والفنون والخبرات التى كان يتعلمها امراء اوروبا فى ذلك الحين .

وبعد وفاة الملك وتولى الطفلة كريستينا للعرش السويدى تم تشكيل مجلس وصاية من خمسة أشخاص على رأسهم المستشار اكسل اوكنستيرنا لحكم البلاد حتى تصل الملكة الصغيرة الى السن التى تسمح لها بتولى الحكم وحدها .

ومنذ طفولتها .. أظهرت كريستينا نبوغا ملحوظا وتولى المستشار اكسل تعليمها شئون السياسة بحيث استطاعت ان تشارك فى الاجتماعات السياسية وهى فى الرابعة عشرة من عمرها .

وفى عام ١٦٤٤ تم تتويج كريستينا ملكة للسويد وحل مجلس الوصاية ، ومنذ البداية عارضت الملكة سياسات استاذها المستشار اكسل اوكنستيرنا وكان هناك احتكاك مستمر بينهما خاصة فيما يتعلق بالحروب التى كانت السويد تخوضها فى ذلك الحين والتى كانت كريستينا ترغب فى انهائها فورا .

وفى النهاية ، وقعت كريستينا معاهدة السلام المعروفة باسم معاهدة « وستفاليا » برغم معارضة المستشار اكسل .

وبمهارة سياسية ملحوظة ، نجحت كريستينا فى احتواء الصراعات الداخلية التى شهدتها السويد فى منتصف القرن السابع عشر والتى كانت تهدد بالتحول الى حرب أهلية تمزق البلاد .

وكانت اخطر المشكلات التى واجهتها هى تلك الازمة الاقتصادية الخطيرة التى واجهتها السويد بعد انتهاء الحرب والتى كانت نتيجة طبيعية لثلاثين عاما من الحروب تعرف فى التاريخ السويدى ، بحرب الثلاثين عاما .

وأدركت كريستينا انها بحاجة لخبرة المستشار اكسل .. ورغم حساسيتها تجاهه استدعته وطلبت منه المشاركة فى وضع الخطط اللازمة لانقاذ السويد من أزمتها الاقتصادية الطاحنة .

كانت كريستينا على قدر كبير من الثقافة ، شغوفة بالعلم والمعرفة ولذلك كان يومها يبدأ فى الخامسة صباحا بالقراءة لعدة ساعات قبل أن تمارس عملها كملكة . واستقدمت الى السويد أبرز الكتاب والموسيقيين والفنانين من جميع انحاء العالم . وكان المفكر الشهير ديكارت هو الذى علمها بنفسه الفلسفة ومات فى بلاطها .

وبسبب ثقافتها ومعرفتها الواسعة وحبها للعلم اطلقت عليها اوروبا كلها اسم مينيرفا الشمال تشبها لها بمنيرفا الهة الحكمة عند اليونانيين القدماء .

وكانت هناك بعض السلبيات الواضحة فى شخصية الملكة كريستينا ، فقد كانت مبذرة مسرفة تبالغ فى منح العطايا والهبات وخاصة من أراضى التاج السويدى وتمارس حياة البذخ فى بلاط السويد بينما كانت بلادها تعانى من أزمات اقتصادية طاحنة .

ورغم ذلك فقد شهد حكمها منجزات تاريخية لا يمكن اغفالها . ففى عهدها صدرت أول صحيفة سويدية عام ١٦٤٥ وتم انشاء المدارس فى جميع انحاء السويد ولقى الأب تشجيعا لم يسبق له مثيل وحصلت القرى والمدن الصغيرة على حقوق لا تقل كثيرا عن تلك التى كانت تتمتع بها العاصمة ستوكهولم وتحققت دفعات كبرى للتجارة والصناعة واستخراج المعادن من المناجم .

وبعد عشر سنوات من الحكم ، تنازلت كريستينا عن العرش وكان ذلك بمثابة صدمة هائلة للعالم المسيحى ، وقد بررت هذا القرار بأنها مريضة وبأن أعباء الحكم ثقيلة عليها ولكن السبب الحقيقى كان هو كراهيتها الشديدة للزواج وهو الأمر الذى كان يتعين عليها ان تفعله لتأتى بوريث للعرش .

كذلك ، كان تحول كريستينا سرا الى الكاثوليكية يحول بينها وبين الاستمرار فى الحكم لأن الكاثوليكية كانت محرمة بالسويد فى ذلك الحين .

وهكذا ، اختارت كريستينا ابن كارل جوستاف الخامس كخليفة لها على العرش .

وفى يوم ٦ يونيو ١٦٥٤ تم تتويج كارل جوستاف ملكا وهو نفس اليوم الذى تنازلت فيه كريستينا عن عرشها وغادرت كريستينا السويد على الفور . وفى ديسمبر ١٦٥٥ استقبل البابا الكسندر السابع بابا الكنيسة الكاثوليكية كريستينا فى روما بحفاوة بالغة وكان الكاثوليك فى العالم سعداء للغاية بتحولها الى مذهبهم . ولكن سرعان ما اصيب البابا بالاحباط والاستياء الشديد من كريستينا بسبب الانتقادات اللاذعة التى وجهتها لمظاهر التقوى والصلاح التى يبالغ رجال الدين فى اظهارها بشكل يقرب من الافتعال .

لم تكن كريستينا جميلة كأنثى وكان وجهها مليئا بالنمش وأثار حب الصبا او البثور التى تظهر فى مرحلة المراهقة ، كما كان كتفها الأيمن محدوبا ورغم ذلك استطاعت بشخصيتها القوية وثقافتها الغزيرة ان تصبح واحدة من ابرز الشخصيات فى روما .

وبعد ان تركت عرش السويد ، دخلت كريستينا فى مفاوضات مع رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الحين كاردينال مازارين ودون مودينا لتولى عرش نابولى التى كانت تابعة للتاج الاسبانى بحيث يتولى أمير فرنسى عرش نابولى بعد وفاتها .

وفى عام ١٦٥٧ انهار هذا المشروع ، فخلال زيارة قامت بها لفرنسا ، اصدرت امرا لحراسها باعدام ياورها الخاص المركيز جيان ريوالدو مونالديشى وقالت : ان سبب ذلك هو خيانة مونالديشى لها وافشاؤه لاسرارها الخاصة بعرش نابولى الى بابا روما .

ورفضت كريستينا ان تقدم اى مبرر آخر لهذا العمل الذى اصاب البلاط الفرنسى بصدمة وفجر غضب بابا الفاتيكان ضدها .

ويرغم هذه الفضيحة ، واصلت كريستينا حياتها لتصبح واحدة من أشد الشخصيات تأثيرا فى عصرها .. فقد ارتبطت بعلاقات صداقة مع أربعة من باباوات روما وكانت من ابرز الشخصيات التى ترعى الفنون والآداب الأوروبية رغم الصعوبات المالية التى تواجهها نتيجة لانكماش الدخل الذى كان يأتيها من السويد ثم توقف تماما فى النهاية .

وقد زارت كريستينا السويد مرتين بعد تخليها عن العرش ، الأول عام ١٦٦٠ والثانية عام ١٦٦٧ وخلال زيارتها الثانية بلغتها انباء تأييد البابا كليمنت التاسع لتوليها عرش بولندا خلفا لابن عمها الملك جون كاسيمير الذى كان قد تنازل عن عرشه وقد فشلت هذه المحاولة لتولى عرش بولندا ولم تحزن كريستينا كثيرا لانها كانت تعشق الحياة فى روما حيث ارتبطت بعلاقة قوية مع الكردينال ديشيو ازولينو الذى كان يتزعم مجموعة من الكرادلة ويؤثر بمنتهى القوة فى سياسات الكنيسة وكان الكاردينال أزولينو رجلا ذكيا وحكيما وترددت شائعات فى روما تشير الى وجود علاقة حب بينهما وهى شائعات دعمتها الخطابات الخاصة بها والتى نشرت بعد ذلك فى القرن التاسع عشر .

ونتيجة لعلاقتها بالكردينال أزولينو ، دخلت كريستينا فى خضم سياسات الكنيسة وظلت لسنوات تطالب بشن حرب مسيحية ضد الأتراك المسلمين لدرجة انها طالبت بوقف المعاش الذى كانت تدفعه لها الكنيسة واضافته الى ميزانية الاعداد لهذه الحرب .

وابتداء من عام ١٦٨١ بدأت الايرادات المالية لكريستينا تتحسن بعد ان سلمت ادارة ممتلكاتها فى السويد الى شخص موثوق به .

ولقد اثر تذوق كريستينا غير العادى للفنون على الثقافة الأوروبية فى عصرها بمنتهى القوة . وكان قصرها فى روما الذى يطلق عليه الآن قصر كورسينى يحتوى على أعظم مجموعة من اللوحات الفنية التى تنتمى الى ما يعرف بمدرسة فينيسيا بالاضافة الى مجموعة رائعة من التماثيل والايقونات والقطع الفنية التى يندر ان توجد فى مكان آخر بخلاف المتاحف الكبرى .

كذلك تحول قصر كريستينا الى ملتقى فكرى وادبى للفلاسفة والأدباء والفنانين ، وقد أسست أكاديمية أركاديا للفلسفة والآداب من مالها الخاص وما زالت هذه الاكاديمية موجودة حتى الآن فى العاصمة الايطالية روما . ويرجع اليها الفضل ايضا فى انشاء « التوردنيونا » وهى أول دار أوبرا فى روما .

وكانت كريستينا ايضا هى اول من اكتشف عبقرية الموسيقار الايطالى الشهير اليساندور سكارلاتى وعينته مشرفا على المغنين والمنشدين فى دار أوبرا تورد نيونا كما اكتشفت ايضا موهبة الموسيقار اركانجلو كوريللى وعينته فى منصب مايسترو دار الاوبرا الايطالية .

وكانت كريستينا تبادر بمساعدة اى فنان أو اديب تعرف انه يعانى من أزمات مالية ، كذلك كانت

تحرص على تقديم هذه المساعدات فى صورة راقية محترمة فتشترى اعمال هؤلاء الفنانين والأدباء وتجمعها لديها حتى أصبحت تمتلك ثروة هائلة من الكتب والمخطوطات التى تعرض الآن فى جناح خاص بمكتبة الفاتيكان فى ايطاليا .

والى جانب كل ذلك ، عرفت كريستينا بدعمها اللانهائى للحريات الشخصية ومساندتها الكاملة لحرية الإنسان المطلقة خاصة فى مجال الابداع والخلق الفنى والأدبى لدرجة انها فى احيان كثيرة تجاهلت علاقتها بكبار رجال الكنيسة وساندت الفنانين والادباء المجددين والمتمردين على سلطة كنيسة روما .

وفى ١٩ ابريل ١٦٨٩ ماتت كريستينا فى قصرها بالعاصمة الايطالية واوصت بكل ثروتها للكاردينال ازولينو الرجل الوحيد الذى احبته كأمرأة فى هذا العالم والذى حرصت على ان يظل حبها له نموذجا حيا لكل الأفكار التى آمنت بها .. العطاء بلا حدود والرفض المطلق لكل القيود .

وبعد شهرين فقط من وفاة كريستينا مات الكاردينال أزولينو ليلحق بها دون ان يمس تلك الثروة الهائلة التى تركتها له .

٣١

جورج اليوت ..

فكر التحرر .. وتحرر الفكر

التقدم الإنسانى كان وسيظل دائما سلسلة من محاولات الاقتحام والرغبة المستميتة فى تطوير الواقع ليصبح أكثر ملاءمة للانطلاق منه نحو آفاق المستقبل . وهناك فئة من البشر تولت مسئولية هذه المهمة فى كل العصور وكانت دائما فى الصف الأولى من حملات التنوير واثراء الفكر الإنسانى تعلق فى صدورها الرصاصات الأولى التى تطلقها جحافل التخلف وتسعى عن طيب خاطر لتحمل المعاناة والألم فى سبيل أهدافها النبيلة .

ومن هذه الفئة كانت « جورج اليوت » أعظم أديبة انجليزية فى كل العصور والتى تحول الأدب الانجليزى على يديها الى رسالة حضارية تنادى بفتح كل الأبواب أمام عقل الإنسان وتحطيم كل القيود التى تكبل حقه المشروع فى قيادة مسيرة الحضارة ..

اسمها الحقيقى مارى آن إيفانز .. ولدت فى ٢٢ نوفمبر عام ١٨١٩ بأقليم وور ويكشير فى انجلترا لأسرة ميسورة الحلال وقضت سنوات طفولتها فى بيئة دينية متشددة وتلقت تعليمها الأولى على أيدى المبشرين المسيحيين فى المدارس الملحقة بالكنائس وكان منزل أسرتها يسيطر عليه الطابع الدينى حتى فى أدق تفاصيل الحياة العائلية .

وبعد وفاة امها فى عام ١٨٣٥ اضطرت للعودة الى بيت اسرتها لتعيش مع ابيها الذى حرص على استمرار تعليمها فى المنزل فدرست اللغتين الألمانية واللاتينية ..

وانتقل الاب بعد ٦ سنوات مع ابنته الى مدينة كوفنترى وهناك بدات مارى آن ايفانز تطلع على نماذج مختلفة من الحياة خاصة فى الاوساط الثقافية الانجليزية التى كانت تموج فى ذلك الحين ، بتيارات فكرية عاتية تحاول اقتلاع جذور الفكر التقليدى المحافظ وتنطلق الى آفاق ارحب فى مجالات الأدب والثقافة والعلم .

وفى كوفنترى ، التقت مارى بالعديد من المثقفين الذين كانوا يقودون حملة تنادى بعلمانية التعليم وبضرورة فصل النظام التعليمى عن الكنيسة .. وكان من بين هؤلاء تشارلز براى وهو مفكر ليبرالى اشتهر فى انجلترا فى القرن التاسع عشر من خلال كتاباته الصريحة ومطالبته بأن يتعلم

التلاميذ فى مدارس مستقلة بعيدا عن سلطة الكنيسة وافكار المبشرين ..

والتقت مارى ايضا فى تلك الفترة ، بتشارلز هينيل مؤلف كتاب « تساؤلات حول أصل المسيحية الذى نشر عام ١٩٣٨ وفجر عاصفة من المناقشات المؤيدة والمضادة لأرائه .. وكان هذا الكتاب هو الذى احدث انقلابا فى حياة مارى آن ايفانز وجعلها تتحول من الأصولية الدينية المحافظة الى عقلية أكثر ميلا للعلمانية وضرورة الفصل بين الدين والمعرفة .. وكانت قراءات مارى السابقة لأعمال سكوت قد جعلتها تعتقد أن الإنسان لا يمكن ان يكون نبيلا ما لم يكن مسيحيا متطرفا فى المسيحية .

وبعد فترة قصيرة من الانخراط فى الأوساط الثقافية والفكرية بمدينة « كوفنترى » أبلغت مارى والدها بأنها لن تستطيع بعد ذلك الذهاب الى الكنيسة بانتظام .. وثار والدها ثورة عارمة ولكنهما توصلا بعد شهور الى حل وسط بأن تكون لها حرية التفكير كما تشاء بشرط ان تذهب الى الكنيسة فى ايام الأحاد وظل الحال هكذا حتى وفاة الأب فى عام ١٨٤٩ .

وبدأت تمارس الكتابة فى بعض الصحف باسم مستعار هو « مايان » ولكنها عجزت لأسباب مالية عن الحياة فى لندن لأكثر من ١٠ أسابيع وقررت أن تحاول مرة أخرى ونجحت فى الحصول على وظيفة مساعد محرر فى صحيفة « وستمنستر ريفيو » وحققت نجاحا فى عملها الصحفى ..

واستمرت مارى أو ماريان تذهب كل مساء الى الندوات الثقافية والأدبية وهى الندوات التى كانت تناقش كل شئ دون قيود ابتداء من المناهج الأدبية وحتى القضايا الدينية والسياسية .. وتعرفت على هربرت سبنسر صاحب أخطر كتاب صدر فى انجلترا فى ذلك الحين وهو كتاب « التحجر أو الجمود الاجتماعى » ، والذى صدر فى عام ١٨٥١ وكان له دوى هائل بسبب الانتقادات المريرة التى تضمنها ضد جوانب الحياة التقليدية فى انجلترا .. وتدعمت علاقة ماريان بهربرت سبنسر لدرجة جعلت الشائعات تتردد حول زواجهما ، ورغم ان سبنسر لم يتزوج من مارى آن ايفانز الا انه قدمها لرجلين من الطريف أن تتزوجهما واحدا بعد الآخر .

وأول هذين الرجلين هو جورج هنرى لويس الذى يوصف بانه أبرع الصحفيين الانجليز فى العصر الفيكتورى .

ولقد أنشأ جورج هنرى لويس صحيفة أسبوعية اسمها « الزعيم » فى عام ١٨٥٠ وكانت هذه الصحيفة ذات ميول راديكالية وتميل للتجديد وانتقاد الفكر التقليدى المحافظ . وكان هنرى لويس يكتب فيها ابواب الثقافة والآدب والمسرح ..

والتقى لويس مع ماريان عقب محنة طلاقه من زوجته بعد ان اكتشف خيانتها له مع أقرب

أصدقائه .. وبدأت العلاقة بينهما بمناقشات حامية حول الاعمال الأدبية والثقافية ثم اعتادا الذهاب معا للمسرح والاوبرا .

وفى عام ١٨٥٤ نشرت مارى آن ايفانز ترجمتها لكتاب « جوهر المسيحية » الذى كتبه الفيلسوف الألمانى فيورباخ ثم ذهبت مع هنرى لويس الى المانيا حيث تزوجا واستمرت حياتهما الزوجية تنعم بالسعادة حتى مات لويس فى عام ١٨٧٨ .

وفى برلين ، كتب ماريان آيفانز بعضا من افضل مقالاتها لجريدة « وستمنستر » وترجمت كتاب « الآخلاق » لسبينوزا بينما كان زوجها يعمل فى كتابه الرائع عن حياة الشاعر الألمانى « جوته » ..

وبتشجيع من زوجها بدأت ماريان ايفانز رحلتها مع الرواية حيث كتبت قصة واقعية عن حادثة وقعت فى مسقط رأسها فى « تشيلفرز » بأقليم وور ويكشير ونشرت هذه القصة فى مجلة « بلاكوود » بعنوان « القدر الحزين للأب آموس بارتون » .. وحققت هذه القصة نجاحا ملحوظا فتشجعت ماريان وكتبت قصتين هما : « قصة حب السيد جليفيل » و « توبة جانيت » وكانت أيضا من المدرسة الواقعية حول ذكرياتها فى تشيلفرز .

وقد أعيد نشر هذه القصص الثلاث بعد ذلك تحت عنوان «مشاهد من حياة رجال الدين المسيحى» وكان هذا الكتاب فى جزءين وظهر عليه لأول مرة اسم جورج اليوت كأسم مستعار بدلا من ماريان ايفانز حيث كان من المستحيل بالنسبة للرأى العام ان يتقبل فكرة احتراف المرأة للأدب ، بالاضافة للآراء الجريئة التى تضمنها هذا الكتاب والتى فجرت حملة انتقادات فى الأوساط المحافظة ارادت ماريان ان تتجنبها بالاسم المستعار .

وفى عام ١٨٥٩ ، نشرت اول رواية طويلة لجورج اليوت وكانت فى ٣ اجزاء بعنوان « آدم بيد » .. ووصفت الكاتبة هذه الرواية بأنها قصة ريفية مليئة بأنفاس البقر وعبير القش ..

وفى الرواية التالية « طاحونة على النهر » ٣ أجزاء عام ١٨٦٠ ، عادت جورج اليوت مرة أخرى إلى مشاهد حياتها المبكرة ، وتجلت فى هذه الرواية بوضوح القدرة الهائلة لجورج اليوت على التحليل النفسى لشخصياتها وتوالت بعد ذلك أعمال جورج اليوت الخالدة مثل « سلاس مارنر » التى اصبحت أشهر رواياتها رغم ان هذه الرواية بالذات عانت كثيرا بسبب فرضها كقصة مقررة على اجيال عديدة من تلاميذ المدارس فى انجلترا ودارسى الادب الانجليزى فى جميع انحاء العالم .

وبعد ذلك ، كتبت جورج اليوت أحد أروع اعمالها وهى « رومولا » وتدور احداث هذه الرواية التى اختمرت فى ذهنها اثناء زيارتها لمدينة « فلورنا » الايطالية حول « سافونا رولا » المصلح الدينى الايطالى الذى شن حملة على الفساد الاخلاقى للكنيسة فى عصره « القرن الخامس عشر » ..

ولقد حصلت جورج اليوت على مبلغ ١٠ آلاف جنيه استرلينى مقابل رواية « روممولا » وهو مبلغ ربما لم يكن هناك أديب آخر حصل عليه فى ذلك الحين مقابل رواية واحدة .. وفى عام ١٨٦٦ ، انتهت جورج اليوت من كتاب « الأصولى » والذى ظهرت من خلاله رؤيتها السياسية ناقشت فيه قضية الانتخابات والديمقراطية .

وفى عام ١٨٧١ ، صدرت رواية منتصف مارس فى ٨ اجزاء وهى الرواية التى تعد بحق أفضل اعمال جورج اليوت رغم انها لم تحظ بشهرة اعمال اخرى مثل ادم بيد وسلاسى مارنر وروممولا ..

وليس هناك شك فى أن الفضل يرجع لجورج اليوت فى تحويل الرواية الانجليزية من مجرد وسيلة للتسلية الى شكل فكرى بالغ الرقى من اشكال الفن .

وفى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٧٨ ، مات جورج هنرى لويس الذى ظل لمدة ٢٥ عاما يرعى جورج اليوت ويعنى بكل صغيرة وكبيرة فى حياتها .. وبعد موته اصبحت جورج اليوت مرة أخرى مسئولة عن نفسها .

وقد عهدت جورج اليوت لرجل أعمال يدعى جون والتر كروس بمهمة ادارة شئونها المالية وبدأت تميل اليه حتى تم الزواج بينهما فى مايو ١٨٨٠ وكان عمر جورج اليوت فى ذلك الحين ٦١ عاما ، وعمر الزوج كروس ٤٠ عاما .

وبعد رحلة الزفاف فى ايطاليا ، عادا الى انجلترا .. وفى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٠ وقبل مرور عام على الزواج ماتت جورج اليوت لتدخل التاريخ باعتبارها واحدة من أعظم كتاب الرواية فى الأدب الانجليزى واعظم كاتبة انجليزية فى كل العصور .

٣٢

كاترين الثانية..

إمـرأة تصنع تاريخ أمـة بـأكملها

التاريخ يؤكد أن العلاقة بين المرأة والسلطة وثيقة وقديمة ومنطقية أيضا .. ورغم ان عدد النساء اللاتى تولين السلطة ، يختلف درجاتها فى مختلف المراحل التاريخية وفى جميع انحاء العالم ، من الصعب ان تحصى الا ان كل واحدة منهن كان لها اسلوبها المتميز فى الصعود الى القمة وممارسة الحكم .

ومن أبرز تلك النماذج ، الامبراطورية كاترينا الثانية التى اعتلت عرش الامبراطورية الروسية لمدة ٣٤ عاما وكانت لها بصمتها الواضحة على التاريخ الروسى وربما الإنسانى بأسره ..

فى شهر يونيو ١٧٦٢ ، اعتلت كاترينا الثانية عرش الامبراطورية الروسية ، ومنذ البداية كان واضحا انها ستواصل عمل سلفها الامبراطور بطرس الاكبر الذى فتح ابواب روسيا على مصاريعها وعمل على الامتزاج بالحضارات الاوروبية .

وكان بطرس الأكبر قد أجبر اوروبا على الاعتراف بوجود روسيا قوية مستقلة وقامت كاترين الثانية بتأكيد مكانة روسيا كقوة اوروبية عظمى .

ولقد دمر بطرس الأكبر الثقافة الروسية القديمة وعملت كاترينا من بعده على اقامة ثقافة وطنية متأثرة بالثقافات الأوروبية ، ولكنها روسية فى المقام الأول .

لذلك ارتبط بطرس الأكبر بكاترينا الثانية فى أذهان الروس وحظيت كاترينا بالاعجاب رغم انها بروسية « المانية » ورغم انها اغتصبت العرش ورغم ان حياتها اتسمت بالخلاعة والابتذال وكان حكمها نموذجا للحكم غير الاخلاقى .

وقد اتفق جميع المؤرخين على ان كاترينا الثانية وضعت بصمتها الواضحة على حقبة كاملة من تاريخ بلادها مثلها فى ذلك مثل الملكة اليزابيث والملكة فيكتوريا فى انجلترا .

ولدت صوفى فردريكا أوجست فون انهالت بمدينة شيتاين من اعمال بروسيا « المانيا » فى ٢ مايو ١٧٢٩ وكان والدها أميرا المانيا مغمورا .

وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها اختيرت للزواج من كارل اولريتش دوق هولستين وحفيد بطرس الاكبر ووريث عرش روسيا ..

وفى عام ١٧٤٤ وصلت كاترينا الى روسيا واصبح لقبها الرسمى هو الدوقة كاترينا اليكسيفنا .. وفى العام التالى تزوجت ابن عمها ولكن هذا الزواج انتهى بالفشل الذريع ..

فى ذلك الحين كانت الامبراطورية الروسية تحت حماية الامبراطورة اليزابيث ابنة بطرس الاكبر التى استمر حكمها ٢٠ عاما توطدت خلالها دعائم الامبراطورية .

وتزوجت كاترينا من ابن أخ الامبراطورة اليزابيث الذى تولى عرش روسيا بعد وفاة عمته وهو الامبراطور بطرس الثالث الذى لم يكن يتمتع بأية صفة تتيح له الاستمرار فى الحكم .. كان بطرس الثالث مدمنا للخمر مشوش التفكير متقلب المزاج على عكس زوجته كاترينا التى كانت بالغة الذكاء والطموح وذات قدرة هائلة على كسب الاصدقاء والحلفاء .

كانت كاترينا شديدة الاهتمام بتثقيف نفسها من خلال القراءة بنهم وأحاطة نفسها بالمفكرين وكأنها تعد نفسها لدورها القادم كأمبراطورة لروسيا .. ورغم انها كانت محدودة الجمال الا أنها كانت تتمتع بسحر خاص وطاقة غير عادية .

وفى نفس الوقت كانت كاترينا تمارس حياتها الخاصة بشكل أبعد ما يكون عن الأخلاق والمثل العليا .. فقد ارتبطت بعلاقات غير شرعية مع ثلاثة رجال آخرين الى جانب زوجها الامبراطور وكانت تلمح دائما الى ان اطفالها الثلاثة بمن فيهم وريث عرشها « بول » لم يكونوا فى الحقيقة ابناء للامبراطور بطرس الثالث .

ولقد ادركت كاترينا منذ البداية ان زوجها الامبراطور عاجز عن ممارسة الحكم لذلك وضعت خطتها للاطاحة به وتولى عرش الامبراطورية الروسية بدلا منه ..

وقد توفيت الامبراطورة اليزابيث فى يناير ١٧٦٢ بينما كانت روسيا متحالفة مع فرنسا فى حرب السنوات السبع ضد بروسيا « المانيا » وبعد فترة قصيرة من وفاة اليزابيث وتولى بطرس الثالث العرش أعلن الامبراطور الجديد انسحاب روسيا من الحرب ووقع معاهدة تحالف مع فردريك الثانى ملك بروسيا .

وكان من الواضح ان بطرس الثالث ، وهو من أصل المانى ، لم يكن يحب روسيا وكان لا يخفى ولاءه لموطنه الاصلى فى المانيا .

وأحست كاترينا أن زوجها الامبراطور لا يحبها ويعتزم التخلص منها فقررت ان تأخذ جانب المبادرة وتبدأ بتوجيه ضربتها اليه .

وكانت كاترينا تدرك انها تحظى بتأييد الجيش الروسى وخاصة حامية سان بطرسبرج التى كان يقودها عشيقها جريجورى أورلوف . كذلك ، كانت كاترينا تحظى بتأييد أفراد البلاط الامبراطورى والرأى فى عاصمتى الامبراطورية موسكو وسان بطرسبرج .. وكانت العناصر المستنيرة فى المجتمع الأرستقراطى الروسى تؤيد كاترينا أيضا بسبب آرائها الليبرالية المتحررة وثقافتها حيث كانت توصف بانها أكثر الناس ثقافة فى روسيا .

وفى ٩ يوليو ١٧٦٢ قادت كاترينا انقلابا ضد زوجها الامبراطور وتوجهت بقواتها الى سان بطرسبرج حيث أعلنت نفسها أمبراطورة لروسيا .. وادرك بطرس الثالث ان المقاومة غير مجدية فاعلن تخليه عن العرش ولكنه قتل بعد ثمانية ايام من الانقلاب على ايدى انصار كاترينا التى أكدت انها لم تصدر اوامرها بقتل الامبراطور السابق .

وفى سبتمبر ١٧٦٢ تم تتويج كاترينا رسميا أمبراطورة لروسيا فى موسكو التى كانت هى العاصمة القيصرية القديمة فى ذلك الحين . وهكذا ، بدأ حكم كاترينا الثانية امبراطورة روسيا والذى استمر ٣٤ عاما .

واتسم حكم كاترينا الثانية فى البداية بسلسلة هامة من الاصلاحات كان الطابع المميز لها هو تلك التشريعات والقوانين التى سنتها لدعم التعليم والصناعة والتجارة والصحة لدرجة جعلت المؤرخين يصفونها « بالامبراطورة المشرعة » .

ولقد وصفت الامبراطورة كاترينا ايضا فى كتب التاريخ بالمكر والدهاء والطمع والانانية والقسوة ولكنها رغم كل ذلك كانت قادرة على ان تحيط نفسها بهالة من المهابة والاحترام .

كان حلم كاترينا هو التوسع فى اراضى الامبراطورية الروسية استولت على مساحات من الاراضى التركية والبولندية .

ورغم زيادة موارد الدولة الا ان الامبراطورة كانت بالغة الاسراف والبذخ ففرضت الضرائب الباهظة على الشعب الذى اصبح يعانى من الفقر والعوز والفاقة .

لم يكن حب كاترينا لروسيا ينبع من حبها لشعبها بقدر ما كان يقوم فى الأساس .. على حبها لنفسها ورغبتها فى ان يتسع نطاق سلطتها ونفوذها .

وقد أرسلت ذات يوم برسالة الى الملكة الفرنسية مارى انطوانيت توضح فيها صراحة رأيها فى هذا الشأن بقولها : « يتعين على الأباطرة والملوك الا يهتموا بصيحات ومطالب الشعب تماما كما لا يهتم القمر بنباح الكلاب » .

وهكذا ، تحول الشعب الروسى تحت حكم كاترينا الثانية الى مجموعة من العبيد رغم انها كانت

حريصة على أن تصف أفراد هذا الشعب بابنائها الأعزاء .

وفى عام ١٧٦٨ تفجرت الحرب بين روسيا وتركيا وانتهت بانتصار الروس واعتراف الباب العالى فى الاستانة باستقلال القرم والسماح للتجار الروس بممارسة أنشطتهم فى البحر الاسود .

وكما أقام الملك لويس الرابع عشر قصرا خاصا لراحته فى فرنسا اطلق عليه اسم « التريانون » أقامت كاترينا الثانية قصرا مماثلا سمته « الارميتاج » اى المعتزل وكان بمثابة ملتقى الادباء والفنانين الذين كانت ترسل بعضهم الى فرنسا وانجلترا لتعلم الأدب والثقافة الفرنسية والانجليزية .

وارتبطت كاترينا الثانية بعلاقات صداقة وطيدة مع مفكرى أوروبا وعلى رأسهم المفكر الفرنسى فولتير .

ويؤكد بعض المؤرخين ان كاترينا الثانية لم تكن محبة للعلم والثقافة بطبيعتها ولكنها كانت تعتبر العلماء والمثقفين جزءا من ديكور العرش الامبراطورى وتقليدا لسلوك الأباطرة فى البلدان الأوروبية الاخرى .

ولقد بلغ حرص الامبراطورة كاترينا على الظهور بعقلية الإنسانة الرومانسية ذات العواطف الجياشة ، انها شاهدت ذات يوم وردة تنمو وحدها فى منطقة جبلية فاصرت واصدرت أوامرها بتعيين حارس خاص من الجيش لحماية هذه الوردة لمدة ٢٤ ساعة كل يوم حتى لا يقتطفها أحد .. واستمر الحارس يقف فى هذا المكان لمدة ١٠٠ عام تقريبا حتى بعد ان ذبلت الوردة وسقطت وبعد ان ماتت كاترينا نفسها مما يشير الى سطوتها وقوة نفوذها .. ولم يتوقف تقليد وقوف الحارس وحيدا فى تلك المنطقة الجبلية الا خلال حكم القيصر اسكندر الثانى الذى عرف بمحض الصدفة تفاصيل هذه القصة .

ان كاترينا الثانية نموذج فريد للمدى الذى يمكن ان يصل اليه التناقض فى النفس الإنسانية .. فالرقة دائما كانت مرتبطة لديها بالقسوة والوحشية .. وبقدر ما كانت محبة لروسيا بقدر ما كانت تحتقر شعبها وتنظر اليه على انه مجرد مجموعة من العبيد الذين خلقوا حتى يكتمل لها شكل الامبراطورية التى تحكمها ..

كانت تزعم التدين وفى نفس الوقت كانت نموذجا للفسق والفساد الاخلاقى .. وكانت ترعى المثقفين والعلماء ولكنها كانت فى سلوكياتها أبعد ما تكون عن روح الثقافة والعلم .

ويؤكد بعض المؤرخين ان الامبراطورة كاترينا هى التى طلبت من انصارها قادة الجيش ان يقتلوا زوجها بطرس الثالث وعندما قام هؤلاء القادة بخنق الامبراطور وأبلغوها بموته بكت بشدة وارتدت الملابس السوداء وأصدرت للشعب بيانا للشعب قالت فيه : « ان الامبراطور قد مات متأثرا بمرض قديم وان عناية الله شاءت ان تتولى هى العرش من أجل حبها الشديد لسعادة الشعب » .

وقد حدث ذلك على الرغم ان زوجها الامبراطور تذلل اليها وطلب منها ان تبقى على حياته بعد ان اطاحت به واعلن قبوله لان تشاركه فى الحكم ولكنها كانت قد اتخذت قرارها النهائى بأن تنفرد بالعرش ..

اما بالنسبة لمقولاتها العديدة التى سجلتها كتب التاريخ والتى كانت تردد فيها حبها الشديد للشعب وحرصها على رفاهيته فلم تكن أكثر من مجرد جزء من الوهم الذى حاولت ان تقنع الأخرين به .

والدليل على ذلك هو الموقف الذى اتخذته من الثورة الفرنسية .

فقد احست كاترينا مثلها فى ذلك مثل بقية اباطرة وملوك ونبلاء اوروبا بالتهديد الذى تمثله افكار الحرية والمساواة التى نادت بها الثورة الفرنسية .

لذلك قالت كاترينا صراحة : « اننى ارستقراطية واعمل فى مهنة امبراطورة ولن اتخلى ابدا عن وضعى الاجتماعى أو مهنتى » .

وفى عام ١٧٩٠ كتب المؤلف الروسى راديشيف كتابا حاول ان يتحدث فيه عن مساوئ العبودية والرق الا ان كاترينا اصدرت أوامرها بمحاكمته وصدر الحكم باعدامه رغم انه كان من من أبرز المثقفين الذين احاطت نفسها بهم وزعمت انهم اصدقاء لها ..

وبدهاء شديد حاولت كاترينا ان تستغل هذه المناسبة لتأكيد مزاعمها فأصدرت قرارا بتخفيف العقوبة ضد راديشيف من الاعدام الى النفى .

وكان النفى الى مجاهل سيبريا هو مصير الألوف من المثقفين والفنانين والمواطنين الذين تجرأوا على مجرد الاختلاف مع وجهات نظر الامبراطورة .

وفى ٩ نوفمبر عام ١٧٩٦ وجدت كاترينا الثانية ملقاة على الأرض فى غرفتها بعد ان لفظت انفاسها الأخيرة وقيل انها كانت مصابة بمرض الفالج وقيل ايضا انها ماتت بالسكته القلبية وكان عمرها فى ذلك الحين ٦٧ عاما .

٣٣

جين أوستن..

الصدق مع النفس
طريقها الى الخلود

الارتباط بالواقع وادراك ابعاده بوضوح والتعامل معه بهدف تغييره نحو الأفضل هو اقصر طريق لتحقيق الحلم .. هكذا يقول لنا التاريخ . وفى مجال الأدب ، كغيره من مجالات الحياة ، هناك أكثر من تيار يدور بينها .. الصراع نحو الوسيلة المثلى لمعالجة محنة الإنسان وواقعه الصعب فى اى زمان ومكان .. والبعض ينادى بتجاهل هذا الواقع الأليم والانطلاق نحو آفاق ارحب والبعض الآخر يكتفى بالرصد المجرد لأبعاد المحنة .

وهناك ايضا من يندفعون بكل قوة لمواجهة هذا الواقع والعمل على تغييره من خلال ايقاظ الوعى وطرح النماذج التى يؤمنون بقدرتها على احداث التغيير المنشود .. هو نوع من « الواقعية الرومانسية » عبرت عنه بكل وضوح أعمال الأديبة الانجليزية العظيمة جين أوستن .

ولدت جين اوستن فى ١٦ ديسمبر ١٧٧٥ بقرية « ستيفنتون » فى اقليم هامبشير بانجلترا ، وكان والدها جورج اوستن يعمل راعيا لكنيسة القرية ولديه ثمانية أطفال .. ولقد ارتبطت جين أوستن بشدة بشقيقتها « كاساندرا » التى لم تتزوج طوال حياتها وكانت علاقتهما اقوى من مجرد علاقة بين شقيقتين بل وصلت الى مرحلة متقدمة من التفاهم المتبادل والاحساس المشترك والرؤية الواحدة للحياة بكل أبعادها ..

وفى عام ١٧٨٢ أرسل جورج أوستن ابنتيه الى أوكسفورد لبدء مرحلة التعليم الرسمى حيث التحقتا باحدى المدارس الدينية التى كانت منتشرة فى انجلترا فى ذلك الحين ، وبعد خمس سنوات عادت الشقيقتان الى هامبشير لمواصلة التعلم .

ويقول النقاد أن عبقرية جين اوستن وضحت فى هذه الفترة حيث انكبت الفتاة الصغيرة على القراءة بشغف خاصة أن والدها كان واسع الثقافة وكان يشجع أطفاله على القراءة وسعة الاطلاع ، اما الام وكانت تدعى « كاساندرا » ايضا فكانت امرأة فطنة وذكاء وثقافة .. تكتب القصص وتقول الشعر ولذلك كان البيت كله بمثابة بوتقة ثقافية انصهر داخلها الاطفال الثمانية واشتعلت فيها موهبة جين اوستن بالتحديد .. كانت القراءة والكتابة من اهم النشاطات اليومية لافراد الاسرة ولم يتوقف الأمر عند مجرد قراءة الكلاسيكيات الأدبية الانجليزية بل شمل المعارف والاداب العالمية ومتابعة

الحركة الادبية المعاصرة فى ذلك الحين .. وكان افراد أسرة اوستن يهوون التمثيل ايضا وشيد الأب مسرحا فى الكنيسة التى كان يشرف عليها حيث كان اولاده يمارسون التمثيل مع جيرانهم خاصة العطلات الصيفية .

لذلك يمكن القول ان السنوات الأولى من حياة جين اوستن والتى قضتها فى منطقة ريفية نائية لم تكن بمثابة « سنوات عجاف » بالنسبة لاثراء فكرها وثقافتها بل كات مرحلة نشاط عقلى وحضارى ربما لم تتح الكثيرات من فتيات المدن فى نهاية القرن الثامن عشر .

والدليل على ذلك ان اشقاء جين اوستن الذين تربوا فى هذه البيئة كانت لديهم ايضا تلك اللمحة من النبوغ والعبقرية التى ساعدت على نموها البيئة الثقافية التى عاشوا جميعا فيها .. فقد سافر اثنان من اشقاء جين هما « جيمس » و « هنرى » الى أكسفورد فى عام ١٧٨٩ واصدرا مجلة دورية اسمها « المتسكع » .. كذلك التحق اثنان اخران من اشقاء جين هما « فرانك » و« تشارلز » بالاسطول حيث اشتركا فى الحروب النابوليونية وكتبا مذكرات رائعة عن هذه الحروب .

والى جانب ذلك ، فقد تركت البيئة اثرها على جين اوستن حيث اختارت بوعى شديد ان تدور قصصها فى المناطق الريفية وتتناول شخصيات الناس البسطاء .

ويقول النقاد ان اول عمل ادبى كتبته جين اوستن كان عام ١٧٨٧ ولم عمرها يتجاوز ١٢ عاما .. ومنذ هذا التاريخ حتى عام ١٧٩٥ كانت جين قد انجزت الكثير من الكتابات التى جمعتها فى ثلاثة دفاتر ضخمة تحتوى على ٢١ مسرحية وقصة قصيرة ومقالا .. وكان الطابع المميز لهذه الاعمال هو ان معظمها يتنمى إلى ذلك الأسلوب الأدبى الذى يطلق عليه النقاد اسم « البارودية » والذى يحاكى فيه الكاتب احد المؤلفين بشكل ساخر تهكمى ..

وفى هذه الكتابات المبكرة ، ظهرت ايضا ميول جين أوستن الواضحة نحو الواقعية الأدبية من خلال اختيار شخصيات من الواقع ووضعها فى مواقف واقعية اصبحت بعد ذلك احدى سمات الرواية الانجليزية .

ولقد عكس التطور الأدبى لجين اوستن ايضا ملامح نموها العاطفى والعقلى خلال الفترة من سن ١٢ سنة وحتى ١٧ سنة وانتقالها الى تبنى اراء اكثر جدية تجاه الحياة ..

وعلى صعيد الحياة الشخصية ، كانت جين أوستن منذ البداية فتاة ذات شخصية قوية ، وقد أشارت فى بعض خطاباتها الى انها كانت تشارك فى بعض الحفلات الراقصة وتعيش حياتها الاجتماعية بصورة طبيعية .. ورغم ذلك فهناك ظلال كثيفة تحيط بحياة جين أوستن كامرأة ، خاصة من الناحية العاطفية ومن ناحية علاقتها بالرجال ..

ويقول بعض النقاد ان جين اوستن لم تكن من ذلك الطراز من النساء الذى يدفع الرجال الى

التفكير فى الزواج .. والسبب فى ذلك ربما يرجع الى قوة شخصيتها وعقليتها التحليلية وربما يرجع ايضا الى رؤيتها الخاصة للزواج ..

فقد طلبت احدى القريبات النصيحة من جين اوستن قبل ان تتزوج وردت عليها جين بخطاب قالت فيه : « ابحثى داخل قلبك لتكتشفى ما اذا كانت مشاعرك يمكن ان توصف بأنها حب حقيقى ام لا . واذا كانت حبا فأى نوع من الحب هى .. وفى كل الاحوال عليك ان تتأكدى انه لا يوجد شئ سيئ فى الحياة يمكن ان يقارن ببؤس امرأة ترتبط برجل لا تحبه » .

وتشير المصادر التاريخية الى ان جين اوستن ارتبطت باكثر من علاقة ومشروع زواج ولكنها كانت تحجم فى النهاية عن الارتباط ربما لانها لم تكن تشعر فى داخلها بالحب الحقيقى وربما ايضا لانها كانت مبالغة فى « رومانسيتها » بالنسبة لمفهوم الزواج .. ونتيجة لهذا التناقض بين الفهم الواقعى للحياة والتفسير الرومانسى لعلاقة الزواج ، عاشت جين اوستن وماتت كعانس دون زواج .

والواقع ان الحياة الشخصية لجين اوستن تعد بالغة الاهمية عند دراسة قيمتها ككاتبة وذلك لأن مشاعر المرأة والحب والزواج كانت دائما من العناصر الاساسية التى تتناولها رواياتها .

ولسوء الحظ فإن معظم الشواهد التى كان يمكن الاستدلال بها على حياة جين اوستن الشخصية قد فقدت خاصة وأن شقيقتها الكبرى « كاساندرا » كانت بمثابة الوصى الغيور على تراث اختها وحياتها الخاصة ولذلك قامت بعد وفاة جين اوستن بتدمير الكثير من خطاباتها .

واذا كان من الممكن معرفة بعض جوانب الحياة الخاصة لجين اوستن وخاصة الجانب العاطفى ، من خلال اعمالها الادبية ، عندئذ يمكن الجزم بأنها كانت امرأة ذات خبرة فى عالم العاطفة والحب وايضا امرأة عانت من احباط هائل فى هذا العالم .

ويتضح ذلك من خلال آخر اعمالها وهو رواية « اقناع » من خلال اعمالها السابقة مثل « الكبرياء والتحيز » وغيرهما ..

ولقد ظهرت معظم بطلات جين اوستن فى حالة من الضياع والاحباط بعد فشلهن فى الحب وكانت جين على قدر هائل من البراعة فى تجسيد هذا الاحساس بالاحباط وكأنها كانت تعبر عن احباطاتها الشخصية وبالتالى جاء تصويرها لهذه المرحلة من حياة بطلاتها متدفقا بالصدق .

وفى يناير عام ١٨١٧ بدأت صحة جين اوستن تتدهور بشدة نتيجة اصابتها بمرض الصفراء . وفى يوم ١٨ يوليو كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وعندما سئلت عن آخر أمنية لها فى الحياة قالت : « كل ما اريده الان هو ان اموت » وكأنها تريد ان تؤكد لآخر مرة ارتباطها بالواقع .

وماتت جين اوستن وبموتها فقدت انجلترا والأدب الانجليزى اعظم عقلية تحليلية والشاهد الأمين على واقع المجتمع فى تلك المرحلة .

٣٤

أنديرا غاندى ..

رجل الهند القوى !

أنديرا غاندى .. قالت جدتها عندما ولدت فى عام ١٩١٧ فى بيت السعادة .. « بيت أهلها » : كانت يجب أن تكون صبيا .. رد الجد : « ستكون أفضل من ألف صبى » .

ولدت انديرا وفى فمها ملعقة من ذهب ، فهى ابنة عائلة ارستقراطية غنية ، الا ان هذه العائلة انفقت ما عندها فى سبيل الاستقلال ، عاشت طفولة معذبة ، ومحفوفة بالحرمان ، وطفولتها كانت من نوع آخر ليست كالتى يعيشها الأطفال ، فقد كانت تحب اللعب بمفردها ، وكانت تملك الكثير من الدمى ، ولكنها دمى من نوع آخر ، فهى دمى سياسية تمثل اما رجلا يحمل مشعل الحرية ، وإما شخصا يحاول تحطيم قضبان السجن ، او تهيب بابنائها ليخوضوا المعركة ضد اعداء الوطن ، هوايتها المفضلة كانت فوق طاولة عالية والقاء الخطب ، امام الخدم حيث كانوا يستقبلونها بعاصفة من التصفيق ، واذا لم يتيسر لها مجموعة من المستمعين كانت تنظم الدمى بشكل مجموعة تعلمها كيف تسير فى مظاهرة لتأييد المهاتما غاندى .

وأنديرا غاندى سليلة تاريخ طويل فى الكفاح والعمل السياسى . جدها موتى لان كان محاميا فقيرا وصار ثريا وعضوا بارزا فى حزب الكونغرس ، ارسل ابنه جواهر لال إلى كيمبريدج ، بريطانيا ، ليدرس الحقوق ، مثله ، ففعل ، لكنه عمل فى السياسة كأبيه ، انضم الى حزب الكونغرس وتبع المهاتما غاندى وجال فى القرى يدعم مطالب الفلاحين بتحسين شروطهم المعيشية . سجن مرارا لعمله الدؤوب من اجل الاستقلال ، واستعمل يديه طويلا مثل زملائه المساجين ، ولكن فى تأليف الكتب وسجنت أيضا زوجته شريماتى كمالا ، رئيسة مجلس الكونغرس فى الله أباد ، وأخته ، احدى زعيمات الاستقلال ، حقق جواهر لال حلمه الاساسى باعلان استقلال الهند فى عام ١٩٤٧ . كان اول رئيس للوزراء وبقى حتى وفاته فى المنصب . والتغلب على الفقر والمرض والجهل والأزدياد الكبير فى عدد السكان كان أصعب من التغلب على الاحتلال . قام باصلاحات اجتماعية واقتصادية والتزم الحياد . عمل على توحيد الدول الافريقية والاسيوية كتلة محايدة ذات سلطة . فى عام ١٩٦١ واجه لعنة الاضطرابات الطائفية . بعدها بسنتين غزت الصين الشعبية الهند ، فتأثرت صحته وغادر الحياة فى عام ١٩٦٤ .

وهكذا ، كانت انديرا غاندى ، نشأت وترعرعت مع مآسى الهند وأحزانها وساهمت مع حركة التحرر الهندية فى البيت الهندى العريق .. بيت جواهر لال نهرو » الذى كان لها الأب والقائد والزعيم ..

وفى خضم معركة الاستقلال ، كان لقاؤها الطبيعى مع فيروز غاندى اللذين كانا معا فى بعث الخلايا السياسية ، والعمل السياسى المشترك وكان ذلك بداية لقصة حب جمعتهما بقصة حب أكبر هى حب الهند الحرة المستقلة .

وقد رأست انديرا ذات الوجه القلق حكومة بلادها وحزب الكونغرس بين ١٩٦٦ و١٩٧٧ .. وواجهت مشكلة تحديد النسل بحملة اعلامية واسعة وراديو الترانزيستور . كان كل رجل يوصى بالتعقيم يأخذ ترانزيستور ، جائزة ترضية عن الخصوبة المفقوده . مشروعها أفقدها شعبية كبيرة ، وسجنت فى عام ١٩٧٧ بتهم جنائية وكانت أول رئيسة وزراء تدخل السجن . ثم سجنت ثانية بعد سنة وأمضت عيد الميلاد فى السجن لتجريمها بمضايقة المسؤولين اذ كلفوا بجمع المعلومات عن مشروع وضعه سانجاى لصنع السيارات . ولم تترك وحيدة غضبها المكبوت بين القضبان . فخطف مسلحان طائرة بين كالكوتا ونيودلهى وطالبا باطلاقها ، وسارت تظاهرات احتجاج على سجنها صبغها دم القتلى والجرحى .

وكانت انديرا تعتز جدا بأنوثتها وقد ردت على وصفها عام ١٩٨٣ بـ « الرجل الوحيد » فى الحكومة بقولها : « قد لا تكون اهانة للرجال فى حكومتى ، لكنها بالتأكيد اهانة لى » . وقدكانت انديرا تميل الى السوفيات ، فالحياد يبرهن باستمرار عن صعوبته . اتهمت المخابرات الامريكية بالتدخل ضدها ، وحازت جائزة لينين للسلام « اعترافا بمساهمتها البارزة فى النضال من اجل الحفاظ على السلام ودعمه » .

ولكن نهاية هذه الشخصية العظيمة كانت مأساة بكل معنى الكلمة حيث اغتالها حراسها السيخ فى اكتوبر عام ١٩٨٤ .

ورحلت المرأة التى قالت عنها مارجريت تاتشر « المرأة الحديدية » فى بريطانيا : « يكفى النظر الى غاندى لنتأكد ان المرأة تملك مميزات فى الحكم لا يتمتع بها الرجال فى حالات عدة » . حاكمة سابع أكبر بلد فى العالم ماتت ميتة فى نفس الشهر الذى شهد مولدها ، اغتالها اثنان من السيخ فى حديقة منزلها وقضت كالمهاتما غاندى محوطة بالأزهار ، وأحرقت ونثر راجيف رمادها فوق نهر الغانج ، وحمل الشعلة وافتتح حكمه فى عام ١٩٨٩ باعدام قاتليها .. ولكن راجيف الابن الوحيد الباقى لانديرا ، سرعان ما تبع والدته فى مايو من عام ١٩٩١ اثر انفجار أودى بحياته بينما كان يقوم بجولة انتخابية فى احدى المقاطعات الهندية .

٣٥

مارجريت تاتشر ..

التاريخ تصنعه النساء ايضا !

كان بقاء مارجريت تاتشر فى منصبها طيلة ١١ عاما وهو رقم قياسى دليل على نجاحها فى ادارة دفة البلاد فى وقت كانت تشهد بريطانيا حالة ركود اقتصادى وتضخم كبير .

بجانب ذلك شكل انتصار تاتشر فى حرب المالوين مع الارجنتين عام ١٩٨٢ مفترقا مهما للمرأة الحديدية حيث اكتسبت شعبية فى المجتمع البريطانى . وقد استطاعت تاتشر تخطى العقبات التى واجهتها داخل حزب المحافظين ومع حزب العمال المعارض والنقابات العمالية ومع الجيش الجمهورى الايرلندى الى حد تعرضت فيه الى عدة محاولات اغتيال نجت منها باعجوبة .

كانت طفلة واثقة وطموحة . طالعت فى اوقات الفراغ فى السياسة والشئون الدولية ، وميولها لم تكن صبيانية فقط ، فدرست البيانو ، وشاركت فى كورس باخ فى جامعة اوكسفورد حيث درست الكيمياء واشعة اكس بمنحة . انتخبت رئيسة جمعية المحافظين فى الجامعة وحازت الماسترز وكانت باحثة كيميائية ، وتزوجت فى عام ١٩٥١ دنيس تاتشر الذى كان عضوا فى منطقة دارتفورد المحافظة . وشجع طموحاتها السياسية فدرست الحقوق ومارست المحاماه ، وفى عام ١٩٥٩ وصلت الى مجلس العموم عن منطقة فينشلى . وكانت خطيبة بارعة فعينت ناطقة باسم المحافظين ، وفى عام ١٩٧٠ عينت وزيرة للتربية والتعليم ، وكانت لها قصة مع الحليب حيث الغت الحصة المجانية من الحليب لثلاثة ملايين طفل ونصف مليون بين السابعة والحادية عشرة ، وسميت بـ « السيدة تاتشر » خاطفة الحليب ، فردت انها كانت تدفع ثمن الحليب عندما ذهبت الى المدرسة ، ولا علاقة للحليب المجانى بالتعليم . وعندما حاولت بعض المدارس الالتفاف على القرار ، بدفع ثمن الحليب من الضرائب والاحتفاظ بمجانية الحليب للأطفال اصدرت قانونا مانعا .

وخسر حزب المحافظين فى قيادة ادوارد هيث ثلاثة انتخابات من اربعة ، فغضبت وترشحت ضده وكان « فوزا ساحقا تاريخيًا » وفى عام ١٩٧٩ خطت خطوة أعلى وتسلمت رئاسة الوزراء التى جددت لها ثلاث مرات متتالية وضربت رقما قياسيا سبقت به الليبرالى هربرت اسكويث ، من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩١٦ ، جالت فى الشرق والغرب وكانت اول رئيس وزراء بريطانى يزور تركيا ، والحليفة الوفية لاميركا وورنالد ريجان .

وسواء كانت محبوبة أم لا ، لابد ان نعترف باهمية وتأثير رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر ، انها تلك التى اقترن اسمها بلقب المرأة الحديدية ، فمنذ اكثر من عشر سنوات قضتها فى الحكم ، سلبت الانظار واصبحت محط اهتمام العالم اجمع خاصة فيما يتعلق بشخصيتها وتصلبها .

ولكن رغم ذلك فالسيدات الانجليزيات يكرهنها ، رغم انها هى التى اعلنت يوما : « اذا اردت الكلمة فاسأل الرجل واذا اردت الفعل فاسأل النساء » .

٣٦

ديبورة هى ، ملكة إسرائيل ، ..

ديبورة هى امرأة ملهمة وقاضية وزوجة ابيدوث من قبيلة اساشار .راهتمت ديبورة بتوحيد قبائل اسرائيل ، اساشار وزيبولون ونافتالى ، لمحاربة ملك الكنعانيين يابين وقائده العسكرى سيسيرا فى منطقة سهل يزريل العظيم بمحاذاة نهر كيشون بالقرب من ميجيدو فى حوالى ١١٥٠ ق . م . وانتصرت ديبورة على الكنعانيين ، وأشاعت سلاما استمر ٤٠ عاما .

٣٧

إميلى دوشاتليت ..

اميلى دوشاتليت (١٧٠٦ ـ ١٧٤٩) : عالمة رياضيات فرنسية ، وزوجة المركيز فلورنت كلود دوشاتليت ـ لومونت . قامت إميلى بترجمة نظريات اسحق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) ، واقنعت الفيلسوف فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) بالتحول عن كتابة المسرحيات الى دراسة الفيزياء والميتافيزيقا .

٣٨

ريجوبيرتا مينشو ..

ريجوبيرتا مينشو (١٩٥٩) : جواتيمالية من الهنود الحمر ، أصبحت واحدة من أقوى الأصوات المناصرة لحقوق الإنسان فى الأمريكيتين ، وفازت بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٢ . كتبت

مينشو مذاكراتها ، ووصفت كيف حرقت قوات الأمن الحكومية اباها حتى الموت ، بينما كانت هى وأمها تنظران فى صمت اليه ، وكيف عذب وقتل الجنود أخاها الصغير امام عيونها . وبعد قتل امها وانضمام أختيها الى الثوار ، ذهبت هى الى المنفى فى المكسيك فى عام ١٩٨١ . وهناك ، استخدمت نقود جائزة نوبل ، وهى ١,٢ مليون دولار ، فى تأسيس جمعية خيرية لمساعدة أطفال الشوارع من الهنود الحمر ، والنساء الأرامل ، وزوجات السجناء السياسيين .

٣٩

تونى موريسون ..

تونى موريسون (١٩٣١) : واحدة من أعظم الكتاب الأمريكيين فى القرن العشرين ، درست الأدب والفولكلور والموسيقى ، واشتغلت محررة نصوص فى دار نشر راندوم ، وكتبت روايات ، واصبحت عضوا فى الأكاديمية الأمريكية للفنون والأداب ، وعينها الرئيس الأمريكى جيمى كارتر (١٩٢٤) عضوا فى المجلس الوطنى للأدب ، وفازت بجائزة بوليتزر فى الأدب الأمريكى عام ١٩٨٧ ، ثم فازت بجائزة نوبل فى الأدب فى ١٩٩٣ . وهى امريكية ملونة ، قهرتها المعاناة والعبودية ، فكتبت ، وأبدعت ، وبقيت بعد موتها مستقبلا .

٤٠

هيلين كيلر ..

هيلين كيلر (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) : مناصرة امريكية لحقوق المعاقين ، وحائزة على ميدالية الحرية من الرئيس ليندون جونسون (١٩٠٨ ـ ١٩٧٢)

٤١

تيودورا ..

راقصة وممثلة مسرحية ، ولدت فى القسطنطينية ، وتزوجت من ولى عهد العرش البيزنطى جوستنيان الأول (٤٨٣ ـ ٥٦٥ م) . وانهمكت تيودورا فى القضايا الادارية والسياسية والدينية ، وقمعت ثورة فى ٥٣٢م ، وأعادت بناء الامبراطورية الرومانية ، وأدخلت تعديلات على النظام القضائى ، ودافعت عن العدالة الاجتماعية وحقوق المرأة ، مثل : تعديل قوانين الطلاق ، وحق البنات فى الميراث ، وتحريم بيع الأبناء لسداد ديون الأباء .

٤٢

مارى وورتلى مونتاجو ..

ومارى وورتلى مونتاجو (١٦٨٩ ـ ١٧٦٢) : الليدى مارى مونتاجو رائدة التطعيم ضد الجدرى فى أوروبا ، وهى ابنة دوق كينجستون ، وزوجة ادوارد مونتاجو ، سفير بريطانيا لدى القسطنطينية (١٧١٦ ـ ١٧١٨) . وتعتبر اسهامات مارى مونتاجو فى مجال التطعيم ضد الجدرى بمثابة الخطوة الأولى نحو اكتشاف النظرية التى تقول : ان الجراثيم تسبب الأمراض .

٤٣

جان دارك ..

جان دارك (١٤١٢ ـ ١٤٣١) : فتاة فرنسية شابة ذات رؤية دينية ، زصبحت بطلة وطنية من خلال تحويل تيار حرب المائة عام (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣) لصالح فرنسا .

٤٤

سانت هيلينا ..

سانت هلينا (٢٥٠ ـ ٣٣٠ ميلادية) : هى « ام المسيحية » ، وأم الأمبراطور الرومانى قسطنطين العظيم (٢٧٤ ـ ٣٣٧ م) الذى جعل المسيحية الديانة الغالبة فى العالم الغربى . ويقول المؤرخون : ان هيلينا اعتنقت المسيحية قبل ابنها ، وعملت على نشر الديانة المسيحية ، وقامت بزيارة الى القدس فى ٣٢٤م ، حيث بنت « كنيسة القيامة » ، ثم ذهبت الى بيت لحم ، حيث بنت « كنيسة العذراء » .

٤٥

هيباتيا ..

اول امرأة عالمة بالرياضيات والفلسفة والفلك والادب . ولدت فى الاسكندرية ، وماتت امها وهى صغيرة ، وتولى تربيتها ابوها ثيون ، استاذ الرياضيات والفلك . ودرست هيباتيا فى اثينا ، واصبحت استاذة فى الجامعة ، وشغلت كرسى الفلسفة الافلاطونية ، واخترعت الأسطرلاب لقياس مواقع الكواكب والنجوم ، ورسمت خريطة نصف الكرة السماوية .

٤٦

اسباسيا ..

فيلسوفة اغريقية رائعة الجمال ، فتحت بيتها صالونا للفلاسفة والفنانين والسياسيين ، وقال عنها أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م) : انها علمته « نظريته فى الحب » ، وقال سقراط : (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م) إنها علمته « نظريته فى البلاغة » . ووقع حاكم اثينا بيركليس فى حبها ، وطلق زوجته ، وجعل اسباسيا عشيقته . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت اسباسيا مستشارة سياسية ، ودعت إلى اشاعة الديمقراطية ، وتغيير القوانين المقيدة لحرية المرأة فى المجتمع الاغريقى .

٤٧

سابفو ..

شاعرة اغريقية ، اطلق عليها افلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م) لقب : « الهة الشعر العاشرة » ، وأخذ ثيوقراط (٣١٠ ـ ٢٥٠ ق . م) عنها البساطة فى الأسلوب والعمق فى المعنى ، وهى اول من كتب شعرا منثورا .

٤٨

جولدا مائير ..

شخصية سياسية بارزة ، وأول امرأة رئيسة وزراء فى اسرائيل ، ولدت فى كييف الاوكرانية ، وتزوجت من موريس مايرسون فى عام ١٩١٧ ، وهاجرت مع زوجها الى فلسطين (اسرائيل فيما بعد) فى ١٩٢١ ، وعاشت فى تل أبيب . وفى عام ١٩٤٠ ، تولت منصب رئيسة الدائرة السياسية فى الهستدروت ، واستمرت فى هذا المنصب حتى اعلان استقلال اسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، ووقعت على وثيقة اعلان الاستقلال باعتبارها عضوا فى مجلس الدولة المؤقت ، ثم عملت كأول سفيرة اسرائيلية لدى الاتحاد السوفييتى لمدة ستة شهور . وفى عام ١٩٤٩ ، انتخبت لعضوية أول كنيست اسرائيلى (برلمان) عن حزب الماباى ، وتولت منصب وزيرة العمل والضمان الاجتماعى . وفى عام ١٩٥٦ ، تولت منصب وزيرة الخارجية لمدة عشر سنوات ، وبعد ذلك سكرتيرة عامة لحزب العمل لمدة عامين . وبعد موت رئيس الوزراء ليفى اشكول فى مارس عام ١٩٦٩ ، تولت منصب رئيسة الوزراء لمدة ست سنوات ، ثم استقالت فى عام ١٩٧٤ حينما نشأ جدل حول تقصير الحكومة فى حرب يوم الغفران فى اكتوبر عام ١٩٧٣ .

٤٩

دورثيى ديكس ..

دورثى ديكس (١٨٠٢ ـ ١٨٨٧) : رائدة امريكية فى الدفاع عن تحسين ظروف حياة السجناء وفى ١٨٤٨ ، قامت ديكس بجولة عالمية شملت الجزر البريطانية وروما والنمسا وبلجيكا وفرنسا والمانيا واليونان وهولندا وروسيا والدول الاسكندينافية وتركيا حيث أوصت ببناء مستشفيات جديدة . وفى عام ١٨٦١ ، تولت مهمة الاشراف على الممرضات فى الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦١ ـ ١٨٦٥ .

٥٠

روزا لكسمبورج ..

روزا لكسمبورج (١٨٧٠ ـ ١٩١٩) : واحدة من أعظم النساء فى تاريخ الاشتراكية الدولية ، ولدت فى بولنده الروسية ، وهربت الى سويسره حيث حصلت على الدكتوراه فى العلوم الاقتصادية من جامعة زيوريخ . وفى عام ١٨٩٣ ، اسست الحزب الديمقراطى الاجتماعى فى بولندة وليثيانا ، وفى عام ١٨٩٦ أصبحت عضوا فى الحزب الديمقراطى الاجتماعى الألمانى . وفى كتابها « الثورة الروسية » ، انتقدت لكسمبورج الهيكل المركزى فى حزب البلاشفة بزعامة فلاديمير لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) وادانت افعال الرعب اللاحقة على الثورة الروسية ، ودعت الى استخدام الاضرابات السياسية الجماعية باعتبارها سبيلا الى الثورة .

٥١

إلينور روزفيلت ..

الينور روزفيلت (١٨٨٤ ـ ١٩٦٢) : اعظم امرأة مؤثرة وفاعلة فى السياسات الأمريكية فى القرن العشرين . وصفها احد كتاب الأعمدة بأنها وزيرة بلا حقيبة وزارية ، وهى زوجة الرئيس الامريكى فرانكلين روزفيلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) . وبعد موت زوجها ، قام الرئيس هارى ترومان (١٨٨٤ ـ ١٩٧٢) بتعيينها مندوبة دائمة لدى الأمم المتحدة .

٥٢

لوسيلا جودى الكايا ..

(جابريلا ميسترال)

لوسيلا جودى الكايا (جابريلا ميسترال) (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) : شاعرة ودبلوماسية من شمال

شيلى ، وهى اعظم كتاب امريكا الجنوبية فى القرن العشرين ، ورمز الطموحات الوطنية فى عصرها وفى ١٩٢٥ ، بدأت ميسترال مهنتها الثانية كدبلوماسية ، وذلك حينما جرى تعيينها مندوبة شيلى الدائمة لدى الأمم المتحدة . وفى ١٩٤٥ ، اصبحت جابريلا ميسترال اول كاتبة فى امريكا الجنوبية تفوز بجائزة نوبل فى الآداب .

٥٣

كاترين مديتشى ..

ملكة فرنسا وحفيدة لورنزو ، تزوجت عام ١٥٣٣ من هنرى الابن الثانى لفرنسيس الأول ملك فرنسا .

كان همها خلال فترة حكمها التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية للتعايش معاً ضمن المجتمع الفرنسى لكنها انحازت فى النهاية للكاثوليك فامعنت القتل والسجن فى البروتستانت حيث قدر عدد قتلاهم بأكثر من عشرة آلاف قتيل منهم زعيمهم ادميرال كوليغنى .

٥٤

مارى لافوازييه ..

زوجة الكيميائى الفرنسى انطون فوازييه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) رائد الكيمياء الحديثة . درست مارى اللاتينية والانجليزية ، وساعدة زوجها فى تجاربه الكيميائية ، وبعد اعدام زوجها وأبيها بالمقصلة فى عام ١٧٩٤ ، خلال الثورة الفرنسية (١٧٨٩ ـ ١٧٩٩) ، نشرت ثمانية مجلدات باسم زوجها فى عام ١٨٠٥ .

٥٥

كاترين داراغون ..

ابنة ايزابيلا ملكة اسبانيا ، زوجة هنرى الثامن خطبت وهى فى التاسعة من عمرها لأحد أولاد الملكة اليزابيث أوف يورك الذى تزوجته فى عام ١٥٠١ .

بعد أربعة أشهر توفى زوجها لتعود مجددا للزواج من هنرى الثامن امير ويلز ابن الملك هنرى السابع . رزقت فى عام ١٥١٠ بولد توفى بعد ايام وبلغ عدد أولادها المتوفين التسعة .

وأخيرا ولدت الأميرة مارى عام ١٥١٦ .

اتسمت حياتها بالتعاسة والشقاء فبجانب خسارتها لأولادها التسعة فقدت كل أفراد عائلتها ، والدها ووالدتها ، ووالد زوجها ، حتى أخيرا خسرت زوجها الذى طالب الكنيسة باصدار قرار بطلاقها بحجة غضب الله على زواجه هذا وتجريدها من كل حقوق الحاشية والايراد ونفيها الى احدى المقاطعات النائية .

توفيت فى عام ١٥٣٦ .

٥٦

سكاجاوة ..

(المرأة الطائرة)

رحالة من الهنود الحمر من قبيلة ليمبى شوشون فى مونتانا الغربية ، قادت حملة استكشافية قام بها ميريويذر لويس (١٧٧٤ ـ ١٨٠٩) ووليام كلارك (١٧٧٠ ـ ١٨٣٨) من سانت لويس فى ميسورى فى مايو ١٨٠٤ الى المحيط الهادى فى نوفمبر عام ١٨٠٥ ثم العودة الى سانت لويس فى عام ١٨٠٦ ، وقطعت ثمانية آلاف ميل .

٥٧

إيمى نوبثر ..

إيمى نوبثر (١٨٨٢ ـ ١٩٣٥) : عالمة رياضيات المانية ، هاجرت الى الولايات المتحدة بعد تولى ادولف هتلر السلطة فى عام ١٩٣٣ ، ووصفها البيرت اينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) بأنها واحدة من أعظم عباقرة الرياضيات .

٥٨

كارولين هيرتشيل ..

كارولين هيرتشيل ، فلكية المانية ، ذهبت الى انجلترا للتعاون مع اخيها الفلكى وليام هيرتشيل (١٧٣٨ ـ ١٨٢٢) . وبعد اكتشاف كوكب اورانوس فى ١٧٨١ ، ومجموعات اخرى من النجوم والمذنبات ، حصلت كارولين على الميدالية الذهبية من الجمعية الملكية الفلكية فى عام ١٨٢٨ .

٥٩

الأم تيريزا ..

الأم تيريزا (١٩١٠) : داعية دينية ، ومحبة لخير الإنسانية ، وحائزة على جائز نوبل للسلام فى عام ١٩٧٥ ، وميدالية الحرية الرئاسية الأمريكية فى عام ١٩٨٥ ..

٦٠

فالنتيناتير يشكوفا ..

فالنتيناتيريشكوفا (١٩٣٧) : رائدة فضاء روسية ، اسماها نيكيتا خروشوف (١٨٩٤ - ١٩٧١) بطلة الاتحاد السوفييتى ، وقلدها وسام لينين وميدالية النجمة الذهبية . تيريشكوفا عاقبت الرجل على موقفه من المرأة بأنها الجنس الأضعف .

٦١

جين آدمز ..

كاتبة ممتازة ، وناشطة اجتماعية ، وداعية للسلام ، ورائدة فى الدفاع عن الحقوق المدنية ، وواحدة من أعظم النساء نفوذا فى تاريخ الولايات المتحدة ، وحائزة على جائزة نوبل للسلام فى عام ١٩٣١ ، بالمشاركة مع نيكولاس مورى باتلر (١٨٦٢ - ١٩٤٧) .

٦٢

مارى كينجسلى ..

باحثة بريطانية ، اهتمت بدراسة علم الإنسان والتاريخ الطبيعى ، وذهبت الى افريقيا ، واكتشفت ٦٥ جنسا من الاسماك النهرية ، ثلاثة منها سجلها المتحف البريطانى باسمها . وانتقدت كينجسلى النفوذ الأوروبى فى افريقيا ، وبخاصة افعال البعثات التبشيرية التى تقوم على اعتبار الافريقيين جماعات بدائية فى حاجة الى تعليم بدلا من اعتبارهم جماعات ذات ثقافات متفردة تستحق الاحترام .

٦٣

مارجريت بورك .. وايت ..

أمريكية فى القرن العشرين .

٦٤

راكيل كارسون ..

رائدة فى دراسة تأثير المبيدات الحشرية والمواد الكيمائية السامة على الطبيعة .

٦٥

سوزان برانيل أنطونى ..

ناشطة راديكالية ومناصرة لحق المرأة الأمريكية فى التصويت .

٦٦

هاريت توبمان ..

ممرضة وجاسوسة ، وداعية لتحرير الأمريكيين السود من العبودية .

٦٧

كلارا جارتون ..

« ملاك ساحة القتال » فى الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ومناصرة للخير والسعادة الإنسانية ، ومؤسسة الصليب الأحمر الأمريكى . وكتبت جارتون قصة حياتها وكتابين آخرين عن تاريخ الصليب الأحمر فى الحرب والسلام .

٦٨

اليزابيث بلاكويل ..

أول امرأة طبيبة فى الولايات المتحدة ، ورائدة جمعية الصحة الوطنية .

٦٩

مارى بيكرادى ..

رائدة العلاج عن طريق التركيز الروحى ومؤسسة جمعية العلوم المسيحية فى ١٨٧٥ ، وناشرة صحيفة « كريستيان سانيس مونيتور » الأمريكية الأسبوعية فى ١٩٠٨ .

٧٠

لاكشمى باى ..

بطلة وطنية هندية ، ورمز الشجاعة والوطنية ، تمردت على الحكم البريطانى الكولونيالى ، وحملت السلاح دفاعا عن بلده جهانسى وقلعة جواليور ، وقادت الهنود حتى الموت .

٧١

مارى هاريس جونز (الأم جونز) ..

رائدة نقابية أمريكية ، وعضو مؤسس فى الحزب الديمقراطى الاجتماعى ، دافعت عن حقوق عمال مناجم الفحم وطالبت بتحريم تشغيل العمال الأطفال فى المصانع ، وقادت مسيرة أطفال من مصنع نسيج فى بنسلفانيا الى منزل الرئيس ثيودور روزفيلت (١٨٥٨ ـ ١٩١٩) فى نيويورك عام ١٩١٥ .

٧٢

ميلدريد ديدريكسون زهارياس ..

أعظم امرأة رياضية أمريكية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، أحرزت أرقاما قياسية فى رياضة رمى الرمح ، وسباق الحواجز والقفز العالى والجولف .

٧٣



بيتى فريدان ..

أم الحركة النسائية الحديثة فى الولايات المتحدة .

٧٤

شيرلى شيشولم ..

أول امرأة افريقية ـ أمريكية انتخبت عضوا فى الكونجرس الأمريكى فى ١٩٦٨ ، وهى أول امرأة ملونة تسعى الى تسميتها عن الحزب الديمقراطى لانتخابات الرئاسة الأمريكية . وفى ١٩٩٣ عينها الرئيس الأمريكى بيل كلينتون سفيرة الولايات المتحدة لدى جامايكا .

٧٥

سارة بريلاف وولكر ..

امرأة عصامية أمريكية ملونة ، اخترعت المشط المعدنى الساخن وعقارا مغذيا للشعر ، وباعت منتجاتها عن طريق الطلبات البريدية ومندوبى المبيعات ، وأصبحت مع حلول ١٩١٤ ، أول امرأة ملونة مليونيرة فى الولايات المتحدة .

٧٦

جيرتيرود بيل ..

دبلوماسية وعالمة آثار بريطانية ، درست فى جامعة أوكسفورد ، وقامت برحلات الى الجزيرة العربية ، وترجمت أعمالا عربية . وفى عام ١٩١٤ اشتغلت لحساب الاستخبارات البريطانية فى العراق ، وجمعت معلومات عن القبائل العربية ، وأصبحت شخصية مؤثرة فى السياسات العراقية

اللاحقة على الاستقلال ، وفى مارس ١٩٢١ عقد ونستون تشرشل (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥) ، وزير المستعمرات ، مؤتمر القاهرة لتشكيل حكومة عربية فى العراق ، وقامت جيروترود بيل بدور بارز فى ضمان اعتلاء الملك فيصل الأول العرش العراقى .

٧٧

مارثا جراهام ..

أعظم راقصة بالية أمريكية ، حصلت على أوسمة عديدة ، من بينها ميدالية الحرية الرئاسية فى عام ١٩٧٦ .

٧٨

آن فرانك ..

طفلة يهودية مراهقة ، هربت من الابادة النازية مع أسرتها الى هولنده ، وكتبت أروع مذكرات طفلة خائفة من المستقبل قبل ترحيلها من هولنده وموتها بالتيفود فى معسكر الاعتقال . وحازت المسرحية المنقولة عن مذكرات آن فرانك على جائزة بوليتز الأمريكية فى الأدب فى عام ١٩٥٥ .

٧٩

مارى وولستونكرافت ..

كاتبة وأديبة ومترجمة بريطانية ، دافعت عن حقوق المرأة ، وتزوجت الفيلسوف السياسى وليام جودوين (١٧٥٦ ـ ١٨٣٦) ، ووضعت بنتا ، مارى شيللى (١٧٩٧ ـ ١٨٥١) .

٨٠

صونيا جيرمين ..

عالمة رياضيات فرنسية ، وضعت « قانون تذبذب السطوح المرنة » فى عام ١٨١٦ ، واستخدم العلماء هذا القانون فى حل مشاكل عملية أثناء بناء « برج ايفل » .

٨١

اليزابيث فراى ..

رائدة اجتماعية ودينية بريطانية ، دافعت عن تحسين ظروف حياة المرأة داخل السجون .

٨٢

مارى فيروناكس سومرفيل ..

ملكة علوم القرن التاسع عشر ، وبطلة الأوساط العلمية والأدبية ، دافعت عن حق المرأة فى التصويت ، ووقعت عريضة حقوق المرأة التى قدمها جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) الى البرلمان البريطانى .

٨٣

كاترين ليتلفيلد جرين ..

مخترعة ماكينة حلج القطن بالمشاركة مع ايلى ويتنى (١٧٦٥ ـ ١٨٢٥) وهى الماكينة التى أحدثت ثورة زراعية فى جنوب الولايات المتحدة .

٨٤

الملكة جينجا ..

ملكة محاربة حقيقية ، وهى ابنة الملك تدونجو نجولا . اهتمت بتوحيد قبائل ماتامبا ، وكونجو ، وكاسنجى ، وديمبوس ، وكيساما ، وبلاتالتو الوسطى ، ونجحت فى اقامة تحالف عظيم بين رجال القبائل المحاربة الكولونيالية البرتغالية فى أنجولا .

٨٥

بوكاهونتاس ..

ابنة زعيم اتحاد قبائل الهنود الحمر بوهاتان (١٥٥٠ ـ ١٦١٨) فى منطقة فيرجينيا . ومن خلال زواجها من البريطانى جون رولف (١٥٨٥ ـ ١٦٢٢) قامت بوكاهونتاس بدور بارز فى اقامة أول مستعمره بريطانية فى أمريكا ، وتنشيط زراعة التبغ .

٨٦

هاريت بيشرستوى ..

مؤلفة أمريكية ومؤيدة لمبدأ تحرير السود من العبودية .

٨٧

أداة لوفليس ..

عالمة بريطانية فى الرياضيات والكمبيوتر .

٨٨

لوكريتيا كوفين موت ..

داعية سلام أمريكية ، دافعت عن قضية الحقوق المتساوية بين الرجل والمرأة ، وطالبت بحق المرأة في التصويت .

٨٩

كاترين بيتشر ..

رائدة أمريكية فى تدريس علم الرياضيات وتعليم المرأة .

٩٠

اليزابيث كادى سنانتون ..

كاتبة أمريكية موهوبة ، تأثرت بالنتائج المأساوية للقوانين التمييزية المعادية للمرأة ، ودافعت عن المساواة بين الجنسين .

٩١

لوسى ستون ..

أستاذة أمريكية ، وداعية لحقوق المرأة ، درست اللاتينية والعبرية للتأكد من صحة ترجمة النصوص الدينية المتعلقة بحقوق وواجبات المرأة .

٩٢

مارى آن ايفانز ..

مؤلفة وكاتبة بريطانية ، التقت واشتغلت مع شخصيات أدبية بريطانية بارزة مثل : هيربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) ، وجون ستيوارت ميل (١٨٠٦ ـ ١٨٨٣) ، والفيلسوف والناقد جورج لويس (١٨١٧ ـ ١٨٧٨) . وكان لكتاباتها الأدبية تأثير واضح على الأدب العالمى ، وأثنى عليها المؤلف تشارلز دكينز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) .

٩٣

اليزابيث كينى ..

رائدة استرالية فى معالجة الأمراض بالوسائل البدنية والميكانيكية كالتدليك والتمارين الرياضية والماء والضوء والحرارة والكهرباء .

٩٤

لويز بويد ..

رحالة أمريكية ، حصلت على ميدالية سانت أولف من ملك النرويج فى عام ١٩٢٨ ، وهى أول امرأة غير نرويجية تحصل على مثل هذا الوسام . وخلال الحرب العالمية الثانية ، قررت الحكومة الأمريكية اعتبار المعلومات التى جمعتها بويد من الطرف الشمالى الشرقى من جزيرة جرينلاند القطبية الشمالية ذات أهمية عسكرية بالغة ، ونتيجة لذلك ، تقرر تأجيل نشر كتابها حتى ١٩٤

٩٥

ماريا مونيتسورى ..

أول امرأة طبيبة ايطالية متخصصة فى وضع برامج تعليم الأطفال المعاقين فى العالم .

٩٦

مارى مالكويد بيثيون ..

رائدة قضايا المرأة الملونة الافريقية ـ الأمريكية فى القرن العشرين .

٩٧

الينور الأكويتانية ..

ملكة فرنسا (١١٣٧ ـ ١١٥٢) وملكة بريطانيا (١١٥٤ ـ ١٢٠٤) وهى أم الملكين البريطانيين الملك ريتشارد الأول (١١٥٧ ـ ١١٩٩) ، ويدعى ريتشارد قلب الأسد ، والملك جون الأول (١١٦٧ ـ ١٢١٦) ، وكانت أعظم امرأة سياسية فى عصرها .

٩٨

الملكة تماره..

ملكة جورجيا فى عصرها الذهبى قبل غزو المغول بقيادة جينكيز خان (١١٦٧ ـ ١٢٢٧) وتدمير عاصمتها تفليس فى عام ١٢٣٦ . وفى ظل حكمها ، شهدت جورجيا نهضة فى الأدب والفنون .

٩٩

انى بسانت..

كاتبة بريطانية ، وناشطة اجتماعية ، انضمت الى الجمعية الغابية الاشتراكية بزعامة جورج بيرناردشو (١٨٥٦ ـ ١٩٥٠) ، ودعت الى تحديد النسل ، وكافحت الفقر والاضطهاد .

١٠٠

أنا فرويد..

رائدة التحليل النفسى للأطفال ، وهى نمساوية المولد ، وفى عام ١٩٣٨ هاجرت مع والدها سيجموند فرويد الى بريطانيا ، حيث واصلت عملها فى تطوير نظرية التحليل النفسى وسيكولوجيا الذات ، وبعد عودتها الى النمسا فى عام ١٩٧١ ، استقبلت استقبالا حماسيا فى مؤتمر التحليل النفسى الدولى السابع والعشرين ، وفى العام التالى حصلت على الدكتوراه الفخرية من جامعة فيينا .

١٠١

ماريان أندرسون..

أول امرأة مغنية اوبرا افريقية ـ امريكية ، تحطم حاجز التحامل العرقى ، وتلقت دعوة من الرئيس الامريكى فرانكلين روزفيلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) للغناء فى البيت الأبيض ، وكانت بذلك اول فنانة ملونة تغنى هناك . وفى عام ١٩٥٨ ، عينها الرئيس الامريكى دوايت ايزنهاور (١٨٩٠ ـ ١٩٦٩) عضوا فى لجنة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة ، وفى عام ١٩٦١ غنت فى احتفال تولية الرئيس جون كينيدى (١٩١٧ ـ ١٩٦٣) . وفى عام ١٩٦٣ حصلت على ميدالية الحرية الرئاسية .

فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٩٧٩٦ لسنة ١٩٩٥

I.S.B.N.

977-5695-00-7



مائة امرأة غيرن مجرى التاريخ !!

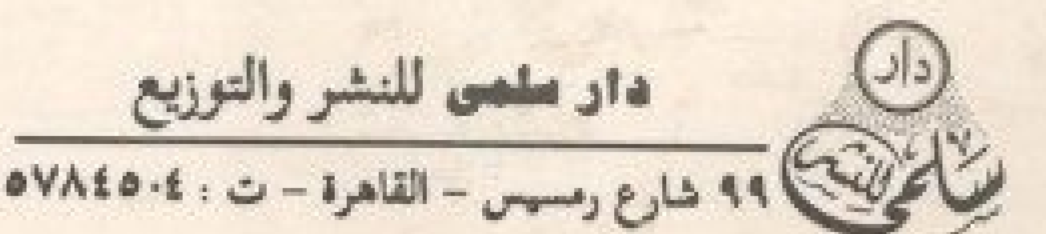
التاريخ ملئ بصفحات ناصعة البياض لآلاف النساء العظيمات ، اللاتى قدمن للإنسانية إنجازات رائعة جعلتهن يتبوأن مكانة رفيعة فى سجل الخالدين . كما يضم التاريخ الإنسانى بين طياته - للأسف - صفحات حالكة السواد لنساء تنكرن لإنسانيتهن ، وتحركن من خلال ما لديهن من نزعات تدميرية سواء نحو الذات ، أو نحو الآخرين !

وبين نساء التاريخ عظيماته ، وشقياته ، شخصيات لا لون لها ، ولا طعم ، ولا رائحة ، آثرت البقاء فى الظل ، أو على هامش الحياة ، لا تأثير لهن ، ولا فعالية .

وهذا الكتاب محاولة لإعادة كتابة تاريخ النساء ، ويروى كيف كان للمرأة النصيب الأوفر من صفحاته سواء الناصعة البياض ، أو الحالكة السواد ، وكيف لعبت دوراً خطيراً فى كتابة أحداثه سلباً ، وإيجاباً ، وكيف كانت وراء تحريك عجلته تارة إلى الأمام ، وتارة إلى الخلف . كيف كانت تمثل فى بعض الأحيان قوة دفع ، وفى أحيان أخرى حجر عثرة أمام تقدم البشرية .

هذا الكتاب ما هو إلا مرجع هام لأى قارئ يريد أن يسبر أغوار التاريخ لمعرفة أهم نسائه فى الماضى والحاضر اللاتى ساهمن بالنصيب الأعظم فى تغيير مسار العالم .

مجدى كامل


دار سلمى للنشر والتوزيع
٩٩ شارع رمسيس - القاهرة - ت : ٥٧٨٤٥٠٤